

الاعتقادات في السودان



شرف الدين الأمين عبدالسلام

دار جامعة الخرطوم للنشر



الهمبة في السودان

أصولها ، دوافعها وشعرها

الى والدي ...

(الطبعة)

شرف الدين الامين عبد السلام

معهد الدراسات الافريقية والآسيوية

الخرطوم

١٩٨٣

توزيع

مكتبة

مكتبة

الناشرون
دار جامعة الخرطوم للنشر
جامعة الخرطوم

ص. ب ٣٢١

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٩٨٣

٢٨٦١

الطابعون
دار الطباعة
دار جامعة الخرطوم للنشر

الاهداء

الى والدى...

(المؤلف)

المحتويات

مقدمة : ١

الهبة : معناها ٧

أصلها ونشأتها ١٩

دوافع الهبة وأسبابها ٥٨

نظم الهبة وقواعدها ٨٣

شعر الهبة مضمونه وظواهره ١١٢

بين الهبة وصعاليك العرب ١٤٧

المراجع والمصادر ١٨٧

في هذا الكتاب من هذا الكتاب ما يمكن أن نسميه بالقبول الخاص . والعصر
الذي نعيش فيه في هذه الجزيرة على هذه العوالم والقيم من طرفنا وإيرانها
والتي هي في الحقيقة من أهم مميزات الأمة البولندية وبالنسبة إلى الجزيرة
والتي هي في الحقيقة من أهم مميزات الأمة البولندية وبالنسبة إلى الجزيرة

كلمة جليلية

في كتاب هذا البحث عن ظاهرة الهبة في السودان ، لم تكن
موضوعاً رئيسياً في فهمي لهذه الظاهرة على ما كتب في هذا الكتاب . وحيث
أنه لا بد أن يكون محاورات الكتاب على هذه الظاهرة . وهذه المحاورات
هي : - في الواقع - ثمرة هذه الظاهرة . ومن هنا أتت أن دراسة هذه
الظاهرة ، لا بد أن يكون لها الأهمية التي هي عليها الآن . ومن أهم
التي هي : - في الواقع - ثمرة هذه الظاهرة . ومن هنا أتت أن دراسة هذه
الظاهرة ، لا بد أن يكون لها الأهمية التي هي عليها الآن . ومن أهم

وفي هذا الأساس نشأت في استجلاء الأمر لمرحلة المراحل المشهورة بهذه الظاهرة
والتي هي : - في الواقع - ثمرة هذه الظاهرة . ومن هنا أتت أن دراسة هذه
الظاهرة ، لا بد أن يكون لها الأهمية التي هي عليها الآن . ومن أهم

مقدمة

إن الغرض من هذه الدراسة هو تسليط الضوء على ظاهرة الهمبته لكشف الجوانب الخفية فيها وإزالة مايكتنفها من الغموض وصولاً الى جلاء صورتها الحقيقية كما في الواقع. والهمباته يمثلون مجموعة فولكلورية ينطبق عليهم جميع ماينطبق على تلك المجموعات ومن أبرز العناصر المميزة لهذه المجموعة هي أنها تقوم بعمل واحد هو نهب وسلب الأبل. فالذي يميز الهمباتي من غيره هو اقتصاره على نهب الأبل. دون غيرها وكل من يفعل غير هذا، وإن كان نهباً، لا يعد منتبياً الى هذه المجموعة. والعنصر الثاني هو أن لهذه المجموعة قيمها المشتركة التي تجمع بين جميع أفرادها ويتحلى بها كل فرد ينتمى إليها أما العنصر الثالث فهو اللغة. فبالرغم من أن اللغة التي يستعملها الهمباته في شعرهم هي لغة البادية الرعوية في السودان، إلا أن هناك بعض الألفاظ والتعابير الخاصة بهم المميزة لهم عن سواهم. فلههمباته في هذا المجال مايمكن أن نسميه بالقاموس الخاص. والعنصر الرابع يظهر في أن هذه المجموعة تنقل هذه المعلومات والقيم عن طريق تداولها وتوارثها. والتداول - في نظري - من أهم مميزات المادة الفولكلورية وبالتالي المجموعة الفولكلورية ولكل ذلك فإن الدراسة التي نقدمها هنا تدخل ضمن الفولكلور.

كيفية جمع المادة :

عندما فكرت في كتابة هذا البحث عن ظاهرة الهمبته في السودان، لم تكن صورتها واضحة تماماً في ذهني وبعد اطلاعي على ماكتب في هذا المجال، وجدت أن ذلك لا يعدو أن يكون محاولات لالقاء الضوء على هذه الظاهرة. وهذه المحاولات هي - في الواقع - مجرد إنطباعات تفتقد الدعم العلمي. ومن هنا أيقنت أن دراسة هذه الظاهرة تستلزم أن يوفر لها الانسان المعلومات من منبعها الأصلي، أي البادية، ومن أفواه المشتغلين بها أنفسهم أو المتصلين بها إتصالاً مباشراً، الذين شهدوا أحداثها وعاصروا فرسانها. وكان العمل الميداني هو الوسيلة التي لا تضاهي في توفير مادة الموضوع.

وعلى هذا الأساس بدأت في استجلاء الأمر لمعرفة المناطق المشهورة بهذه الظاهرة واستطعت أن اتوصل الى أنها توجد أساساً في باديتي كردفان والبطانة. وهما منطقتان

واسعتان تقطنهما قبائل عربية تعتمد في حياتها على تربية الماشية . فلا بد ان يشل الاختيار نماذج من المنطقتين البدويتين لايجاد نوع من مقارنة المادة المستمدة من المنطقة الاخرى ، ثم لتكثيف المعلومات وصولاً لافضل النتائج .

كانت الزيارة الأولى لمنطقة الجعليين في بادية البطانة . وكان لاختيار هذه المنطقة صيبه . وهو ان هذه المنطقة هي التي عاش فيها الطيب ود ضحوية ، وهو أشهر الحمباته وأشهرهم . وشعره يعبر بحق عن الخطوط الأساسية لهذه الظاهرة ، بل يتعدى ذلك لأدق التفاصيل الخاصة بحياة الحمباته ، مما يجعله نموذجاً لهم . وبعد الاطلاع على ما كتب عن المنطقة المعينة وتوفر المعلومات عنها ، سافرت الى هناك . غطى عملي المنطقة الواقعة على الضفة الشرقية للنيل ، ما بين مدينة شندى في الجنوب ومدينة العالاب في الشمال . وكانت حصيلة هذه الجولة مجموعة من شعر الطيب ود ضحوية وبعض أشعار الحمباته الآخرين ومعلومات وافيه عنه ، ومعلومات عامة عن ظاهرة الحمبة في مختلف جوانبها .

اما الزيارة الثانية فكانت لمنطقة الكواهلة في بادية البطانة أيضاً . وهي المنطقة الواقعة بين نهري النيل والرهدة وغرب نهر الدندر لإبتداء من قرية « نور الهادي » جنوباً وإنهاء بقرية (الحرير) - على طريق التضاريف ، مدني - شمالاً . أما سبب اختيار هذه المنطقة ف يرجع الى ان نشأتى قد كانت بالقرب منها . وكنت أسمع عن عدد من الحمباته من قبيلة الكواهلة . وفعلت وقفت عند زيارتي للمنطقة في مقابلة كل الذين ذاع صيتهم في المنطقة وجمعت من أفواههم كل المعلومات ذات الفائدة في دراسة هذه الظاهرة .

وكانت الزيارة الثالثة لمنطقة قبيلة جمر في كردفان . أما سبب اختيار هذه المنطقة ف يرجع الى ان اشتهارها بهذه الظاهرة أكثر من مناطق كردفان الأخرى . والجدير بالتسجيل هنا ان كل المادة التي حصلت عليها في تلك المنطقة كانت من افواه الحمباته المسجونين والمتظرين بسجن مدينة النهود . وكان وجود عدد منهم بين نزلاء السجن أول مؤشر الى حقيقة كانت غامضة بعض الشيء عن استمرار هذه الظاهرة واستمرارها في مناطق كردفان في الوقت الحاضر . وكانت حصيلة هذه الزيارة عدداً كبيراً من الروايات ومن المعلومات عن الحمبة ومشاهير الحمباته في المنطقة .

اما الأسلوب الذي أتبعته في جمع المادة فقد كان أسلوب المقابلة . فقد كنت أقوم

بإجراء مقابلة مع الراوى وأطرح عليه عدداً من الأسئلة الواحد تلو الآخر . وكانت الأسئلة الرئيسية تتركز حول المعنى ، والأصل وتاريخ النشأة ثم أشهر القبائل والأفراد في النيلة والمنطقة ، والبادية السودانية عامة . وكان جانب من هذه الأسئلة يدور حول الدوافع والأسباب ، نظم الحمبة وقواعدها ثم القيم السائدة في مجتمعها . وبلى ذلك السؤال عن الشعر . وكان بعض الشعر يرد اثناء الرد على الأسئلة السابق ذكرها . ولم تكن طريقة توجيه السؤال تنقيد بهذا الترتيب للأسئلة ، اذ أحياناً كان يقتضى الموقف تقديم سؤال قبل سواه أو تأخيرها . كما ان هذه الطريقة لم تكن لتقف حائلاً بين الراوى والاسترسال في الحديث . فأحياناً يترك الراوى السؤال المطروح عليه جانباً ويتحدث عن شيء لا يمت للسؤال بصلة . وهنا تقتضى الضرورة تغيير صيغة السؤال أو السؤال عن شيء آخر وهكذا .

تلك كانت مرحلة جمع المادة من منابعها . وبعدها كانت مرحلة تفريغ المادة من الأشرطة الى الورق . وقد عملت على نقل كل المادة من الأشرطة عن طريق الكتابة الصوتية - والواقع أنني كنت عقب كل زيارة أعمل في تفريغ ما تجمع لدى حتى أكلت نقل كل ما تجمع عندي من مادة . ثم انتقلت بعد ذلك الى مراجعة النصوص وضبطها ، وإثبات المعاني وتحقيقتها . وحين فرغت من ذلك أصبحت الصورة عندي واضحة تماماً .

أما اساس المنهج الذي أتبعته في كتابة البحث فهو دراسة الجوانب المختلفة لظاهرة الحمبة كما يعكسها شعر الحمباته وأخبارهم ورواياتهم والروايات الأخرى التي تروى عنهم . ولهذا المنهج ثلاثة جوانب :- يتناول الجانب الأول دراسة الحمبة من حيث معناها وأصلها ونشأتها ودوافعها ومسبباتها وذلك من خلال الشعر والأخبار والروايات والجانب الثاني عبارة عن دراسة لشعر الحمباته للوصول الى ما يعبر عنه من افكار وآراء وفلسفات . ثم استخلاص ظواهر وخصائص هذا الشعر الفنية والموضوعية . اما الجانب الثالث فهو مقارنة بين ظاهرة الحمبة والصعلكة العربية لاستخلاص ما فيها من السمات المشتركة والاختلافات الجوهرية .

وفي الختام أتقدم بخالص الشكر والعرفان لكل من مد لي يد العون وأنا أقوم بإعداد هذا البحث في مختلف مراحله . وأخص بالشكر الأستاذ الدكتور سيد حامد

حريز لارشادته وتوجيهاته المفيدة . كما أشكر الأستاذ الدكتور عبد الغفار محمد أحمد لاطلاعه على جزء من هذا البحث وابداء ملاحظاته المقدرة كما لا يفوتني أن اجزل الشكر لمعهد الدراسات الافريقية والآسيوية ودار النشر بجامعة الخرطوم لجهدهم المقدر في نشر هذا الكتاب

وأخيراً أمل أن يكون هذا البحث قد وفق في كشف جانب من جوانب تراثنا الشعبي . والله المستعان .

« المؤلف »

رموز الكتابة

استعملت في كتابة النصوص بالإضافة الى الوسائل التقليدية من ضمة وفتحة وكسرة وتنوين وهمزة وتشديد الرموز التالية : -

/ ترمز الامة وترسم فوق حرف الامة كما في كلمتي يوم وليل وهما يوم وليل
م ترسم فوق الحرف وتدل على اهمال نطقه .

و تعبر عن الصوت الحنجري المدغم في الواو .

ح تعبر عن الجيم المعطشة كما في الفعل (كجن) بمعنى كره وتنطق كما في كلمة Chair
الناء المربوطة ، منفصلة كانت أو متصلة ، تنطق تاء اذا كانت متقوطة ، واذا

كتبت من غير ان تنقط فإنها تنطق هاء .

في حالة المفرد المذكر الغائب يحذف الضمير فتكتب مشي له « مثلاً مشي لُو »
وقال له « قال لُو » . وفي حالة الأسماء تكتب « سيفُو » بدلا عن « سيفه »

و « حَالُو » بدلا عن « حاله » .

استعملنا قوسين هكذا () للدلالة على ان هذه الكلمة غير واضحة .

الهمبته : معناها والالفاظ الداله عليها

استعمل لفظ « همبته » ليدل على جماعة من البدويين كانت تمارس النهب والسلب في البادية . ورغم رواج وتداول اللفظ ، فنى قواميس المناطق والقبائل التي عرفت هذه الظاهرة عدة ألفاظ تدل على نفس الجماعة . ولعلنا لانحس بالدهشة إزاء وجود عدد من الألفاظ المختلفة التي تدل على معنى واحد ، لما نعلمه من تميز السودان بتباين واختلاف اللهجات حتى بين المجموعة العربية نفسها . اما لفظ « همبته » ومصدره « همبته » فهو من ألفاظ غرب السودان . وفي قبيلة حمر في كردفان — تعرف هذه الجماعة بـ « السراجة » أو « السروجية » بينما تعرف في منطقة البطانة بـ « المهاجرة » و « النهاضين » أو « النهاض » .

(١) الهمبته : —

في « قاموس اللهجة العامية في السودان » همبت همبته (س) ، الهمبته طريقه في الحياة تتموم على سلب أموال الأغنياء كما كان يفعل صعاليك العرب والجماعة همبته وهي تطلق على من يتخذ هذه الحرفة خاصة سرقة الجمال وهناك قبائل في وسط السودان وغربه مشهورة في وصف الهمبته — لعل اللفظة من نهب قلبت من نهياته الى همبته . وقيل ان لفظة هنبوتى وهنباتى ، وهو سارق الأبل ، منسوبه الى الصحراء والفسلاة والسهول الحلوية قال ود الحسين الجعلى : —

ياشبه البسادرن فوق على الهنبوتى

ولعلها من الهمبته (ف) الأمر الشديد والداهية (١)

ولكننا نرى أن هذا المعنى لايفى بالغرض تماماً وهو تعريف غير دقيق . وتعليلنا لهذا الزعم هو ما جاء في بقية النص في قوله « وقيل ان لفظة هنبوتى وهنباتى ، وهو سارق الإبل » فهو هنا يحدد المعنى بصورة أكثر دقة اذ يقول بان الهمباتى هو سارق الابل . وهناك بالطبع ، فرق بين أن يختص إنسان بنهب الإبل ولا تمتد يده الى غيرها

١ — الدكتور عون الشريف قاسم ، قاموس اللهجة العامية في السودان ، شعبة أبحاث السودان ١٩٧٢

وبين ان ينهب الشخص كل مايقع في طريقه . وهذا يدلنا على ان المعنى الذى أعطاه القاموس للمعنى الهمبته والهمباته هو تعريف ناقص ، لأن عبارة « طريقة في الحياة تقوم على سلب أموال الأغنياء » توسع دائرة المعنى لتدخل فيها من الأموال غير الإبل وتزيد وحتى إضافة عبارة « كما كان يفعل صعاليك العرب » لانتضيف للمعنى جديداً بل تزيده ابهاماً وغموضاً - لأن الصعلكة في الجاهلية كانت تقوم على سلب ونهب أموال الأغنياء بكل أنواعها ، وان كان الغالب فيها هو نهب الإبل . (١) ولذلك فإن المعنى المشار اليه ينطبق على جماعة « الصعاليك » أكثر من انطباقه على جماعة « الهمباته » . هذا « وكان الصعاليك طائفة من قطاع الطرق كانوا متشربين في أرجاء الجزيرة العربية ينهبون من يلقونه في صحرائها ويتخطمونونه ويأكلون ماله » (٢)

(٢) الهمباته :-

يخطو القاموس خطوة كبيرة نحو المعنى المراد بالهمباته حين يقول : « والجماعة همباته وهي تطلق على من يتخذ هذه الحرفة خاصة سرقة الجمال . » وكان ينبغي أن يقول « وهي سرقة الجمال » بدلا من « خاصة سرقة الجمال » وهو أوشك ان يقول ذلك !

وهناك محاولات أخرى للتعريف بالهمباته . ومن هذه المحاولات ماورد في كتاب « التراث الشعبي ل قبيلة البطاحين » حيث جاء في الحديث عن المهاجرة « وهم لصوص الإبل » (٣) . وفي مقال بمجلة الخرطوم لعللى أحمد صديق جاء ان الهمباته :- « هم جماعة من مختلف القبائل أشداء وشجعان مسلحون كان ديدنهم نهب الإبل لجمع المال بكافة الجبل » (٤) . وفي هذا التعريف الأخير شيء من الدقة .

ان الهمبته - في نظرنا - هي طريقة في الحياة تقوم على نهب وسلب الإبل - والذي يمارسها يسمى « همباتى » والجماعة همباته . أما كيف توصلنا الى هذا التعريف

١ - الدكتور يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٩م ص ١٤٨ .

٢ - الشعراء الصعاليك ص ٢٤ .

٣ - الطيب محمد الطيب ، التراث الشعبي لقبيلة البطاحين ، معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية ١٩٧١م

ص ٦ .

٤ - مجلة الخرطوم عدد ديسمبر ١٩٦٩م مقال لعللى أحمد صديق ، ص ٦ .

فإننا استخلصناه من شعر هذه الجماعة ومن الروايات الشفوية التى تتحدث عن الهمبته وجماعة الهمباته . وهذا طرف من تلك الأشعار والروايات والقصص التى تروى عنهم :-

١ - أشعارهم :

يقول الطيب ود ضحوية :-

يَوْمًا فِي بَسِط (١) عِنْدَ الْمَزْنَدِ عَسَاجَه (٢)
وَيَوْمَ غَرْبَتَيْنِ (٣) مِنْ جَبْرَه (٤) شَتَايِلِ كَسَاجَه (٥)
لَا تُنْهَادُ نَبِيَّ يَافِطِي السَّجِينِ مُو (٦) حَسَاجَه
بَيْش (٧) نَرَضِيهَا غَيْرَ الْبَلِّ جَدَايَةَ الْبَاجَه (٨)

فهذه المحبوبة التى تشبه الظبية التى ترعى فى أرض يغطيها الماء والكلأ ، ليس هناك سبيل يكسب رضاها غير الإبل . ومادام هو يسعى دائما ليحفظ بمحبوبته راضية ومتعلقة له ، فان التهديد والوعيد لن يقف بينه وبين تحقيق ما يصبوا إليه وهو رضا المحبوبة ، أما الوسيلة الى ذلك فهى نهب الإبل ، ويقول أيضاً :-

يَوْمَ جَالَسِينَ مَعَ الدُّيْقَةِ (٩) أَلْبَقُودَ حَيْرَتِيهَا (١٠)
وَنِيَاةَ بَشْقَرَنَ أُمَ شَعْفَةَ وَنَشَقَ بَنَى أُنْثِيهَا (١١)

وه أم شعفة « كناية عن الناقة . ويقول فى موضع آخر :-

- ١ - بسط : فرح وطرب
- ٢ - العاج : السوار وهو حلقة تلبسه المرأة فى زندها أو معصمها والمزند عاجه كناية عن امتلاء الحـمـمـة
- ٣ - غربتين : أى سرت هبن ناحية الغرب
- ٤ - جبره : مكان فى منطقة الكيايش
- ٥ - كساجه : قبيلة فى كردفان
- ٦ - مو : بمعنى ليس وتعنى لا أيضا .
- ٧ - بيش : بأى شيء ويقولون ايش يعنون أى شيء .
- ٨ - جداية الباجه : الظبية . والباجه : الأرض المنخفضة التى بها الماء والكلأ - وهى أيضا الخلاه .
- ٩ - الديقة : الصيد البكره
- ١٠ - حريتها : الحرب : الشعر . (١١) أنثيها : الخلاه

الملكة (١) البذل (٢) ايدو ومكضم (٣) سيمو
واسقى انياقو (٤) من ترعة (٥) وسد زبي قيفو (٦)
في تقطع (٧) مجالس هملين من صيفو
يوم بتعالو (٨) بنى الساحر (٩) وابزعل كيمو (١٠)

والشاهد في قوله « واسقى نياقو » اذ ان انياق هي جمع ناقة . فهو هنا يتحدث عن ذلك
الذي أهمل لبله بعد ان أورد لها الماء وأنشغل عنها بالحديث في المجالس - ومثل هذا
سوف ينقض عليه في يوم من الأيام فيفقد عليه مزاجه ويدخل القلق الى نفسه . ويقول
آخر :-

واحد ين في البيوت بنى فروج الجداد (١١) يرضوهم
واحد ين (المسكرات) بنى القوافي (١٢) ملوهم
حد الانجليز قطعوا بنى السكة (١٣) ماساموهم (١٤)
وقتن زومه (١٥) يا حسن (١٦) العليقات (١٧) جوهين

والشاهد في قوله « العليقات جوهين » . فالعليقات ومفردها (عليقي) هي قبيلة شمالية
مشهورة ببيع الجمال . وقال الكاهلي :-

- ١ - الملك : الملقق الذعن
- ٢ - تل : مز ومال وتمدح المرأة بتل اليد
- ٣ - كضم : ضم فاه وسكت (٤) أنياق : أنياق جمع ناقة
- ٥ - ترعة : بركة الماء
- ٦ - تقطع : من قطع فيه : اغتابه ومنها القطعة وهي الاغتياب
- ٧ - بتعالو : من عني : قصد
- ٨ - قيف : شاطئ النهر حيث يقف الانسان
- ٩ - الساحر : أحمد جمال الطيب ود ضحوية
- ١٠ - الكيف : المزاج والسود
- ١١ - فروج الجداد : الفروج فرخ الدجاج . والجداد الدجاج
- ١٢ - القوافي : القوافي (١٣) السكة : الطريق
- ١٤ - ماساموهم : سام الشئ : عرفه لبيع
- ١٥ - زومه : شجع ومتشاك (١٦) حسن : زميل الشاعر
- ١٧ - العليقات : قبيلة شمالية مشهورة .

نأس عبد الله علوا وشدوا فوق قياس (١)
بقيت حيران وزهجان (٢) من خدمة الناس
البكره (٣) العلى جبهة النحال بأب راس (٤)
بنجيبها الى الحجبوها (٥) من عين الحسود والناس

هذا على سبيل المثال لا الحصر - فكل شعرهم يتحدث عن نهم وسعيهم لذات لارضاء
محبوباتهم اللاتي يكمن رضاؤهن في جلب الإبل مقياس الثراء في مجتمعهم .

أما قصصهم فيكفي أن نورد منها هذه القصة دلالة قاطعة على انهم لا يهتمون غير الإبل .
يقول الراوى وهو يحكى عن السريرى أحد هبابة الكواهلة : « قالوا جاء وشاف ليهو
حركة عيرس في حلة بدري . وبتعدين معاهو رفيقا لي . قال لي القليل هني -
النشوف السيره (٦) نستناها (٧) قال لي : آزول انت آزول مسح (٨) وأنت آزول
الحكومة كايسته ليك وميستنى شئو في العيرس ؟ . قال لي : لا كدنى التستنا
امكن السيره تجي ويخن فوقها بناتاً سمحات نهز فوقهن ياأخي وخرت (٩) ليتا
دعب ونفوت . قال لي : آزول دي ما بتقدر تسيها (١٠) قال لي : على الطلاق الا أسيها
أنا - بس أنت أمسك لي الجمال . عندو من السلاح بتدقصة أب جقمرة (١١) وعندو
سيف وعيندو درقة وعيندو قرار (١٢) بشيلو في جراب (١٣) يكسر بنى يحتطب بيتهو

- ١ - قياس : جمع تيس وهو الجمل .
- ٢ - حيران : من حار في أمره اذا جهل وجه الصواب فيه
- ٣ - البكره : الصغيرة من الابل
- ٤ - أب راس : الجمل
- ٥ - حجب : أفنى وحفظ
- ٦ - السيره : من سار العيرس اذا ذهب في زفة الى بيت المروس
- ٧ - نستناها : نتظرها .
- ٨ - مسح : هارب ومطلوب القبض عليه .
- ٩ - خرت المال : انتزعه دون حق
- ١٠ - تسيها : من سوى : عمل .
- ١١ - أب جقمرة : سلاح ناري قديم
- ١٢ - قرار : فأس
- ١٣ - جراب : وعاء من جلد

شان يسوى الجينة (١) بنجض لحسم ، يسوى بليلة (٢) عشان ياكل بي فى الحلاء .
وعندو سكينو . قال : لبس سكينو وشال سيقو وشال درقنو وقال لي امسك الجمال .
والسيرة جات .

قال : متى مزر فوقين وضرب ليهم طلقة داير يوربهم معنى أنو البندقية صالحة
للاستعمال . ودخل فيها الطلقة الثانية ومشى على النسوان واحدة عندها زمام شالو .
ديك عندها قدوه (٣) شالها ، عندهن سوار شاليهن ، بس العجيو عندهن عديتهن
شالها . والناس زحوا منو . أمر الناس بأنو يزحوا بعيد - الرجال وزحوا بعيد من النساء
وسوى الحركة دى . واخو هو بارك هيناك بي جمكو حتو هو ماسك بشد قيتو
فامين (٤) شاليهن وانقدم . قال لي : آزول جيب الفرو (٥) ، لي أخو هو المعاه .
دا جاب لي الفرو قال ليهن : آبنات أعمى والله بس أنا قصدى مينكن تعرفن
إنكن الرجال المعاكين ديل ما هم كفايه . وانشن تدقن لهم فى الدلوكة (٦)
وتعرضن فيهم . ديل نسوان زيتكن . أنا ما بشيل عديتهن دحين أنا هد
طريقى منها حرم تجن تشيلن عديتهن لاكين داير سائى أوريكن . إئت
ود العشا وانت ود المرور إئت كدى كباها ليهن جن شالن عديتهن
وقائن . (٧)

هذه القصة تقف برهاناً على أن الهيماته لم يكونوا ينهبون كل ما يصادفهم كما كان
يفعل صعايليك العرب فى العصر الجاهلى - الذين كانوا يتعرضون للقوافل التجارية -
ويتعرضون لكل من يسوقه حظه العائر الى مناطق تربصهم . الهيماته ينهبون الإبل
ولا يرضون بغيرها بديلاً ولا يسمعون الى مادونها من الاموال ، بل ويحتقرون من يتعرض
لغير الإبل - ويعتبرون ان عمله هو سرقة وحراما بينما يرون فى عملهم فروسية وحلالا .

وقد كانت الإبل هى مادة الصراع بين أصعاب المخاض والهيماته لانها الثروة الأساسية
فى المجتمع البدوى - وهى كانت كذلك بالنسبة للصعايليك - ولكن عند الصعايليك لم
تكن الإبل هى الثروة الوحيدة التى دار حولها الصراع فان ايدى الصعايليك لم تكن تمتنع
عن أية غنيمة تعرض لهم ، وان كانت أخبارهم وأشعارهم تخفل بالحديث عن تعرضهم
للإبل ونهبها (١) .

وفى الرد على التساؤل حول ما ينهب الهيماته ، كانت الاجابات كلها تقول بأنهم
ينهبون الإبل ولا ينهبون غيرها . ومن تسع رواة اجابوا على هذا السؤال ، أضاف أثنان
فقط أن الهيماته ينهبون الرقيق كذلك . وهذا لا يؤثر على القاعدة - اذ ان القاعدة هى أن
الهيماتي هو الذى ينهب الإبل كما وضع فيما سقناه من شعر وقصة وفى الاجابات على
السؤال السابق .

ان الذى نرمى إليه من وراء ذلك كله هو أن نصل الى تعريف جامع مانع
لهذه الجماعة وطريقة حياتها . واعتقد اننا الآن فى وضع يمكننا من وضع تعريف مناسب
فقد عرفنا أن الهيمته هى نهب وسلب الإبل ، والذى يقوم بذلك يسمى « هيماتي » وأن
مسرحتها بوادى السودان . واذن نستطيع أن نقول بأن « الهيماته جماعة من مختلف
القبائل البدوية فى السودان تقوم بنهب وسلب الإبل وتفتخر بذلك . ويعرف هذا السلوك
القائم على النهب والسلب بـ (الهيمته) . والهيمته قواعد خاصة يلتزم بها المشتغلون بها ولها
قيمها وشعرها الخاص المعبر عنها . ومن خلال هذا الشعر تنعكس صورة حياة الهيماته
اكل ما فيها من مغامرات وركوب للأخطار ، كما تبرز من خلال هذا الشعر قيم هذه
الجماعة ومواقفها من الحياة ولم يغفل هذا الشعر عن كشف الدوافع وراء هذا النوع من
السلوك .

بقى أن نعرف مصدر لفظ « هيمته وهيماته » . ومصدره كما يظهر من الأدلة التى
سنوردها ، هو غرب السودان . ولكن هذه التسمية وجدت من الشيوخ والتداول ما نفى
عنها صيغة المحلية ، فصار الناس يعرفون هذه الجماعة بالهيماته بينما ظلت الألفاظ
الأخرى الدالة عليها ، محلية الإستعمال . ولا يمكن هنا أن نفعل عن دور أجهزة الاعلام
فى ترويج لفظ « الهيماته » وسيادته على غيره .

١ - الشعراء الصعايليك ص ١٤٨ .

- ١ - الجينة : القهوه
- ٢ - بليلة : الثروة وغيرها من الحبوب يبل ويبل فيؤكل .
- ٣ - قدوه : حلقه تلبس فى أعلى العنق .
- ٤ - فامن : حتى .
- ٥ - فروه : جلد الشاة أو البقره يدبغ مع الاحتفاظ بصوفه ويتخذ للجلوس عليه
- ٦ - الدلوكة : نوع خاص من الطبول يستعمل فى الافراح .
- ٧ - أرشيف معهد الدراسات الافريقية والآسيوية شريط رقم م/د/١/٢/١٩٠٢ .

ودليلنا على ان مصدر تلك التسمية هو غرب السودان هو أن كل الذين طسرح عليهم السؤال عن الاسم الحقيقي لهذه الجماعة في منطقة البطانة ، أجابوا بأن أصل لفظ « هيباته » هو من الغرب . ومن أمثلة تلك الردود : « الهيباته دى من الغرب يقولوا لك دا هيباتى مامولتنا » (١) ، « الهيباته سمعناها بى الغرب » (٢) بعدين مسألة هيباتى وكدي دى نحن زمان بنسمع بيها حقيقتها زى جايانه من لى وراه يعنى زى من غرب السودان . (٣)

وفي منطقة كردفان يسمونهم « الهيباته » فقد وردت كثير من الاشارات اليهم بهذا الاسم في شعر قبيلة حمر الشبي ، رغم أن الحمر يطلقون عليهم اسما غير هذا - اذ يسمونهم « السراجة » والكلمتان مستعملتان معا إلا أنهم يستعملون « السراجة » أكثر من الهيباته . ومن الاشارات قول الناء في الحبس (٤) :

كر كبر دود العصور (٥)

هيباته ساروا بى الليل

تبر جيد أم سير

تبر جيد أم سير

والمرأة أكثر الناس تأثيراً في حياة الهيباتى وتأثروا بها - منه أيضاً قولهن

هيباته شايلىن الحبالا (٦)

سيد أب روحين ولايجونى بلاءه

كما تغت به الناء أيضاً :

الدومة ود قندول (٧) تغدن بى الصقور

السقور الطيار هيباته أبو النور (٨)

السراجة :-

في القاموس (١) : « سراجة (غرب) الهيباته : لصوص الابل لانهم يزكبون سروج الابل دائماً ويسمون أيضاً السروجية . قالت المغنية الحميرية :
مخبارى السراجة
كان مت مش حاجة .

والسراجة أو السروجية هو اللفظ الذى يميز الجماعة التى تعمل في نهب وسلب الابل في قبيلة حمر . وواضح ان اللفظ مشتق من السرج « وهو الرجل . فسموا السراجة » لمداومتهم الركوب على السرج أى هم المداومون على السرج .

يقول الراوى : « لاكين من جات التركيه - السلطه الزرقاء انتتت ، ضلت (ضلت) متغارات ساكت يا السراجة ديل . أنحنأ (نحن) منقول ليهم السراجة ديل الهيباته . ويقول في موضع آخر : « نجن نقولولى السراجة دى السراجة . ويقول عن سبب تسميتهم بالسراجة : « سموهم السراجة عشان بركبوا فى السروج وجمالهم صهب (٢) فبشايت (٣) فوكا طردوهم ينفقوا وكان طردوا يلحقوا دى اسمهم السراجة (٤) وما ورد في الشعر قول أحدهم :-
بشوف السراجة ركبت فرت (٥)

بشوف شيخنكم أنليه فوق العنابر بيت (٦)

فهذا أحدهم وقد ألقى به في غياهب السجن يتخيل زملاءه وقد اعتلوا ظهور جمالهم وانتشروا في الأرض يبحثون عن الغنائم بينما هو يقضى ليله في السجن وبه حنين اليهم . يقول راوى آخر : « الهيباتى دى اسمه السروجى ، السروجى البركب دا اسمه الهيباتى » ويقول عن سبب تسميته بالسروجى « عشان بنهب ، عشان بشد جميل يومى بركب » .

١ - قاموس اللهجة العامية في السودان ص ٣٤٧ .

٢ - صهب : جمع أصهب : الذى يخالط لونه حمر .

٣ - بشاريات : نسبة الى قبيلة البشارين في شرق السودان

٤ - الارشيف شريط رقم أد/أ/١٨٩٦

٥ - فرت : فر : سرح وانطلق يمرح

٦ - العنابر : جمع عنبر حجره في مستشفى ونحوه ويقصد هنا عابر السجن .

١ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١/١٩٠٣

٢ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١/١٩٠٥

٣ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١/١٩٠٢

٤ - الحبس : ضرب من الفناء الشبى في كردفان بعضهم يقول الحبس والمزيز

٥ - محمد أحمد إبراهيم : ملاح من التراث الشبى لقبيلة حمر شعبة أبحاث السودان ١٩٧١ م ص ١٤٤

٦ - نفس المصدر

٧ - الدومة ود قندول : أحد الهيباته في منطقة حمر .

٨ - أبو النور : أبو النور اسم قرية .

من هنا يتضح أن لفظ « السراجة » أو « السروجية » ومفردها سراجى سروجى
يعنى الذى يعمل فى نهب وسلب الإبل . وهى تتفق فى معناها مع لفظ « الهمباته » أى
أن السراجة فى حمر هم الهمباته .

المهاجرة : -

فى القاموس : « مهاجر (س) سرق ونهب وخاصة البقر والإبل . مهاجراوى (س)
مهاجراوى (بطانة) الذى يهاجر طلباً للسلب والنهب ويفتخر بذلك قال أحدهم : -

لا يجيبوا الإبل إلا أولاد مهاجرة وزادهم الدخان (١)

من هذا النص : مهاجر تعنى نهب وسلب البقر والإبل والذى يقوم بذلك مهاجراوى
أو مهاجراوى . والمهاجرة فى منطقة البطانة هم الهمباته أى الذين يقومون بنهب وسلب
الإبل ويتخذون من ذلك حرفة هذا وقد حفل شعرهم هم أنفسهم بالافتخار بما يقومون
به من عمل وبخصائل جماعتهم ومن ذلك قول أحدهم : -

إنتملى البعير واطمانوا المعجمتان (٢)

أنا فى سدر الحويرى كم جيتهن أقران

مايجيبوهن جثونا بيرعوا الضان

إلا أولاد مهاجرة وزادهم الدخان

« المعجمان » هنا إشارة الى الهدندوة و « البحر » من البحر وهو نهر عطبرة و « الحويرى »
جملة . فهو يفخر بأن الإبل لا تقوى على الاتيان بها إلا المهاجرة أما أولئك الذين يعملون
فى رعى الصان فلا طاقة لهم بدروبها ومسالكها الوعرة المحفوفة بالمخاطر .

ومما يروى أن الطيب ود ضحوية كان فى منطقة ما وقد حدث أن قبض على بعض
التهمين بسرقة بعض الإبل . وفى أثناء التحقيق تخاذل المتهمون وذكروا أنهم أضاعوا
المال الذى حصلوا عليه بعد بيع الجمال فى بيت إحدى الإماء وتدعى « شمة » ولم يعجب
الطيب هذا التصرف من هؤلاء الناس فأشأ يقول : -

جنيات المهاجرة المابختوا (٣) الشمتية (٤)

١ - قاموس اللهجة العامية فى السودان . ص ٨٠٦ .

٢ - الدكتور عز الدين اسماعيل الشعر القومى فى السودان ، بيروت ١٩٦٨ م ص ٢١٦ (٣) غت : وضع

٤ - الشمت : من شمت بفلان إذا فرح ببيته .

عند الحارة (١) مايطروا الجلوس (٢) والسمنة (٣)
حلف بى الله العظيم وبى الذات عليه قسمت
مايجيب شمة (٤) لى حلى ان بقى انقسمت

ويروى أيضاً أن أحد هؤلاء المهاجرة ويدعى « المكيدى » أراد أحد أبناء عمومته الخروج
معه فحضره ولكنه أصر . ولما أدركهم أصحاب الإبل « الفرع » لم يقو ابن عمه هذا على
تحمل الموقف ، فظهر عليه الفرع والخوف والارتباك . وهنا أنشأ المكيدى مفتخراً بجماعته (٥)

جنيات الزمن ما بيحماوا الأدراك (٦)

فلن (٧) كان يقول يامكيدى سوقنى معاك

بكيرات (٨) البشارى البرع شقوق الباك (٩)

بيجيبوهن مهاجرة وزادهم التمسك

ومن شعرهم أيضاً : -

بساتير على ركب المهاجرة الأنفوا

وبلنموا الغنم فى نياق البدان يشقوا (١٠)

يسوقوا (أم دانقيس) الریشها الهبوب يرقوا (١١)

يضح سيدة يخمش فى الثراب ويسفوا

والدليل الثانى على أن اللفظ الدال على الهمباته فى منطقة البطانة هو « المهاجرة »
رواياتهم - ففى منظمة الجمعيين يقول أحد الرواة : « ينقول نبحن المهاجرة
سميتاهم مهاجرة على شان شادين سمح وراكبين سمح وهدومتهم (١٢)

١ - الحارة : الحرب وكل أمر صعب (٢) الجلوس : المجالس

٣ - السمنة : الوقفة الكريمة والسماح والشرف .

٤ - شمة : إحدى الفوانى

٥ - من بحث (مبدل) السلام سليمان سعد فى مسابقة السامبى .

٦ - الأدراك : الأخطار (٧) لن : عندما

٨ - بكيرات : جمع بكرة وهى الصغيرة من الإبل .

٩ - شقولا الباك : الشقوق جمع شق وهو فتحة الوادى والسهل . والباك مكان بعينه فى شرق السودان

١٥ - تشفى من فلان : إذا انكى فى عدوه نكابة نسر

١١ - زف : أسرع

١٢ - هدوم : ملابس

يقول الشاعر الهباني الآخر :-

جنات الزمن ألّى الغنم (١) يدبّسوا (٢)
ماضاًقوا (٣) النهيض فوق البيرد خبّسوا (٤)
السّاحر (٥) قبض بكرة الدرب يلعب بنو
طالب الأدعج الكبدّة العسّية (٦) مهبّسوا

ومرة أخرى تأتي المقارنة بين شباب الزمن وبين النهاضين الأصليين . فبينما هؤلاء يتلصصون لسرقة الأغنام . كان أولئك ينهضون على ظهر ذلك الحمل القوي السريع . وفي هذا اجابه على السؤال عن كيف « خرب » أبناء هذا الزمن النهيض - والسبب هو سرقتهم لغير الإبل لأن هذا بعد خرقاً لقوانين المهمة وخروجاً عن قاعدتها الأساسية وهي الاقتصاد على نهب الإبل . ومن الناحية الأخرى هو خرق لقاعدتها الثانية وهي العلانية في النهب . اذ ان شباب اليوم أخذوا يجنون خفية « يدبوا » وكل ذلك خروج عن المهمة ويعتبر عيأ كبيراً في عرفها .

حكى لي بعضهم . أن أحد المهاجرة من الشكرية حضر الى رفاة ووجد بعض الشبان يزرعون في « الجروف » . فوقف معهم وسألم عما اذا كانت هذه هي حرفتهم فعلاً ؟ فأجابوا بالإيجاب . فقال في ذلك :-

الجنّيات البتغنى وضعتها أنماروق (٧)
وماو ببطوا البلاوى الى النهيض والسوق
بندلبهن عطاش من المتامير (٨) قبسوق
بنييع بي قليل ما ينصنع ورق في سوق (٩)

- ١ - الغنم : الغنم وهي الشاة .
- ٢ - دب : تدبى : مشى كالمشي أو على الرجلين واليدين .
- ٣ - ماضاًق : ذاق وجرب . (٤) الحب : المشى السريع .
- ٥ - السّاحر : اسم الحمل .
- ٦ - العسّية : من العسين وهو ضرب من الشجر أخضر .
- ٧ - حكي ل هذه الواقعة الشيخ محمد أحمد حسن (الحمسى) .
- ٨ - المتامير : جمع عتمور وهو الصحراء .
- ٩ - يعني أنهم لا يتقيدون بطرق البيع السائدة بل يتجنبون البيع في الأسواق كما أنهم لا يطلبون ثمننا غالباً .

هذا افتخار بحرفته وهي « النهيض » وإحتقار واستهجان لمهنة الزراعة التي امتهنها أولئك الشبان - وذلك كثير في شعرهم . ونلاحظ هنا أيضاً ورود كلمة « السوق » التي جاءت أيضاً معادلة لكلمة « النهيض »

ميراثهم ومواقفهم :-

المهبانة رجال أقوياء وشجعان جردوا أنفسهم للغزو والإغارة بغرض نهب وسلب الإبل . واتخذوا من بوادي السودان مسرحاً لنشاطهم . واشتهرت باديتا البطانة وكردفان على وجه الخصوص ، بوجود هذا النوع من الرجال بين قبائلها .

لم يكن المهبانة فقراء في حياتهم . ولذلك فان الحديث عن الفقر في شعرهم - وحياتهم قليل . فلم يقل أحد منهم أنه خرج ينهب ويسلب لأن الجوع قد امتص امعائه ولم يكن المجتمع ظالماً لهم لبيادلوه العدا كما فعل صعاليك العرب . بل كان مجتمع القبيلة يحتوي الفرد منهم ويقره على عمله بل ويخرضه عليه . وكانت تقاليد القبيلة تدفع أفرادها دفعاً لانتهاج هذا النهج في الحياة . وكانت المرأة سوط عذاب على من يحيا حياة القعود . بل ان القبائل تتفاخر بوجود هذا الصنف من الناس بين أفرادها وتحفل بهم حين يعودون بعد رحلة موفقة . وكل هذا سوف يتضح لنا بصورة أكثر وضوحاً حين نتحدث عن دوافع المهمة وأسباب نشأتها .

وازاء نظرة القبيلة والمرأة لهذا الموضوع ، كان المهبانة أمام أمرين : فأما ان يسعوا بالقوة لارضاء القبيلة والمرأة وأما ان يرضوا بالاحتقار وتقليل الشأن . ولكن نفس البدوى أقوى من أن تقبل الذل أو الإحتقار ، والبدوى يعيش حياة قوامها عدم الاستقرار والخفاف في كل شيء . وهي حياة محببة الى نفسه ، فهو يبغض حياة الاستقرار وكل ما يتصل بها من عمل ويؤمن بأن حياة الرعي والصيد والنهب هي الحياة المثالية . وهذه الأعمال هي وحدها التي تليق بالرجال اما عداها فهو عمل الضعاف . ومن هنا كانت حياة البدو تعتمد على الرعي وهي ثروة غير مضمونة . وحياة كهذه جعلت مقياس الثراء هو ضخامة العدد الذي يملكه الفرد من الإبل . والمرأة في المجتمع البدوى نهوى صاحب المخانض وتغنى له وتقبله خطيباً وزوجاً وعشيقاً . وهذا ماوجدته في شخصية الرجل الهباني الذي يمتاز

بالقوة والشجاعة ويمتحن مهنة ذات غائد مضمون رغم أنها محفوفة بالمخاطر .

وهكذا فإن البادية كانت هي مسرح نشاط هذه الفئة ولكنهم على وفاق مع قبائلهم فهم لذلك لا يتعرضون لها بنهب ، كما أنهم لا يتعرضون لنهب جيرانهم وهذا حدد حركة نشاطهم واتجاهها . وهي حركة ليست ذات اتجاه واحد محدد . فإم تكن حركتهم تتجه مثلاً ، من الشرق إلى الغرب ، أو من الغرب نحو الشرق ، كما زعم الدكتور عز الدين إسماعيل حين قال : « ومع ذلك ففى استطاعتنا أن ندعى من خلال تفحصنا لشعر النهابين أن حركتهم تتجه من الغرب نحو الشرق . ولاغربة فى هذا إذا كنا نعرف أيضاً أن الموابر والقريات بصفة خاصة من العرب الرحل فى غرب السودان هم أصل كثير من النهابين (١) . ويحكى كثير من هؤلاء الهبابه مغامرات لهم بين مختلف القبائل . فهم مره يغزون قبائل المدنوه والبشاريين فى شرق السودان ومره يتجهون الى قبائل الدندر والرهذ :

الدندر (٢) كرب (٣) كيف القعد والراحه
أبقى لزومه يابكيره البدو السراجه (٤)
الخ.....

ومرة أخرى فى أقصى الغرب :

إتوجهنا من دار برنى والبقاره (٥)
وأمنى بثنائى فى القلعة أم قروود (٦) لايساره
الخ.....

ومرة ثالثة هم فى منطقة الفونج :

شقينا البلد الى الدالى والمزموم (٧)

١ - الشعر القومى فى السودان ص ٢١٤

٢ - الدندر : نهر الدندر

٣ - كرب : يقولون البحر كرب : اشتد فيضانه

٤ - السراجه : من سرحت البهائم : ذهبت للرعى .

٥ - دار برنى والبقاره : أساء قبائل فى كردفان .

٦ - القلعه أم قروود : مكان بيته .

٧ - الدالى والمزموم : مناطق فى منطقة الفونج بمديرية النيل الأزرق .

فهم فى حركة دائبة لا تتفقد باتجاه معين : يوماً فى بلاد كاجه واليوم الآخر : متوجهين دار فور « وفى اليوم التالى عند أهل « الكول والكمبو » وأخيراً يطيب المقام عند الزبيديه فى شرق السودان :

مايقسن دروب ناس عابده بست عواد (١)

والواقع أن بعض هؤلاء الهبابه كانوا أكثر حركة من غيرهم . ونتيجة لذلك كانوا أشهر من غيرهم فى عالم الهبابه . ولعل أصدق مثال لهذا النوع شخصيتى الطيب ود ضحوية من الجعليين ، وطه الضريير من البعلاجين . فهما معروفان لدى كل القبائل التى تربى الإبل فى السودان . كما انهما يذكران فى شعرهما أسماء مناطق فى أقصى الشرق والغرب والشمال والجنوب . وقد ذكر طه الضريير أنه وصل إلى ليبيا فى الغرب والحدود الحبشية - السودانية فى الشرق . وهذا مأسوف نتعرض له فى حديثنا عن الشهرة فى الفصل الثالث من هذا الباب .

ويتميز الهبابه بصفات جسدية ونفسية معاً . ففى الناحية النفسية نجد أنهم جميعاً يستهينون بالحياة فى سبيل تحقيق الهدف . والموت عندهم أمر لا مفر منه . ومن شعرهم فى هذا المعنى :

ألوتد البدور فوق القبية يشسكر
بيخلف ساقو فوق بند العدو ويشكر (٢)
أمن جاب رضىوة (٣) البهم (٤) اللهيجو (٥) مسكر (٦)
وأما أب صلعه (٧) فوق ضلأغو تبتل (٨) وكركر (٩)

١ - عواد : أحد « الملا » من الزبيديه . وعابده تته .

٢ - الوكره : المكان الموحش

٣ - رضىوة : رضى .

٤ - البهم : يعنون بها الصيده الصغيرة .

٥ - اللهيج : تصغير لهجه ويعنى الشجر .

٦ - مسكر : من السكر

٧ - أب صلعه : الصقر .

٨ - تبتل : مشى فى كبرياء ويخضون بها الصقور .

٩ - كركر : أحدث صوتاً

ومنه :-

الولد البذور في قفاهو (١) ما يشتف (٢)
اللتحجيم (٣) قجة (٤) اللشق (٥) الطويل ومشتف (٦)
أما يجيب رضى السنانة (٧) ما يشتف (٨)
ولا أم روبة لا حولين (٩) تكوفتو (١٠) مصنف (١١)

فهذا هو المبدأ : شكر القبيلة ورضاء المرأة أو الموت . فليس هناك مجال للحلول الوسط في حياتهم .

ومن مظاهر قوتهم النفسية كذلك عزوفهم عن الأعمال التي يرون فيها ضعفاً وهواناً . وهذا ما عبروا عنه كثيراً في شعرهم - وأكثر الأعمال التي تعرضوا لها بالتحقير والإستهجان هي الزراعة . وذلك لأنها البديل المباشر لحياة الرعى سيما ومنهم من جربها .

يقول الطيب ود ضحوية :

اللبلة التغمد (١٢) يا حسن (١٣) مقفود
كتر قايبي فوق لوز التيس (١٤) والعود (١٥)

١ - القفاد : مؤخرة النبق . وهي الخلف

٢ - شنف : عاب

٣ - يحجم : من حجم يعنى يربطه عند مؤخرة الرأس .

٤ - قجة الابل : ذروة سنامها .

٥ - اللشق : من لشق طانة الجمل : رفع الخشب التي يقع عليها السرج فوق سنام البعير لتستقر وترتاح .

٦ - قنف وأنف : مرفوع الرأس

٧ - السنانة : المرأة الطيبة السوية .

٨ - حنف : لام وويخ

٩ - حولين : من حول : العام والسنه

١٠ - كوفت الشمر : ضفره ضفرا كبيرا غير متقن والضفر بهذه الطريقة (الكوفات) .

١١ - مصنف : منوع .

١٢ - التغمد : النوم

١٣ - حسن : زميل الشاعر

١٤ - التيس : القطعة من الزرع ذى السيقان حين يقطع وينشف .

١٥ - العود : الفصن بعد أن يقطع

كان مي قيسمة (١) يا الديقة الوضيبه (٢) بقود
ما خسانا (٣) بي زراعة ودي مسعود (٤)

ويقول أيضاً :

كتم عتمرتين (٥) فوق قجة العبادي (٦)

وكتم غوصتين (٧) من الدنادير وغادي (٨)

كان مي قيسمة يا الديقة أم قريبتا نادي (٩)

ما خسانا بي زراعة الفشق (١٠) والوادي

ويقول أحد همبانه حمر :

مين جريبان (١١) قمنا جماعة

عقدنا الشورة صدر القوز قصاد القاعة (١٢)

البيكرة العلبها الطقة والطباعة (١٣)

أنا بعيش فيها سيبك (١٤) مين هموم وزراعة

ولم يقف الأمر على الزراعة وحدها ، بل حظيت أعمال أخرى بهذا النوع من

التحقير . يقول الطيب ود ضحوية :-

١ - قسه : النصيب . ما قسه الله

٢ - الوضيب : الشعر

٣ - ما خسانا : ما خسانا : ما همنا

٤ - ودي مسعود : ودي تصغير وادي . و وادي مسعود أحد الأودية التي يزرع بها الـ

٥ - عتمرت : ضرب في الصحراء

٦ - العبادي : جمل .

٧ - غوص من غاص في الماء اذا غطس . ويقصد الغد .

٨ - غادي : بعيد .

٩ - قرين : تصغير قرن وهو الشعر . ونادي من الـ

١٠ - الفشق : لعلها من الفاشوق وهو جزء من الساق

١١ - جريبان : بلدة في منطقة حمر في كردفان

١٢ - القاعة : مكان بعينه .

١٣ - الطقة والطباعة : وسم لقبيله بعينه

١٤ - سيبك : دحك .

أنا ماني (١) التنبّل (٢) أل في البيت صيغتي حليب (٣)
بدور الشدة فوق إبلأ شوافي (٤) ونيب (٥)

إن حرن نخت الشكرة ما بنعيب
وإن برردن تكافين (٦) سؤالف (٧) أم طيب (٨)

يمثل الكرم جانباً من ميزاتهم الحسنة. فهم يمدون أيديهم بالعطاء دائماً لأبناء عشيرتهم
يكون العريان ويطعمون الجوعان، ويعملون على حل المشاكل التي تنشأ بسبب القروش
وكما ظهر هذا الكرم في حياتهم، ظهر أمضا في شعرهم. فتغنوا به وأعابوا الغنى
البخيل وجعلوه دائماً هدفاً لغزواتهم. يقول الطيب ود ضحوية مخاطباً جملة :-

بالك (٩) فاضي (١٠) في روبة الغصون (١١) يتقلّم (١٢)
ويك متلمى (١٣) يا الساحر (١٤) عليك متكلم
الزول العلى كمش (١٥) النقود متعلم
نهجيم ديرتو (١٦) في القبة (١٧) الضباها متعلم

وروى طه الضرير أن الطيب ود ضحوية كان مرة في الحراسة وبدأ أحد الناس
يكذب ويقول أنني فعلت كذا وفعلت كذا، نفت الطيب اليه وأنشد :-

ماني التنبّل القاعيد بقول سويت (١)
وأشهد خالفني كان يوم السعال قرئت (٢)
إن برردن نقود ماني البخيل صريت (٣)
وإن حرن بكار (٤) ماهين صفائح زيت (٥)

من الناحية الأخرى كان الهداية يتمتعون بقلر كبير من الشجاعة والجرأة وقوة
الجسد. وأخبارهم وأشعارهم خير شاهد على ذلك. ففى أخبار الطيب ود ضحوية :-
كان مرة عندو جمل يمتلوا عليه العاليبي وجايي من بلد التليسان
راكب فوق جملكو دأ جمل فاعل تارك. بعددين ربطوا لوجماعة. لمسا
الجماعة ديل ربطوا لوقيد أمو يقول لوج... يعنى قال لهم الدرب ازحفوا
الدرب الشى الفسلاني والشى الفسلاني. سلوا سحبا سيوفهم وعارضوهوا
وقايلوهوا. هو عقتل جملكو ونزل عليهم وقابلهم. لا غاية المباشو حبشو
والحفل جفل ركب فوق جملكو ومشى.

يصف الطيب هذا الحادث فيقول :-

يا العاليبي (٦) اختر ما عليك بى الهم
وأطرى (٧) المدة عند سنك وأخرت الزم (٨)
يؤم الحارة (٩) عند رسنك بموت حرم (١٠)

- ١ - ماني : لست
- ٢ - التنبّل : القصير القامة البليد الكسلان
- ٣ - حليب : من حلب الشاة اذا أخرج ما فى ضرعها من اللبن
- ٤ - شوافي : قويات
- ٥ - نيب : جمع ناب وهو الناقه المست
- ٦ - كافى : جازى
- ٧ - سؤالف : جمع سالف وهو ما تقدم من معروف واحسان
- ٨ - أم طيب : المرأة المظهرة
- ٩ - بال : الخاطر والقلب
- ١٠ - فاضى : خال
- ١١ - روبة : الشجر وتتمثل لغصون الأشجار
- ١٢ - قلم : قطع
- ١٣ - متلى : مفتخر ومعتد
- ١٤ - الساحر : اسم الجمل
- ١٥ - كمش : كمش من الشىء كمشه اذا أخذ منه بقدر ما يملأ يده
- ١٦ - الديره : المكان
- ١٧ - القبة : من قبس وهو شعلة النار .

- ١ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١/٣٥١
- ٢ - السعال : السؤال . قرئت من قر : اعترف
- ٣ - صر الصره : ربطها .
- ٤ - بكار : جمع بكره وهى الناقه
- ٥ - ماهن : لسن
- ٦ - العاليبي : نسبة الى العالياب وهم فرع من الجملين
- ٧ - أطرى : تذكر
- ٨ - الزم : الزمام وهو مايزم به أى يشد مثل زمام الجمل
- ٩ - الحارة : الحرب والأمر الصعب
- ١٠ - حرم : يقولون حرم وعلى الحرام ويعنون أن المرأة طالق اذا حدث الأمر

أَحْلُوا الدِّبْرَةَ (١) أَسْبَادَكَ وَجُوهَ الدِّمِّ (٢) (٣)

ومن أمثلة شجاعته كذلك أن أحدهم ويدعى «عثمان» ود على ترتر «قد خسر ب
بالرصاص في يده اليمنى فسقط سيفه فتناوله بيده اليسرى وقا تل حتى إنهارت قواه . (٤)
ومن قصص السريرى يقول الراوى : « برَضُو عَمَنَا الْحَاجَّ وَد الشَّيْخَ كَانَ
مُسِينٌ وَ عَاقِلٌ فِي رَوَابِئِهِ وَ صَادِقٌ فِي قَوْلِهِ . قَالَ لِي : مَرَّةً طَلَعُونَا لِيَهْوُ (يعنى
السريرى) فِي زَمَنِ الْإِسْتِمَارِ (٥) . وَنَحْنُ كُنَّا فِي الْمَجْمَاعَةِ (٦) .
وَبَعْدَ ذَلِكَ قَالَ لِقَيْنَا هُوَ مُقْبِلٌ (٧) . وَقَالَ نَحْنُ سِتَّةٌ جَاءْنَا لِشُورِنَا قُلْنَا
الرَّاجِلُ دَا كَانْ مَشِينًا جَارِينًا هُوَ (٨) بِي حَاجَّةٍ يُمْكِنُ يُوَدِرُ (٩) فِينَا وَمَا
مَا نَبْتَنِي زَيْ دَوَّارٍ جَمَلٌ نَسِينُو . قَالَ : قُلْنَا لِي : دَوَّارٍ جَمَلٌ نَسِينُو شَنُو ؟
قَالَ : كَانَ لِقَى يَغْنَى وَكَانَ مَالِي يَغْنَى لَأَنَّهُ جَمَلٌ نَسِينُو مَوْجَعُ
بِي الْحِيلِ (١٠) . كَانَ لِقَاهُو بِي يَغْنَى وَكَانَ مَالِي قَاهُو بِي يَغْنَى . نَحْنُ أَصْلُنَا مَا
دَامِينُ مِرْسَلِنَا كَمَرَةً (١١) لِي وَدَاعَمْنَا مِضَارِينُو فِي شَنُو ؟ قَالَ : هُوَ لَا مِينُ
صَحَا قَالَ لِينَا : آجَمَاعَةٌ هِيَ أَنَا جَاهِزٌ وَأَنَّهُو يَنْشَاوَرُو عَلَى قَبْضِي ، عَلَى
الطَّلَاقِ أَلْ يَمِيدُ لِيدُو عَلَى يَنْدَقِينُو هُوَ فِي الْآخِرَةِ ، وَأَنَا بَعْدَ مَا أَشِيلُ تَارِي (١٢)
أَصْلِي - أَمَلَى لِي سِتَّةَ قُبُورٍ قَدَّرَكُم ؟ أَبَدًا دَحِينُ أَصْلِكُم كَانَ نَاسٌ بِيضَاءُ

أَحْبَسُونِي ، وَكَانَ نَاسٌ مَسُودَاءُ مَسَّعَ بَسُودَهَا عَلَيْكُمْ . قَالَ : قُلْنَا بَشَّ الرَّاجِلِ
دَا نَعْقَبُو . لَا كِينُ قَالَ شُوقِيَانُ لِيَهُودَا ، الْحَاجَّةُ أَلْ فِي وَشُودِي ، النَّاسُ أَلْ
لِيلُو أَلْجَانَا مِينُو دَا شَعَرْنَا بِأَنَّهُو الرَّجُلُ دَا يَغْنَى نَحْنُ أَلْسِتَّةُ بِيغْلِينَا . (١) . فَهَذَا
دَلِيلٌ عَلَى قُوَّةِ هَذَا الرَّجُلِ الْأَمْرِ الَّذِي جَعَلَ سِتَّةً مِنَ الرِّجَالِ يَتَجَنَّبُونَ الْوَصُولَ إِلَيْهِ أَوْ مَحَاوَلَةَ
تَعْطِيلِهِ وَهِيَ الْمَهْمَةُ الرَّئِيسِيَّةُ الَّتِي أَوْفَدُوا مِنْ أَجْلِهَا . وَنَلَاظُ مِنَ الرَّوَايَةِ أَنَّ رِجَالَ الشَّرِطَةِ
كَانُوا يَهَابُونَهُمْ وَيَتَجَنَّبُونَ الصَّدَامَ مَعَهُمْ ، وَرَغْمَ مَا تَرَصَّدَ لَهُمْ مِنْ حَوَافِرٍ فِي حَالَةِ الْقَبْضِ
عَلَيْهِمْ . وَلَكِنَّا نَلَاظُ عَنَصْرًا آخَرَ فِي الْمَوْضُوعِ حِينَ ذَكَرَ لَهُمْ أَحَدُهُمْ أَنَّ هَذَا إِبْنُ عَمِّهِمْ
وَالَّذِينَ أَرْسَلُوهُمْ لِلْقَبْضِ عَلَيْهِ غُرَبَاءُ بَلْ يَصْنَعُهُمْ بِأَنَّهُمْ « كَفَرَةٌ » ، وَلِذَلِكَ فَلَا دَاعِيَ لِإِيْدَاءِ
إِبْنِ الْعَمِّ . وَرَبَّمَا كَانَ هَذَا أَحَدُ الْمَوْقِفَاتِ فِي طَرِيقِ الْحَدِّ مِنْ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ .

ولم يغفل المهبأة في شعرهم مثل هذه المواقف مع رجال الشرطة . فقد كانوا يختلفون
لهم الألقاب إستهارة أو إستهخفافاً وسخرية وتشهيراً مثل « ناس قنبور » و « ناس طرطور »
و « أبو طبيق » ، إلى غير ذلك من التسميات والألقاب . من ذلك قول الطيب ود ضحوية

كَبَسْنُو (٢) الْبَحْرَ وَمَشْهَبَاتِ (٣) يَبَّاسِ (٤)
وَالْعُورِ (٥) تَوَى بَنَى الْهَرْمَةَ وَرَدَفَ عَبَّاسِ (٦)
النَّادِرَةَ (٧) أَلْطَلَعَ عُنُونَهَا مَا لَوْ قَبَّاسِ
صَدَّوْا قِمَاحَةَ (٨) نَاسٌ قَمْبُورِ (٩) مَعَ الْقَصَاصِ (١٠)

لم تكن مثل هذه المواقف تقتصر على مواجهتهم لرجال الشرطة ، بل كانت لهم
مواقف مشهودة حتى داخل المحاكم وأمام المفتشين الإنجليز وغيرهم وتدل تلك المواقف

١ - الأرشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٢

٢ - كبس : ملأ وزحم .

٣ - شلهب : الشخص احترق من الحر أو العطش أو نحوهما .

٤ - يباس : من يبس : كان رطباً فجف .

٥ - العور : اسم الحمل وهو من جمال الطيب ود ضحوية

٦ - عباس : زميل الشاعر ويرد ذكره كثيراً في شعر الطيب ود ضحوية .

٧ - النادره : الموقف الطريف .

٨ - قماحه : من القماح وهو الخسارة .

٩ - قنبور : ذيل من الشعر فوق الرأس . وناس قنبور يقصد بها رجال الأمن إشارة لقبائهم .

١٠ - القصاص : قاص الأثر ، وتقصى أثره : تبعه .

١ - الدبيرة : الساحة

٢ - وجوه الدم : يطلق عل « الضحواب » لشرابهم في القتال

٣ - الأرشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٧

٤ - الأرشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٢

٥ - الاستعمار : يعنى الاستعمار الإنجليزي في السودان

٦ - المهبأة : المساكن الذين يركبون الجمال

٧ - مقيل : من قيل استراح في القيلولة .

٨ - جارينا : حاولناه

٩ - ودر الشيء : أضاعه

١٠ - الصحيح ان المثل يقول : « زى ودار جمل نسيو كان لقي يغنى وكان ما لقي يغنى » ويقال للذى
لا يهه الأمر الذى هو فيه .

١١ - كفره : الكفار من كفر ضد آمن فهو كافر وهم كفار أو كفره

١٢ - قارى : قارى

وما دار فيها من نقاش جاد ، على أنهم على دراية واسعة بأجراءات المحاكم ومهام مختلف الفئات التي تعمل في حفظ الأمن وتحقيق سيادة القانون كجهاز المخابرات مثلاً - ولطه الضير قصة مع المستر روبرتسون الذي كان آنذاك مفتشاً لمركز الكامبين ، تفيض بالتحدى والمواجهة القوية ، ومما جاء في هذه القصة : « المفتش أنا قُتُّ لو يا ديساك باخرة أنت الإنجليزي الجابوك عيتك إنت ساك مفتش ترد ظلومة السودان مينو ؟ والإنجليز الجابوك إنت بتس آزول جرؤك من العسكرية ختوك هنا . إنتست حكمتني بي شئو ؟ قال لي : بي المخابرات . قُتُّ لو إنت حالك جابوك للأحكام إنت شفك لك مخبرات بتحاكم ؟ المخابرات بتس تعرف حالة الزول ماشي كيف بيعمل كدي . الدخلكها في سرقة الليل شئو ؟ » (١)

هذه القصة ترينا إلى أي مدى كانت المواجهة بين المفتشين الذين كانوا آنذاك يمثلون السلطين الإدارية والقضائية ، وبين هذه الفئة المتمردة المتمردة . فبجانب الشجاعة كانوا على علم بحدود مسئولية كل جهاز من أجهزة الحكم . فهو هنا يفرق بين عمل رجل المخابرات وعمل القاضي مثلاً . هذا وقد كان المستر روبرتسون غنيماً مع الحماية . وقد ذكر هو نفسه ذلك ، فكان يأخذهم بالعنف القانوني وغير القانوني أحياناً كثيرة ، ورغم ذلك ظل نشاطهم في تزايد مستمر كما لاحظ هو ذلك . (٢)

وأناش هذا حالهم كان لابد أن يقعوا يوماً في يد السلطات وأن يطبق عليهم حكم القانون . فكانوا ينشقون إلى السجون لفترات تختلف بين الطول والقصر . ولكن المهم هو أنهم لم يكونوا يستسلمون أو يضعفون ، بل كانوا يسخرون من الإجراءات والأعمال التي يكلفون بها داخل السجن . ولم يكونوا يابهون لما يلاقهم ، بل هم يتوعدون أصحاب الإبل الذين جاءوا بهم إلى السجن . يقول الطبيب ود ضحوية وهو في السجن :-

الليلة السجن جاب لو إنكثامه (٣) وحيرة (٤)

١ - القصة كاملة في أرشيف معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية شريط رقم م/د/١/١/٣٥٠

٢ - انكثامه : الكثرة وهي شدة الحر . Robertson, J, Transition in Africa, London 1974, P. 19

٣ - من مجلة الاذاعة والتلفزيون والمرح ، الخميس ١١ يوليو ١٩٧٤ م ص ٣١ مقال عن الطبيب ود ضحوية لمل أحمد صديق .

ونحن جزارقنوا (١) حدثت لي الجنين النيرة
سحار الغروب راجيننا كاضم (٢) ... الجرة (٣)
بلمحق بيك مراح (٤) حسب الله (٥) وبين ما فترة (٦)

فهو يتوعد صاحب القطيع الذي جاء بسبه إلى السجن بأنه سوف يلحق به أينما ذهب . ولم يكتفوا بذلك ، بل كانوا يتواصلون بالصبر لأن مدة السجن محدودة سرعان ما يعودون بعدها لممارسة عملهم منطلقين في الفضاء الرحب الفسيح ليقصوا أطيب الأوقات مع محبوباتهم :-

يوماً في السجن ويوماً رقاداً متحدث (٧)
ويوماً بي الصفايح لي البحر بنيد (٨)
القيد والحيس قط لي القلب ما بود (٩)
أطري اللينة باطة الضير لا تود (١٠)

إن هذا اللون من الحياة ، الذي يقوم على المغامرة ، لابد أن يفيض بقصص الغزو والإغارة . وهذا النوع من التخصص يخل حيزاً كبيراً في أخبار الحماية وشمرهم . فهم يحكون عن هجمات قاموا بها أو مازق وقعوا فيها فكانت وسيلةهم للخلاص هي القسوة والحيلة معاً . وهم غير مبالين إلى إزهاق الأرواح إلا إذا اضطرتهم المواقف إلى ذلك . يقول أحدهم عن تصرفهم حيال مطارديهم : « نثور عليهم يا زول أرجع يا زول أرجع . إن بقي ما رجع بتضرب الحمل كفت بترمي . يا إختروا عليك ما بترفعهم نحن زول ما بنكتلوا دايرين ريق بتس . زول ما بنكتلوا ينخاف من الذمة »

١ - الجرق : الثور الذي يجز الساقية والمحرات وتعني أيضاً الحرب .

٢ - كضم : ضم فاه وسكت .

٣ - الجرة : ما يخرج البعير من جوفه ليصفه مرة ثانية .

٤ - المراح : القطيع (٥) حسب الله : شخص بيته .

٦ - فر : هنا بمعنى ذهب .

٧ - من مجلة الاذاعة الخميس ١١ يوليو ١٩٧٤ م ص ٣١

٨ - بدر : ذهب في الصباح الباكر

٩ - ودر الشيء : أضاعه

١٠ - لاتودر : تقول فلان ودر اذا كبر وخرف .

المحرمها الله . (١)

ومن قصصهم المتداولة في مثل هذه المواقف ما يرويه طه الضريبر حيث يقول :
نهضنا هناك وانفزعنا عند جبل القدين . . . الشرق شرق أنثرة - الحدود
مين مينك وانفزعنا . الطيب شاف الفزع ترى يقول لينا . آي :

زمتك كله تاكل باردة ما ضق حارة (٢)
وأطرى الليلة يا طه أم حمدة والسارة (٣)
دُرُق البازة (٤) جاك زى السحابة الحارة
وحس أب جفرة والقربين (٥) صواقماً كارة

أنا هنا يقول لو :-

بأكلي حارة ما ضق باردة ماك دارييني ؟
وأسفل (٥) منى ربعاى (٦) البعر فوا قرينى
حس أب جفرة والقربين دوام بارييني (٧)
أنا أخو الليلة كان يلقى الحديث عانييني

. . . والله لموا فينا والله فكانا . أكلناهم . . . ضربناهم خوفاهم . . .
هم أربعة ونحن اثنين . صدوا ما أديناهم يا هين . (٨)

وهناك رواية أخرى لهذه القصة . يقول الراوى : « فى قصة بتاعة طه الضريبر
وطيب ود ضحوية . كانوا ساقوا ليهم إبل من البازة - عرب البازة . مشوا فى
نفس المسافة لاقوا . . . الفزع لحق عندهم فى محل أرضو كثرة وشقوق فيهمو

- ١ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١/١٩٠٥
- ٢ - الباردة عندهم الكعب بدون قتال . والحارة الكعب بعد قتال .
- ٣ - أم حمد والساره : من الغوانى .
- ٤ - البازة : قبيلة فى الحدود السودانية - الحبشه .
- ٥ - اسفل : اسأل .
- ٦ - ربعاى : الرباع : الزملاء والرفاق .
- ٧ - بارييني : من بارى : تبع
- ٨ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١/٣٥٢ .

بتاحة . بعدين فى الدائرة دي الطيب انفاقت شاف الفزع ما داير يقول لى زولو
الفزع لحق قال لوى :-

ليك زمناً عديداً يا طه تاكل باردة ما ضق حارة
ترى دالك دُرُق البازة جاك مثل السحابة الحارة
فيهمو ضرب أب خمسة والقربين صواقماً كارة
أركز (١) لى التجيك أطرى أم حمدة والسارة
بعدين طه قال ليهمو :-

دُرُق البازة شفاهمو وعقدنا طروفنا (٢)
نحن ركزنا لوى كان هيا أم حمدة ينشوفنا
ضرب أب خمسة والقربين لوى يدلى كتوفنا
ما بهد دنا ترى ساكت بيامين (٣) خوفا

بعدين العرب هدوا (٤) فيهم صربوهم طلقه . بعدين قال لى : إدرع لينا
بطن الكثرة دى . إندسوا (٥) بطن الكثرة (٦) . إدى طه ضربهم طلقه وطبق ليهم
جلوا قالوا بجاوتوا الكثرة غرب . بعدين علول (٧) هم ما حوتوا غرب هو قال
لى : إنت سوق أبل صبح . جروا سيجروا . السلام بقى بيتهم . بعدين طه
ركب لحق زولو . بعد ما لحقا خبتهن سوط جيت (٨) قال ليهمو :-

هيا (٩) جاك جفلة (١٠) المتنى ويريدها (١١)
سميح الموت حلال فيهما يوم الفيضة
فى الكثرة أم شقوق إتقابلنا نحن ومبيدنا

- ١ - اركز : من ركز : ثب
- ٢ - عقدنا طروفنا : اتعقدوا الاطراف : تكاتفوا
- ٣ - يامن : يهدى ويقلل (٤) هدوا : هجموا
- ٥ - اندس : اختفى واستتر (٦) الكثرة : ضرب من شجر الغضا .
- ٧ - علول : ما أن (٨) جت : تعبير صوتى .
- ٩ - هيا : كلمة اعجاب (١٠) جفلة : لقب الناقه
- ١١ - الوريد : عرق فى العنق

يبقى أبائنا ولا شاف يا تكبير (١) أبو جلية الجدة عثو بعية

بعتين دالك قال لي :-

هيء حلالى سوق النيل يدور لو تدرئس

على إلا نجيشها (٢) شاييل ليكولو كلو تكيرئس (٣)

إن حررت سيجيشها ... يجيرئس (٤)

وإن بردت حلاوة (٥) وإن عزب يتعترئس (٦) ، (٧)

هذا المشهد الدرامى - يمثل طبيعة حياة هذه الجماعة بكل ما فيها من ركوب للخطر ومن جرأة وإقدام وسرعة فى التفكير للمخادعة والحيلة للخلاص من أقسى المسألق وأخرجها . ويجىء الشعر عارضا للصورة بكل ألوانها . وهى صورة للحياة التى كانت تقوم على الإغارة للنهب والسلب وذلك الصراع الدامى الذى يخوضه الحمبات فى شجاعة وجلد . وهم يروون أقاصيص هذه الغارات والغزوات ويملاؤ نفوسهم الفخر والإعتداد بطولتهم وصمودهم مثلما كان يفعل صعايلك العرب فى الزمن القديم :

طلعن بى البطاين (٨) وولعن نيرانهن

الحسك (٩) النضيف (١٠) قلمنوا فوق كيرانهن (١١)

حبتناهن (١) ردائف (٢) و زلقن (٣) حيرانهن (٤)
فى ليلة تككد (٥) رقد البندق زيرانهن (٦)

كان الحمبات يحبون أرجاء الصحراء ، يصعدون « القيزان » وينحدرون فى السهول زادهم الصبر وعزائهم إن بعد الضيق الفرج وأحيانا لا يكون معهم من الزاد سوى الماء وأحيانا أخرى تستبد بهم الحاجة إلى جرعة ماء :-

قمنا مشرقين (٧) برا (٨) الموية ما فيش زاد

على الخالقنا يا الدخري الحسنون أجواد

حادفين (٩) (البرتنق) وعندنا القداد (١٠)

نحن أخوان سالة (١١) عند ضيق الوجوه بولاد (١٢)

وهم على معرفة بأسرار الصحراء وشعابها ودروبها ومسالكها ومواقع مياهها . وهم على مقدرة كبيرة للأهتداء فى مجاهلها ومتاهاتها وقديما قالوا عن صعايلك العرب أنهم « أهدي من القطا » . وكان منهم من يعرف الأرض التى هم فيها بشم ترابها . كما كانوا يهتدون بالنجوم فى تحديد اتجاه غاراتهم ، وفى طريق العودة وكانوا لذلك يفضلون السير ليلا :-

مين جببال حنقرة إتراوح المزروب (١٣)

إنجفل كزى ديك النعام مضرروب

١ - حبت : من خبط : ضربه ضربا شديدا .

٢ - ردائف : من ردف تراكم . وهى أيضا جمع ردف الكفل والجز فى الدابة .

٣ - زلقن : من زلقت المرأة الحنين إذا أسقطته .

٤ - حيران : جمع حوار وهو ولد الناقة قبل أن يفصل عنها .

٥ - تككد : تكدير العيش .

٦ - زيران : جمع زوار : وهو أعل وسط الصدر .

٧ - مشرقين : متجهين شرقا .

٨ - برا : بلا .

٩ - حدف الشيء : وضعه فى حكره (١٠) القداد : السيف

١١ - سالة : إحدى الفوائى

١٢ - بولاد : الحديد الصلب - كناية عن القوة .

١٣ - ملامع من قراث حمر الشبى ١٤٣ .

١ - باتكبير : لعله يقصد السلاح النارى .

٢ - انقيب : الراعى الصغير يساعد الراعى الكبير أو راعى الابل عموما

٣ - كرس : طرد

٤ - جرس : عرض لا متجان قاس لم يحتله

٥ - حلاوة : الطعم الحلو

٦ - عزب غير متزوج

٧ - عرس : أعرس اتخذ عرسا

٨ - الارشيف شريط رقم م/د/١/١٨٩٩ .

٩ - البطاين : جمع بطن . والبطن ومنها البطانة الأرض الفضاء المشبه .

(١٠) الحسك : النبات الشائك

١١ - النضيف : التنظيف

(١٢) كيران : جمع كور وهو الرجل .

قُبَّالَةُ النَجْمَةِ دِيكَ مَرْتَعِ العِشْبِ
لِيْلِكَ يُوْبِي يَا أَبَ سَاقَا تَقُولُ مُصْتَبُوبِ

الخلاصة :-

وخلاصة القول أن ظاهرة الهمبة التي نحن بصدد دراستها وتفسيرها ، هي طريقة في الحياة تقوم على نهب وسلب الإبل . وقد اتخذت من البوادي الرعوية في السودان مسرحاً لها ، وكانت لها أصول في المجتمع القبلي في البادية . كما كان لها أبطالها من الرجال من مختلف القبائل البدوية وقد عرف هؤلاء بالهمبانه « والسراجة » ، وكان يقال لهم أيضاً « النهاضين » والمهاجرة . - وهي ظاهرة تتميز بأن لها نظمها وقواعدها وقيمها الخاصة .

أصل الهمبة ونشأتها

رأينا في الفصل السابق أن الهمبة هي طريقة في الحياة تقوم على نهب وسلب الإبل . وأن هذه الظاهرة اتخذت من البادية السودانية مسرحاً لها . وفي هذا الفصل ستعرض لبعض الظواهر التي كانت تسود المجتمع البدوي قبل ظهور الهمبة . ومن خلال ذلك نحاول أن نرى إلى أي مدى إرتبطت ظاهرة الهمبة بتلك الظواهر ، وكيف استمدت أصلها منها . ومن ثم نحاول أن نصل إلى النقطة التاريخية التي برزت فيها هذه الظاهرة إلى حيز الوجود .

أ - الأصل :-

(١) القيمان :-

جاء في القاموس : (١) « قيمان (من رباطاب) الحروب بين القبائل - وهي من القوم (ف س) الجيش . قال المرغوماني :-
سيف ودبله حالا فرتك القيمان

وقال يخاطب البطانة :

يوم قيمان ركرنك الفيك بدور يسوح

وقال الحمري :-

نشيل الصعيد منجيب قيمان

ويقصد هنا جماعات ودفع الإبل التي ينهبونها .

وقال الجعلى :-

القيمان نلاقيهما والوفا نسوقا

يتضح من النصوص التي أوردتها الشارح تدعيماً للفظ « قيمان » أن المعنى نفسه غير دقيق . ذلك لأننا لا نستطيع في النص الأول ، مثلاً ، أن نقول أن سيف ودبله قد فرق « الحروب بين القبائل » . وكذلك الحال في بقية النصوص - ولعلنا نلاحظ في النص الذي

ومنها ، كما يقول ، ما يروى عن الشاعر أبو دقينة الذي يزعم أنه عاش في عهد الفونج :-

يسلم عوض الكريم ليوم الضيفنة
يسوق الخيل صباح سفلة ويمينة
جاب تار أب على وحنان فقه الغينة
عقب مامون على (القوم) .. التجينة

ويقول في موضع آخر أنه اعتماداً على الروايات الشفوية والأدب الشعبي لبعض القبائل مثل الجميلين والرباطاب والامدلاب والكبابيش ، دار حامد ، يتضح أن عهد « القيمن » عبارة عن إغارة الجماعة من قبيلة ما على قبيلة أخرى بقصد الاستيلاء على نعمها . وتطلق أيام « القيمن » على كل الزمان التاريخي الذي كان فيه مثل هذا النشاط الحربي ذا عائد إقتصادي (١) . أما من الناحية التاريخية فإن يوسف فضل يرجع ظاهرة الإغارة بغرض الاستيلاء على النعم بين القبائل والتي عرفت بـ « عهد القيمن » إلى عهد الفونج . يقول : « ويبدو لي أنها (أي أيام القيمن) تطلق على فترة الفونج وهي فترة لم تظهر فيها سلطة الحكومة المركزية قوية واضحة لتردع المجموعات القبلية شبه المستقلة من الإغارة على بعضها البعض . ورغم أن هذا النشاط قد إقترن بمملكة الفونج ، إلا أن بعض الدلائل تشير إلى استمراره حتى أوائل هذا القرن » (٢) . وقد رأينا في الرواية الشفوية آفة الذكر من أدب الرباطاب الشعبي إشارتها إلى الملك نصر الدين ملك الميرقاب وإلى إتصاله بالأتراك في مصر داعياً لهم بغزو السودان خوفاً من أن يسطو بنو عمه على ملكه في زمن القيمن . وهذا يدعم الرأي القائل بارتباط « عهد القيمن » بمملكة الفونج التي حدثت الغزو التركي للسودان في أواخر أيامها .

يتضح مما سبق ، وخاصة حديث يوسف فضل ، أن لفظ « القيمن » يدل على إغارة جماعة من قبيلة ما على قبيلة أخرى بغرض « النهب والسلب » وأن « القوم » يشير إلى الفرقة من المحاربين وتجمع « قيمن » . ومن الناحية الأخرى فإن عهد القيمن هو كل الزمان الذي كان يحدث فيه مثل هذا النشاط . ثم أن عهد القيمن يرجع تاريخياً إلى مملكة

١ - يوسف فضل حسن ، دراسات في تاريخ السودان ج (١) مطبعة جامعة الخرطوم ١٩٧٥ م ص ١٠٣
٢ - نفس المصدر ١٠٤

الفونج . وتعريف يوسف فضل هو المعنى الصحيح للفظ « القيمن » . وبهذا التعريف نريد أن نجد الرابطة بينه وبين المهمة .

قلنا في بداية حديثنا أن الروايات الشفوية تربط بين ما عرف بـ « القيمن » من ناحية وبين ظاهرة المهمة ، التي تعرضنا لمعناها في الفصل الأول ، من الناحية الأخرى . والآن نورد طرفاً من تلك الروايات لتبين كيفية الربط الذي أشرنا إليه .

جاء في إحدى روايات الكواهلة : « أصلو الموضوع (يعني المهمة) بدأ بمسألة القيمن من تاريخ بعيد شوية مسألة القيمن كانت مشتهرة ومعروفة لكل الناس خاصة في السودان . فكانوا يقولوا مثلاً القوي ياكل الضعيف . الضعيف مؤكده الترجل المتأ وراهو ناس ، المتأ عندو العتاد ، المتأ عندو السلاح . دا يعتبر ضعيف . والله مشيت المسألة دي لامين وصلت القوي براهو القوي برا يقبوا يقبوا مينو ويسوقوا مينو . وأمتد الموضوع دا . فدبيل من بقاياهم زاتهم فضلو معتمدين على قوتهم دي اعتماد شامل كامل وأخذوها قاعدة بالنسبة ليهم . لي غاية ما وصلوا درجة المهجر . مهجر دي لا جولييهو عن طريق عطالة ولا جولييهو عن طريق فاقة . أبدأ ناس أغنياء من أحسن ما يكون ، بويتات من أحسن القبائل . لكنو ما دامين هم وارثين قوة وسامعين جددوهم بسواشنو . ما ليقوا وقت القيمن . والله فيهم واحد في عهد الحكم الثاني جوا لا كين جوا بي طريقة مبسطة شوية . بعني بدل ما يقوم يسوق . لا كنوا قريبة لي قوم لأنو يصادف يسوق المراح كلنو يصادف يسوق المراح كلو » (١)

وفي سؤال عن العلاقة بين ظاهرة المهمة والقيمن . أجاب أحد الرواة بأن العلاقة هي الدم . وهذا أمر واضح . إذ يعتمد كلاهما على الإغارة . وهذه الإغارة قد تحدث فيها المواجهة بين المغير والمغار عليه فتراق الدماء وإن كانت احتمالات المواجهة في مسألة القيمن أكبر منها في المهمة . المهم أن هذا نوع من أنواع العلاقة بين القيمن والمهمة .

ومن البطاحين يقول أحد الرواة : « المهجر إنت إن سعلت مينو المهجر قبل المغاورة . أبهاتنا وجدودنا . دي مغاورة إغبروك وتير . ألوتير في مآواك »

وَمَرَعَاكَ . مَعَيْتِكَ قَدَامَ بَيْتِكَ وَيَبُوتَكَ مَبْنِيَاتِ الْقُبُومِ دِي وَكُتَيْنِ
تَجْسِي مَا بَشْعَيْنِ لِي مَنطَرَقَةً بِتَغْيِيرِ الْوَتِيرِ . الْوَتِيرُ دَا يَعْنِي عَمَلِ النَّسْوَانِ
وَعَمَلِ السَّعِيَّةِ وَعَمَلِ الْوَلِيدَاتِ وَعَمَلِ السَّكْنَةِ . بَغْيِيرُ وَكَتْدِي وَلَا فَيِ دِيَلْ وَلَا
دِيَلْ . وَكُتَيْنِ إِرْفَعُ (١) دَا جَاءَ التَّهَجُّرُ وَالنَّهَاضِي النَّهِيضُ . (٢)

من هذه الروايات ومما سلف من حديث، يتضح أن كلاً من القيمان والهمبة عبارة
عن إغارة بغرض النهب والسلب. ولكن الفرق هو أن «القيمان» عمل جماعي مـمن
القبيلة بينما عمل الهمباته فردي، وأن كانت القبائل تقهر، ومن الناحية الأخرى فإن
الإغارة في الحالة الأولى تكون في القبائل المجاورة بينما عدم نهب الجار يعد من أهم
قواعد الهمبة. ثم أن أغارة القيمان لا تقتصر على الإبل فقط أو حتى على البهائم. ويمكننا
أن نقرر اعتماداً على تلك الروايات ودلالاتها، أن الهمبة كانت بصورة ما تعويضاً عن
ظاهرة القيمان. وتعليل ذلك - في نظرنا - هو أن المقدرة والطاقة القتالية لدى أفراد
القبيلة فقدت المتنفس بانقضاء عهد القيمان. فكانت ظاهرة الهمبة وسيلة لاستهلاك تلك
الطاقة وإشباع الرغبة الكامنة في نفوس هؤلاء الرجال في القتال والمغامرات. ولابد أن
أقول ظاهرة القيمان يرجع إلى ظهور سلطة الحكومة المركزية في الفترة التي أعقبت إنهار
مملكة الفونج بواسطة الغزو التركي في بداية القرن التاسع عشر. هذه السلطة عملت على
ردع المجموعات القبلية للحيلولة بينها وبين الإغارة على بعضها البعض. ولكن هذا لا
يعني أن الحكومة الجديدة قد تمكنت من القضاء على هذه الظاهرة تماماً، ولكنها بلا شك
حدت كثيراً من مثل هذا النشاط. وفي ذلك يقول يوسف فضل: «ورغم أن هذا
النشاط» يعني القيمان «قد إقترن بمملكة الفونج إلا أن بعض الدلائل تشير إلى استمراره
حتى أوائل هذا القرن» (٣). ولعل الدليل على ما أقول به من أن الهمبة كانت بصورة ما
إمتداداً لذلك النوع من النشاط الذي عرف في تاريخ القبائل العربية البدوية في السودان
«القيمان» أو «أيام القيمان» أو «عهد القيمان»، هو ما سنراه في الباب الثاني من هذا
البحث في موقف القبيلة حيال ظاهرة الهمبة ونظرتها للشخص الهمباني وفقاً لقوانينها
الإجتماعية التي تنظم حياة أفرادها، والتي هي نظرة المؤيد والمشجع بل والمحرض، كما

١ - أرفع : ترك .

٢ - الأرشيف شريط رقم م/د/١/١/٣٠٢ .

٣ - دراسات في تاريخ السودان ١٠٤ .

سيتضح فيما سيأتى من حديث في هذا المجال .

(٢) النهيـض :-

النهيض في منطقة البطانة يعني الهمبة، أي نهب وسلب الإبل، كما رأينا. أما في
كردفان فإن للنهيض مدلول آخر. وذلك يظهر بصورة واضحة في تراث حمر الشعبي .
فهو عندهم عبارة عن غارات متفرقة كانت تحدث بين القبائل المتجاورة بغرض نهب
الإبل . ففي «ملاحم من تراث حمر الشعبي» جاء أن من ضمن أسباب حرب العقال
«بين قبيلتي حمر والكبايش»، هو ما يسميه حمر «النهيض» فما هو النهيـض وكيف كان
نظامه ؟

يـحكون أنه عندما تنوى مجموعة النهيـض تقوم بتجميع عدد كاف يتراوح بين
الخمسين والمائة والخمسين فارساً بالتقريب، وتسير هذه المجموعة بعد تحديد هدف لها
أو تسير باحثة عن قنصها حتى تجد مجموعة مناسبة من الإبل تغير عليها وتأخذها بعد
قتل من معها» (١). وتضع هذه المجموعة - كما هو متوقع - كل احتمالات الموقف -
وأولها إستئجاد أصحاب الإبل المنهوبة بياقي قبيلتهم ولذلك فإنه بعد أخذ الإبل يسوقها عدد
قليل من الفرسان بينما تنتظر الأغلبية من المتتالين ويسمون «الدفين» لعدد النجدة التي
قد تأتي لإسترجاع الإبل . ومن نظامه كذلك أن الإغارة دائماً تكون في الصباح حيث لا
يكون الإستمعداد كافياً في الطرف المهاجم . وهذا ما يعرف بعنصر المباغتة - ويبدو أنه
بعد تملك نظام الدولة وإشاعة الأمن، تقلصت حركة النهيـض هذه إلى ما يعرف بالهمبة
فأصبح الهمباني يعمل على نفس المنهج مع فارق المجموعة خشية إنكشاف الأمر وأصبح
المهجوم ونهب الإبل في الوقت المناسب حسب إمكانية المجموعة الصغيرة المسلحة إستعداداً
للقتال إذا لحق بها أصحاب الإبل» (٢) .

إذن، النهيـض هو إغارة بغرض النهب - بل ونهب الإبل . وتم هذه الإغارة علناً
ويقوم بها عدد من الفرسان من قبيلة ما على قبيلة أخرى مجاورة . وقد كانت هذه الظاهرة
من أسباب حرب العقال المشهورة في تاريخ حمر والكبايش - ثم أنه - على حسب ما
جاء في النص السابق - قد تقلصت هذه الحركة إلى ما يعرف بالهمبة .

١ - ملاحم من التراث الشعبي لقبيلة حمر ص ١

٢ - ملاحم من التراث الشعبي لقبيلة حمر ص ١

هذا والروايات الشفوية التي بين أيدينا تربط ربطاً واضحاً بين حركة النهيـض هذه وبين ظاهرة الهمبة. تقول إحدى الروايات وهي تؤرخ للهمبة في منطقة حمر : «بَدَتْ من سنة كان حَمَرٌ يَنْهَضُوا عَلَى الْقَبَائِلِ ، عَلَى الْكَبَائِشِ ، وَكَثْبَتِهَا دَاوُءُ عَدَاوَةٍ ، وَالسَّلْطَنَةُ الزَّرْقَاءُ - يَعْنِي هُمْ يَكْتُلُوا الْكَبَائِشِ بِجَبَبٍ مِنْهُمْ وَالْكَبَائِشِ بِكُتْلُوا حَمَرٌ بِشَيْلُوا مِنْهُمْ إِبِلَ . لَا كَيْنَ مِنْ جَاءَتِ التَّرْكِيَّةُ ، السَّلْطَنَةُ الزَّرْقَاءُ انْتَهَتْ ضَلَّتْ (١) مَغَارَاتٍ سَاكَيْتِ يَا السَّرَاجَةُ دَبَلٌ . نَحْنُ مَنَقُولٌ لِيَهْمُ السَّرَاجَةُ دَبَلُ الهمْبَانَةِ . الهمْبَانَةُ دَبَلٌ بِشَيْلُوا سِلَاحٌ مَمْنُوعٌ وَبِرُوحُوا أَنْ كَتَلُوا هُمْ كَتَلُوا هُمْ وَكَانَ هُمْ كَتَلُوا بِجَبَبٍ إِبِلَ مِنَ الْقَبَائِلِ ، لَا كَيْنَ مَا فَيَشْسُ سَرِقَةً دَاخِلِيَّةً أَبَدًا » (٢) . وتقول رواية أخرى من نفس المنطقة : « وَاللَّهِ يَا زَوَلَّ الْحَكَايَةِ هِيَ الْحَاجَةُ دِي بَدْرِي بَدْرِي لَا زَمَانَ دَاكُ يَغْيِرُوا جَدُودَنَا وَيَجْبِيُوا الْبِلَ وَيَمُوتُوا فِيهِمْ طَوَّالِي عَلَى عَيْنِكَ يَا تَاجِرٍ مَا بَسِيرُوا » (٣) .

نلاحظ في الرواية الأولى الإشارة إلى أن موضوع الهمبة بدأ بما كان يحدث من غارات بين القبائل المتجاورة. وأنه عندما ترك النهيـض جاءت الهمبة كبديل له . وهنا أيضاً نجد نفس الفرق الذي لاحظناه بين ظاهرة القيمان والهمبة. فالنهيـض هو عمل إجماعي من قبل القبيلة بينما الهمبة عمل فردي. والهمبة تكون في القبائل البعيدة بينما يكون النهيـض في القبائل المتجاورة. أما الملاحظة الثالثة فهي أن الرواية قد حددت زمن النهيـض بالسلطنة الزرقاء وأنه إنتهى بنهايتها، وهو نفس ما لاحظناه في موضوع القيمان . وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أن الهمبة هي امتداد أو هي بديل لها ، ولأنها برزت إلى الوجود بعد نهايتها التي كانت توافق سقوط مملكة الفونج على يد الأتراك في بداية القرن التاسع عشر .

ب - النشأة :-

رأينا في حديثنا عن ظاهرتي القيمان (١) والنهيـض أن الهمبة كانت بصورة ما

١ - ضلت : ظلت

٢ - الأرشيف شريف رقم م/د/أ/١٨٩٦ .

٣ - إذا رجعنا إلى طبيعة هذا النوع من النشاط فالتا نلاحظ أنه ليس هناك فرق بين القيمان والنهيـض ولذلك فالتا اعتقد أنها ظاهرة واحدة وإن اختلفت التسميات .

امتداداً لهما - أو هي تعويض عنهما . وأنها بدأت من حيث إنتهتا . ومن تتبعنا لتاريخهما رأينا أنهما إستشرتا في أيام مملكة الفونج حيث كان الأمن ضعيفاً والسيطرة على نشاط القبائل العدائي في بعضها غير ممكن ، لأن تلك القبائل كانت تعيش في شبه إستقلال عن سلطة الحكومة المركزية . ولما جاءت التركية إستتب الأمن إلى درجة أقوى مما سبق لبروز سلطة الحكومة المركزية بوضوح أكثر ، فكان لابد لهذا النوع من النشاط من التقلص والإنكماش . وتقلص هذا النشاط ثم إنقراضه أوجد فراغاً في حياة أفراد القبيلة فتلك الطاقة التي كانت تستهلك في الغارات الجماعية من قبيلة على الأخرى ، ما زالت موجودة ولا بد لها من - تفريغ - ولم يكن من الممكن العمل على نفس النظام السابق لأن يد الحكومة امتدت إلى تلك القبائل شبه المستقلة . ونتيجة لهذا تكونت مجموعات أصغر في حجمها من تلك وإنتهجت نفس الأسلوب القائم على النهب والسلب عن طريق الإغارة . ولكن لابد لنا من أن نلاحظ بعض أوجه الإختلاف بين ذلك النشاط الجماعي المتمثل في القيمان والنهيـض وهذا النشاط الفردي المتمثل في الهمبة .

إن الغرض في الحالين واحد، وهو النهب . ومشرح النشاط واحد وهو البادية . ولكن هذا النهب في حالتي القيمان والنهيـض يحدث في القبائل المتجاورة ، إلا أنه في حالة الهمبة يحدث في القبائل البعيدة . وعدم نهب الجار هو من القواعد الأساسية للهمبة . ومن الناحية الأخرى فأن العدد في الحالة الأولى أكبر منه في الحالة الثانية ، التي قد يسير فيها الشخص الهمباني بمفرده - وقد يسيرون في جماعات ، بينما لا يكون النهب في الحالة الأولى إلا في جماعة . ومن التواعد المرعية في مسألة الهمبة أن الهمباني لا ينهبون غير الإبل مهما كانت الظروف بينما « القوم » لا تقتيد بتميد مثل هذا ، وإن كان الحديث عن نهب الإبل يبدو ملتفتاً للنظر في هذه الغارات . ولعل هذا يكون أكثر وضوحاً في حركة النهيـض في كردفان .

نعود للحديث عن نشأة الهمبة فنقول أن أول إشارة تاريخية لهذه الظاهرة قد ظهرت في الحديث عن القيمان والنهيـض ، حيث أنهما إقترنا بمملكة الفونج وإنتهتا بانتهائهما . ولكن القول بانتهائهما بانتهاء مملكة الفونج ليس قطعاً ، لأن هناك من يشير إلى إستمرار القيمان مثلاً حتى أوائل هذا القرن كما ذكرنا . وإذا كانت بدايتها تكون ببداية الحكم التركي في السودان في أوائل القرن التاسع عشر . وليس بين أيدينا روايات عن أشخاص

مارسوا المهبة في فترة الحكم التركي إلا ما جاء عن « أولاد فتر » في تراث البطاحين الشعبي . حيث جاء أن أولاد فتر هما عبد الله والمأحى وهما من أشهر المهاجرة في تاريخ البطاحين وإنهما إشتهرا في العهد التركي ومارسا حياتهما فيه رغم أنهما عاشا شطراً مسن صباهما في أواخر السلطنة الزرقاء (١) . فهذه تعتبر أقدم إشارة تاريخية لظاهرة المهبة . هذا وقد جاء شعر ولدى فتر هذين حافلاً بالألفاظ تدل على بعض الرتب والألقاب التي إرتبطت بحكم الأتراك ومن أهمها لقب « باشا » . فمن شعرهم :-

الباشا البيعنولو
شين عترضو وشن طولو
كان خللو لو خللو
حت شرق الله البارء هولو ٢

فلفظ « باشا » الذي ورد في هذا النص من الألفاظ التي إرتبطت بحكم الأتراك في السودان ولم تكن معروفة قبله . ليس ذلك فحسب ، بل هي نفسها تركية فقد جاء في القاموس : « باشا » (تر) اللقب المعروف الجمع (س) بواش (٢)

أما في الفترة المهدية فإن روايات القبائل تذكر أشخاصاً عاشوا في تلك الفترة ومارسوا المهبة . وأستمر الحال كذلك إلى أن جاء الحكم الثنائي . وهنا تبدو الصورة واضحة تماماً في الشعر والروايات وفي كتابات المفتشين الإنجليز الذين قضوا جزءاً من حياتهم بين هذه القبائل يحاولون وضع حد للظواهر التي تنسب في إضطراب الأمن . ومن ذلك ما ذكره جيمس روبرتسون وهو يتحدث عن فترة خدمته في السودان والمشاكل التي واجهته حيث يقول : « إن الجريمة والنهب والشغب العام كانت تأخذ جل وقتي . وفي الكاملين كنت مشغولاً وباستمرار بالنشاط الدائم لشبكة اللصوص المتخصصة في سرقة الجمال (٣) » . ويمضي فيقول بأنه قام بجهود جبارة للحد من هذه الظاهرة حتى أنه لقب بـ « تمساح الحرامية » ولكن جهوده والجهود المشتركة مع المسئولين في إقليم كسلا ، كانت تبوء بالفشل . إذ أن هذه الظاهرة ظلت كما هي ولم يحدث أي انحسار في

- ١ - التراث الشعبي لقبيلة البطاحين ١٥١ .
- ٢ - قاموس اللهجة العامية في السودان ٤٦
- ٣ - Transition in Africa P-18

حوادث سرقة الجمال مدة وجوده مفتشاً لمركز الكاملين (١) . ويبدو من حديث روبرتسون أن ظاهرة المهبة كانت بالحجم الذي عجزت عنه إمكانات الحكومة ولذلك فإن كل محاولات الحد من هذا النشاط قد باءت بالفشل . وهذا يعني أن تيارها كان جارفاً وإستشراها كان عظيماً .

وفي الشعر يتحدث المهباته عن إصطدامهم بالمسئولين من الإنجليز ويسخرون منهم ويتحدوهم . يقول أحدهم :-

أبوك يا الزينة (٢) بى دروب الدراهم هافى (٣)
أنا يا ميستر أبوقاطنسة العقيد (٤) الشافى (٥)
مسك القايدة (٦) تمساح الدناقلة مقافى
نؤوا العسودة لى زولاً حنين مسو مجافى

فلفظ « ميستر » في اللغة الإنجليزية يعني « سيد » وهو من ألفاظ الإنجليز . يضاف لهذا أن بعض الألفاظ ، مما لم يكن معروفاً قبل الحكم الثنائي ، قد وجدت طريقها إلى قاموس المهباته ، ألفاظ مثل « الرادى » و « الطيارة » وما إليهما . فمن شعرهم :-

يا مدنى الرشايم (٧) قامن
سيد أم قجة (٨) من الرادى (٩) ما يستامن (١٠)

ومنه :-

يا ود التيكيت (١١) هبن هبايب جبرة

- ١ - عمل جيمس روبرتسون مفتشاً لمركز الكاملين في الفترة من ٢٢ - ١٩٢٥ م .
- ٢ - الزينة : اسم فتاة . وهى بنت طه الضريير والشمر له .
- ٣ - هافى : من هيف : رحل وهجر وأهمل .
- ٤ - العقيد : قائد الجيش أو القوم
- ٥ - الشافى : القوى .
- ٦ - القايدة : القيادة .
- ٧ - الرشايم : النوى .
- ٨ - أم قجة : الناقة
- ٩ - الرادى : المذيع . وهو اسم للجمل كناية عن سرعته .
- ١٠ - بستان : يطمئن (١١) ود التيكيت : أحد المهباته

سيد أم قُجّة من الرّادى خنق العبرة (١)

ومدنى المشار اليه هنا هو مدنى محمد عويضة صاحب الحمل الملقب بـ « الرادى ». ومدنى هذا من الهبات المشهورين فى المنطقة حول سنار . وهو من البطاحين القاطنين « جبل دود » غرب مدينة سنار . وهو موجود اليوم ومن المشهود له بالكرم والشهامة . يقول عنه أحد الرواة بمنطقة الكواهلة : « بطحاني من جبل دود من ناس النايب عثمان . من أشهر الناس شهرة فى الكرم ومن خيرة الناس . لاكنو الليلة نايب لوجه الله ويزرع التلمية والأربعمية جدعه . وهى نضمى معاك دا هو فى المدينة » . يعنى إنه ذهب لحج بيت الله الحرام .

الهمة اليوم :-

قلنا أن الحياة البدوية القائمة على الرعى هى أنسب مناخ يمكن أن تنمو فيه مثل هذه الظاهرة وتزدهر . وتغيير هذا المناخ يؤدى إلى ضمور هذه الظاهرة وإضمحلها ثم إنقراضها تماماً مثل الزرع . وفى السودان بدأ يطرأ تغيير فى حياة البدو قوامه تحولهم من حياة الرعى والترحال طلباً للماء والكأ إلى حياة مستقرة تقوم على الزراعة . وفى مناطق البدو السنّى تأثرت بمثل هذا التحول الجديد فى الحياة ، لم تعد القيم التى كانت تسود الحياة القديمة تحتفظ بوزنها السابق بل أصابها إختلال إقتضته طبيعة الانتقال الذى حدث فى حياتهم . وعليه فإن ظاهرة الهمة ، التى إرتبطت بقيم البداوة الرعوية ، قد تأثرت فى استمرارها والإحتفاظ بمكانتها فى تلك المناطق ، بينما بقيت فى المناطق التى لم يطرأ على حياة القاطنين بها تغيير جذرى أو نسبي فى أسلوب الحياة والعلاقات الإجتماعية . وانترك الحديث للرواة من مختلف المناطق والقبائل لرى موقف الهمة اليوم على ضوء رواياتهم وعلى ضوء واقع الحال التى هم فيها اليوم . والسؤال الذى يشترك الرواة فى الإجابة عليه هو : هل ما زال فى القبيلة من يمارس الهمة ؟

فى إطار الرد على السؤال المطروح يقول راو من منطقة الجعليين : « فى الزمن دا ؟ والله كثيرين أنطاطوا وأنطاطوا كثيرين أولاد ما عليهم الإعتماد الأول

١ - العبر : الحزن بلا بكاء . وعندنا مقرون بشيق مكتوم .

ذاك (١) الحقيقة التى تقرها هذه الرواية - هى أن هناك الكثيرين ممن لا زالوا يمارسون هذا العمل . ولكن الراوى يصفهم بأنهم « أولاد ما عليهم الإعتماد الأول ذاك » . فما هو الإعتماد الأول ؟ لا بد أن يكون هناك إختلاف فى صورة الممارسة القديمة والممارسة الحديثة للهمة . ولكن ثبت الرواية عموماً وجود الهمة بصورة ما .

أما فى منطقة الكواهلة فإن جميع الروايات التى بين أيدينا تنفى وجود هذه الظاهرة وسط تلك المجموعة اليوم . ويذكرون لذلك أسباباً ساعدت فى إنقراض ظاهرة الهمة فى المنطقة . تقول إحدى تلك الروايات : « لا . لا . فى زمان ما كُتْهُمْ الناس عِرْفُوا . عِنْدَهُمْ بَقِيَتْ فَضِيحَة وَعَنِيْب . هَسْ أَغْلِبَهُمْ بَقِيَتْ فَحَامَهُ هِنَا » . ويمضى فى تعديد الأسباب الأخرى فيقول : « بخافوا قَعَدُوا (٢) بخافوا الله . عِرْفُوا زمان مَوْهُم مَسَاد يَدَا (٣) تَعَمِيَهُمْ . زمان نحن مساديد لا كين أجنات ديل فتَحُوا يَقُوا قَرَايَة وَمَدَارِس (٤) يستخلص من ذلك أن النظرة الحالية للهمة وسط هذه المجموعة لم تعد كما كانت فى الزمن السالف . فإذا كانت فى الماضى مدعاة للشاء والإفتخار ، فأنها صارت اليوم عيباً وفضيحة . وهذا بالطبع تغير كبير فى المفهوم القديم لدى القبيلة تجاهها . وتذكر الرواية أن من أسباب الإنصراف عن الإشتغال بالهمة إنتشار التعليم . وتضيف إلى ذلك أن أسلوب الحياة لدى هذه المجموعة قد تغير فصاروا يعتمدون على الزراعة بينما صار الرعى عملاً ثانوياً بالنسبة للفرد فيهم . ويقول راو آخر مجيياً : « لا . لا . مافى إنتَهُوا » . وعن السبب يقول : « عِرْفُوا قِيْل مَا عَارَفِين - النَّاس الْقِيْل مَا عَارَفِين جَاهِلِيَة . لا كين هَسَع النَّاس عِرْفُوا الْقَانُون وَعِرْفُوا الْأَهْل وَعِرْفُوا كَلَو حَاجَة . وَأَتَحَانَنُوا فَي بَعَضَهُمْ . النَّاس الْقِيْل يِيَا كَلُوا مِنْهُمْ حَسَع (٥) سَوَوْهُمْ أَحْبَاب وَأَتَوَاصَلُوا وَأَتَنَاسَبُوا (٦) وَكَلُوا حَاجَة . بَسْ وَقَفُوا مَسْن الْمَوْضُوع الْبَيْتِل (٧) دَا . عِرْفُوا مَا قَالَ اللَّهُ وَ مَا قَالَ الرَّسُول . وَعِرْفُوا دَا حَرَام

١ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٧

٢ - قعدوا : بمعنى صاروا

٣ - مساديد : جمع مسدود وهو الرجل المغلق الذهن .

٤ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٣ .

٥ - حَسَع : يقولون حَسَ وحَسَّ وحَسَّ ويقصدون الآن أو فى الوقت الحاضر .

٦ - ناسبه : تزوج إحدى بناته أو قريباته ٧ - البتل : الذى مثل

و دا حلال (١) . يتضح من هذا الحديث أن تلك الأسباب تتمثل في : ارتفاع درجة الوعي بينهم ، ادراكهم لقيمة القانون في حياتهم ، ثم الناحية الدينية التي يبدو أن قوانين القبيلة الاجتماعية كانت تغطي عليها . ومن الجهة الأخرى فإن العلاقة العدائية بين القبائل بدأت تنحسر وتحل محلها علاقة جديدة قوامها التألف والتآخي . وإذ لما يلاحظ أنه حتى الإحساس بالعصبة القبلية قد بدأ يخف لدى هذه المجموعة وفقاً لما طرأ على أسلوب حياتها من تغيير . وذلك يرجع لاختلاطهم ببعض الناس من خارج قبيلتهم مما حد من التمسك المميت بالقبيلة إلى درجة ابداء الآخرين أمثالاً لأمرها ورفعاً لشأنها .

نقول رواية أخرى : « ونظر القبائل في ذلك الموضوع وقبيل ما يكون بسيط بي شكلوا دا كانوا الناس اليسوا الحاجات دي والله مكرمين عند أهلهم و فيهم ناس حتى من بيوت دينية . لاكنو هسع معظم الناس نسبة لى المعلم إيتدوا دبيل كان (٢) يخففوا من طبيعتهم زاتوا . إهيشوا الجار ، إهيشوا المسكين ، الزول الهنأ . دا برضها ضعفوا بعني زى ما عاداتهم الأصلية ، والذي يظهر من هذا الحديث ، أنه قد حدث تغيير في قواعد المهبة وقيمها ، وهذا التغيير أدى إلى استهجان الذين يعملون بها . ومن هذه القيم أن المهبة في الزمن السالف لم يكونوا يهبون الجار مثلاً . وبالتالي لم تعد صورة المهبة هي تلك الصورة الحسنة المستحسنة التي تحتل القبيلة بها . ويمضي الراوى فيقول : « فعلى كلاً الموضوع هسع إتبسط شوية شىء فى شىء - يعنى زى بقت المسألة سرقة و سرقة والله ما مستحسنة هسع . لأنهم الناس الذكرتاهم فى الأول كانوا بيتحموا الجار و كانوا بيتحموا الضعيف . و كان من الليلهم (٣) يركبوا ويكسوا العريسان و كانوا يسوا حاجات سمنحة جداً . لاكنو هسع والله مينا متبسوطين منهم و ما هم مشكورين . يقوا الواحد إتقوى فى أمان الله و يسوق جمل جارو . دي بقت عاد ميتها سمنحة و ميتها أصلية (٤) . هذه الطريقة فى الحياة التى كانت لها قوانين تنظمها ضعف قانونها ولم يعد هناك التزام بالقواعد . وبالتالي فإن المجتمع الذى

١ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١/١٩٠٥

٢ - كان : بمعنى أيضاً .

٣ - الليلهم : الذى هو حقهم - ويقولون هيل أى حتى .

٤ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١/١٩٠٢

نشأت فيه والذي كان بقوانينه الاجتماعية يعطيها عمقها الإجتماعى ، هذا المجتمع لم يعد يقرها فأدى هذا إلى أن ينصرف أعضاؤه عنها .

تتميز بادية كردفان بأن ظاهرة المهبة ما زالت تمارس فيها بصورة واسعة . وهم ما زالوا يتحدثون عن العديد من الفتيان الذين يعملون فى نهب وسلب الابل . ليس ذلك فحسب بل هم يتحدثون عن إستشراها وعن حادثة عهدهم بالإشتغال فيها . يقول أحدهم : « والله زما أن يعنى حمر ما فيها سراجة ، ما فيها كدا . بتعدين كانوا فى ناس قديمين جداً لاكين الزمن ألعينا دا البلد بقت بعني أغليتها يعنى فى أى بعض يعنى بيلمقى السراجة . و تلمقى دا كويس ودا يعنى بقال يعنى . يعنى أغلية يعنى بقت يعنى ما كيف (١) الزمن الفات . زمان يعنى الواحد يكون حرامى يكون واحد مندور (٢) فى البلد كلاتها . يكون مندور يضربوا ليك بى المثل فلان . لاكين قاموا السنين بزر (٣) السنين النجاء دي (٤) بزر عجيب كلو كلو » ويمضى فيقول : « لاكين البزرة قامت جديدة دي لا رحت كاجه (٥) ولا رحت . . . يعنى بزرة قامت بزر طقهاشين أول بادي جملك كان بيقى يعنى مربوط فى رأسك بسلوا منك . وان بيقى جملك مقيد فى شيقك يعنى عندهم عليك طغومة (٦) يخططوا منك . يعنى يقوا يخططوا خيط شين » (٧) . وهكذا فإن هذه الرواية تشير إلى تفشى هذه الظاهرة بصورة واسعة فى وقتنا الحاضر هذا فى منطقة حمر . ولكن لابد أن نلاحظ أن تشوبها فى الصورة قد حدث كالاشارة إلى سرقة الجمل المقيد . وهو ما يسمونه « جمل القيد » وذلك مما كان يعبر به فى نظام المهبة القديم .

ويقول راو آخر وهو يتحدث عن تاريخ المهبة فى حمر : « والله يا زول الحكاية

١ - ما كيف : ليس مثل

٢ - مندور : من نادر . وتسمى مشهور .

٣ - بزر : من بذرة : الحبة التى تزرع .

٤ - دي : بمعنى ذا أو هذا وهى من ده بمعنى هذا .

٥ - كاجه : قبيلة فى كردفان . يقو حمر أنهم تعلموا المهبة منها .

٦ - طغومه : لعلها خصوصية .

٧ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١/١٨٩٧ .

هي الحاجة بدري بدري . نحن لما قمنا لقينا الـ لقينا الزمن كدي . لقينا
أخوانا البسوقوا بسنموا بيهم مما ستة و ستين نحن إبتدينا منقوم منسوق
الليل من ستة و ستين و جاي منسوق الليل شديد (١) . اذن ليس هناك مجال
للقول بانقراض هذه الظاهرة في منطقة حمر وبادية كردفان عموماً .

وعلى العموم من الصعب أن نزع أن المهمة قد انقضت . ولكننا نستطيع القول
بأن هناك عدة عوامل ساعدت في تخفيف حدة وطأتها في بعض المناطق ، كما أن هذه
العوامل بالتأكيد سوف تستمر تؤثر فيها حتى تتلاشى .

كان البدوي في الماضي في مأمن من سلطة الحكومة وكان من الصعب السيطرة
عليه . وذلك لأن البدوي كان منزلاً ودائب الحركة وذا مقدرة قتالية عالية . ولكن مع
نمو تطبيق « التكنولوجيا » الحديثة بدأ البدوي يفقد هذه المميزات وصار في متناول يد
الحكومة . فقد صارت الحكومات تمتلك أحدث وسائل المواصلات ، مما جعلها أقدر
على الحركة من البدوي . وهذا أدى بالتالي إلى تقليل درجة عزله ومقدرته على الحرب
من وجه القانون ثم أن ما تملكه الحكومات من أسلحة وعتاد حديث قد أدى إلى إضعاف
القبائل البدوية . يضاف إلى ذلك أن وسائل الاتصال الحديثة قد أقنعت البدويين بتقبل
أذواق وعادات كانت قاصرة على المدن . وهكذا فإن التطور التكنولوجي قد لعب
دوره في التأثير في المجتمع البدوي بتجريدته من وظائفه . وإن استعمال وسائل النقل
الحديثة بدءاً بالسيارات وانتهاء بالطائرات مع الحرص على تحقيق الأمن الجماعي -
كل تلك عوامل مؤثرة في الحياة البدوية وما ارتبط بها من ظواهر اجتماعية (٢) .

إن الاتجاه إلى تغيير وجه الحياة البدوية القائمة على الرعي له أكبر الأثر في
تغيير المفاهيم القبلية التقليدية . ففي الأماكن التي شملها التطور الزراعي في السودان ،
مثلاً ، لم يعد امتلاك أكبر كمية من الأبل هو مقياس العلاقات الاجتماعية . وقد رأينا
كيف أن انتقال البدويين في منطقة نهري الدندر والرهدي من حياة الرعي إلى حياة الزراعة
قد أثر في مفاهيمهم وفي نظرهم للمهمة ، كان نتيجة ذلك انقراض الظاهرة ، أو على

١ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١/١٨٩٤

٢ - Morroe, B. 'The Arab World To day 1962' P. 71

الأقل لم يبق منها إلا بقايا في طريقها إلى الانقراض .

إنني أعتقد أن بقاء مثل هذه الظواهر رهين باستمرار نوع الحياة التي نشأت فيه .
ومنى ما أمكن تغيير نوع الحياة فإن إختفاء هذه الظواهر يأتي تلقائياً . وفي الحالة التي
نحن بصدد دها يمكن القول بأن القضاء عليها يمكن أن يتم في إطار الاتجاه نحو توطین
العرب الرحل . وتوفير احتياجات الحياة الحديثة لهم . ويتبع ذلك « بث أيولوجية
جديدة بينهم . أي تغيير موقفهم - لمفهوم النهب والسلب » (١) ، وغرس مفاهيم
جديدة تواكب التطور وتسائر طبيعة الحياة الحديثة .

ولا بد أننا ندرك أن للبداوة ظروف إنسانية وطبيعية وجغرافية خاصة وتركيب
اجتماعي معين يركز على العصبية . والتوطين يعني الاستقرار في مكان واحد بدلاً من
التنقل الدائم وراء الماء والكأ . ولكنه يعني أيضاً الاتجاه نحو نمو القيم البالية المرتبطة
بالحياة غير المستقرة . وهذا ينسحب على الجانب الاقتصادي وطبيعة العمل . والجانب
الاجتماعي الذي يرتبط بها ينظم حياة البدو من عادات وقيم وقوانين ونظم ونماذج سلوك.
هذا ولا بد للتوطين حتى يحقق مختلف مهامه من التركيز على جانبين هامين مادي ونفسي :
يتضمن الجانب المادي تغيير مختلف نظم الحياة الاقتصادية البدوية ، بما في ذلك أساليب
البدو في تكسب أرزاقهم ، مع تغيير مساكنهم التقليدية وطرق انتقلهم الخ
أما الجانب النفسي فهو عملية تكيف البدوي نفسياً وحضارياً لإقامة علاقات جديدة تختلف
بالضرورة اختلافاً كبيراً عن قيمه وعلاقاته السابقة (٢) .

يذكر الفوال أن « للتوطين عدة مهام رئيسية من أبرزها تحقيق تحول الجماعة
البدوية عن الترحال بمختلف أشكاله وصوره وتأثيراته ، وبما يصاحب هذا التحول من
تغيير في الأنماط السلوكية البدوية ، وبما يستتبعه من تأثيرات على مختلف جوانب
الحياة الاجتماعية والاقتصادية » . ومن هذه المهام أن التوطين يمكن البدو من الاندماج
في المجتمع ككل دون الارتباط بالقبلية . وهذا يؤدي إلى إختفاء النزعات القبلية
والعصبية ويقوى الوحدة الوطنية . ومن الناحية الاقتصادية يتيح الفرصة للتخطيط السليم

١ - الدكتور محمد محمد الزلبناني ، تجديد التقاليد . وزارة الثقافة والاعلام السودانية ١٩٧١ م ص ٢٠١

٢ - صلاح مصطفى الفوال ، علم الاجتماع البدوي ، من مجلة علم الاجتماع والتنمية ١٩٧٤ ص ١٠٥

للتنمية . أما في الجانب الاجتماعي فيقول : « النظام القبلى بما له من قيم خاصة يخضع البدوى لاجراءات معينة تتعلق بالدفاع والقضاء والغزو والسلب ... الخ . وهذه كلها أمور تباعد بين البدوى وبين الاحساس بالأمن والطمأنينة ، حيث على كل بدوى فى حد ذاته وفى نطاق عائلته وقبيلته أن يكون مستعداً للحرب اما عادياً او مدافعاً . والتوطين يحد من شوكة هذه النظم ويخضع البدو كلهم لاجراءات أمن موحدة وطرُق تعامل جديدة ، ويضمن لهم خدمات ومؤسسات توفر لهم مختلف احتياجاتهم وتمنحهم إياها بغير حرب أو عناء ، وتكون النتيجة فى النهاية مجتمعاً متماسكاً ومتساوياً فى الحقوق والواجبات » (١)

ان مجرد استقرار البدو فى مكان واحد لا يعنى شيئاً . ولكن أهمية الاستقرار مما يتبع عنه . فعلم الاستقرار يولد فى نفوس البدو شعوراً بالوحشة والاضطراب النفسى مما يدفعهم لتصرفات تتصف بالخشونة واللامبالاة . وكل ذلك أمر تحتّمه الظروف التى يعيشون تحت سطوتها . ومتى ما أمكن تغيير صورة الحياة القديمة فإنه يتبع ذلك تغير فى السلوك والمنهج الحياتى المرتبط بذلك النوع من الحياة - وتختفى بالتالى من حياتهم الصور القديمة للعلاقات الاجتماعية والمفاهيم والقيم التى كانت تسود المجتمع القديم وتفرغ سيطرتها على أفرادهِ .

دوافع الهمة ونظمها وقيمها

- دوافع الهمة وأسبابها
- نظم الهمة وقواعدها وقيمها

دوافع الهمبة وأسبابها

كانت وراء ظاهرة الهمبة عدة دوافع وأسباب . ومن هذه الدوافع والأسباب ما كان اجتماعياً ومنها ما هو اقتصادى . وللهمبة أيضاً دوافع خاصة تتعلق بشخصية الفرد الهمبائى نفسه . وكل هذه الدوافع نابعة من طبيعة المجتمع البدوى الذى نشأت فيه الهمبة ، بكل ما فيه من عادات وتقاليد وقيم ، تمثل القانون الاجتماعى الذى ينظم حياة الأفراد فيه وبكل ما فيه من تركيب اقتصادى مبنى على أسس تلعب الطبيعة فيها دوراً رئيسياً . ولعل الصورة تتضح وتنكشف حين نبدأ تفسير هذه الدوافع واختبار الأسباب وتحليلها .

القبيلة :

كان المجتمع البدوى فى بادية الجزيرة العربية يقوم فى تكوينه الاجتماعى على وحدات اجتماعية تعرف واحداً باسم القبيلة . فكان هذا المجتمع يستند فى صورته الاجتماعية البسيطة على العصبية القبلية . وهذه العصبية تعنى ببساطة الالتصاق بالقبيلة وتنفيذ أمرها وفقاً للقوانين المتعارف عليها والتى استنت لتنظيم حياة أفراد القبيلة مبنية حقوقهم وواجباتهم ، وموضحة لكل فرد فى المجتمع القبلى الدور الموكول إليه القيام به .

وكان الشخص المثالى فى مثل هذا المجتمع هو الملتزم بالقوانين المشار إليها والتى تشمل الدفاع عن القبيلة ونصرتها فى تضحية ونكران ذات . وفى مقابل ذلك فإن من واجب القبيلة أن تقوم بحماية الفرد والذود عنه بما لها ورجالها .

كانت تلك هى صورة القبيلة فى المجتمع العربى فى الجزيرة العربية . وقد وفد العرب إلى السودان وعاشوا فيه بنفس الصورة التى كانوا يعيشون بها فى جزيرتهم . وكانت القبائل العربية التى إنتقلت تبحث فى المقام الأول عن مكان يتوافر فيه الماء والكلاء . وكان ذلك هو الأساس الذى استوطنت فيه القبائل العربية بقاع السودان الشاسعة ، وظلت حياة الترحال وعدم الاستقرار هى المعلم الرئيسى فى حياة هذه القبائل ، لأن هذه

المواطن السني إختارتها القبائل لنفسها ، هي في الواقع مواطن مؤقتة ، فإذا ما عم الحفاظ وانعدم الكلاً انتقلت القبيلة الى بقعة أخرى . وهكذا احتفظت القبائل الوافدة إلى السودان من الجزيرة العربية بنفس الصورة القبلية الأولى .

والصورة التي نعينها ونريد الحديث في إطارها تتمثل في الآتي :-

- (١) يكون أساس القبيلة أسرة جميع أفرادها من صلب رجل واحد يؤمن كل أفراد القبيلة بانتمائهم اليه ويعملون معاً لحماية القبيلة ودفع الشرور عنها .
- (٢) هذه الوحدة يجب أن تظل قائمة وكل من يمس بها يعتبر خارجاً على القبيلة ويرتب على ذلك عواقب ليس في مصلحة الفرد .
- (٣) نتيجة لهذه الوحدة يتحتم على كل فرد أن يلتزم بالتقاليد الاجتماعية التي تنشأ أساساً لتكون مرتكزاً لحفظ وحدة القبيلة وتأكيد تضامنها . وهذه التقاليد فسي مضمونها تشكل الدستور الذي يرعى حقوق أفراد القبيلة ويحدد واجباتهم . وهذا بالتالي يلزم الفرد بالعض على هذه التقاليد بالنواجز وفيها يكمن رضا القبيلة وتأكيد الإنتماء لها .

(٤) كل ذلك جعل أفراد القبيلة يكونون في موضع الالتزام بالتجمع مادياً ومعنوياً للحفاظ على تماسك القبيلة . أما في الجانب المادى فعلى كل أفراد القبيلة التجمع في مواجهة الظروف القاهرة التي تجابهها جبا في البقاء فيعمل كل أفرادها معاً ويحاربون معاً (١) . وفي الجانب المعنوى أفراد القبيلة ملزمون بالتصرف وفقاً لقيم وتقاليد وعادات القبيلة وتحمل نتائج كل ذلك . ولا يقف الأمر في هذا الجانب عند حد الرعاية لما ورثوه من عادات وتقاليد وقيم ، بل عليهم أن يعلموا ذلك لصغارهم سواء بالتلقين أو بالممارسة وتلعب الأساطير ومآثر الآباء والأجداد وحكاياتهم دوراً مهماً في هذا الشأن (٢) .

ومن هنا كان ارتباط البدوى بقبيلته امراً لازماً . هذا وقد أوضحت الكثير من الدراسات التي تناولت المجتمع البدوى ومكوناته مدى الارتباط الوثيق بين البدوى

١ - صلاح مصطفى الفوال علم الاجتماع البدوى ، من سلسلة علم الاجتماع والتنمية ١٩٧٤م ص ١٧٥
٢ - نفس المصدر ٢١١

وقبيلته . فقد ذكر بيرجر - مثلاً - أن البدوى مع تقديره الشديد لذاته الى حد المبالغة ، إلا أنه مع هذا شديد الانصياع لقبيلته ولما يريها الجماعية (١) . والارتباط بالقبيلة يعنى الانقياد لتقاليدها ونظامها . ويقول الدكتور الزلباني في هذا الشأن : « وأبسط تعريف للتقاليد أنها اتفاق على الاتيان ببعض المظاهر يسود بين الافراد في محيط معين ، وهذه المظاهر السلوكية تميز الجماعة أو الطبقة بطابع خاص بالنسبة للوسط الاجتماعى الذى ينتسبون إليه وتؤكد الوحدة والتضامن بينهم » (٢) ويمضى فيقرر بأن سطوة التقاليد تزداد في المجتمعات الريفية عنها في المجتمعات الحضرية وكلما كانت الجماعة محلية محدودة العدد منعزلة كلياً أو نسبياً عن المدن ، كمجتمع القبيلة أو القرية أو البلدة الصغيرة ، كلما اشتدت سيطرة التقاليد وكلما كان الإفلات من قبضتها صعباً بسبب نظام الأبوة ولأن الناس يعرف بعضهم بعضاً وجها لوجه (٣) . ومن ثم فإن كلا منهم يراعى خواطر الآخرين ويخشى غضبتهم عليه أو سخريتهم منه أو غاصبتهم إياه ، واغتيالهم له اذا هو خرج على ما أجمعوا عليه من تقاليد . ويساعد صغر حجم المجتمع في اكتشاف أى انحراف عن معايير المجتمع وتقاليد ما يتسبب عن ذلك حدوث ضغوط مرديّة وجماعية على الفرد (٤) .

على ضوء هذه الرؤية يمكننا أن نختبر وضع المهبة في المجتمع البدوى ومجتمع (الأباله) أى أصحاب الإبل ، على وجه الخصوص . فهي بصورتها التي تمارس بها وبرسوخها في ذلك المجتمع تصل إلى درجة التقليد المتوارث . وربما يتضح لنا الأمر بوضوح أكثر حين نخضع ذلك للمعايير السائدة في المجتمع القبلى - وذلك بالنظر فى الخلفية الاجتماعية لهذه الظاهرة من خلال حديث الرواة .

يقول راو من منطقة البطاحين عن سبب اشتغالهم بالمهبة : « السَّبَبَ بَغَر من أجْدَادُنَا . فُلَانُ جَدُّو فُلَانُ أَبُو فُلَانٍ قَبِيلُ بِيَعْمَلُ بِيَعْمَلُ هُوَ بِيَعْمَلُ بِيَعْمَلُ »

١ - M. Berger The Arab World To day, London 1962 P64

٢ - الدكتور محمد الزلباني ، تجديد التقاليد ، وزارة الثقافة السوانية ١٩٧١م ص ٤ .

٣ - تجديد التقاليد ٤

٤ - نفس المصدر ٤

كان أبو يعمل زى أو كان جِد و يَعْمَل زى فِعِل جِد و (١) . فهى اذن بهذه الصورة تقليد توارثه الأبناء والأحفاد عن آبائهم وأجدادهم وقد يما قالت العرب :

ومن شابه أباه فما ظلم

ولكن السؤال الذى يفرض نفسه هنا هو : ما هو موقف القبيلة من هذا النوع من

السلوك ؟

نحيط على هذا السؤال عدة روايات . من ذلك ما قاله أحد الرواة من منطقة الكواملة :
« نَظَرُ الْقَبَائِلِ فِي ذَلِكَ الْمَوْضُوعِ (يعنى الهبته) وَ قَبْلُ مَا يَكُونُ بَسِيطَ بَسِي
شَكْلُو دَا كَانُوا النَّاسَ الْبُسُورَا الْحَاجَاتِ دِي وَاللهُ مُكْرَمِينَ عِنْدَ أَهْلِهِمْ
وَ مِنْهُمْ نَاسٌ حَتَّى مِنْ بِيُوتِ دِينِيَّةِ (٢) . ويقول راو آخر من نفس القبيلة :
عِنْدَنَا أَلْ مَا يَنْتُومُ خِيُونِيْفِ وَ مُسَيْدِيدِ وَالْبَنَاتِ يَكْتَجِفْنَ (٣) أُمُو (٤) .
ويقول راو ثالث : « قبل كلوا والله كان بيتى المره (٥) الما ركبى . » ويمضى فيقول :
فى الزمن الفات متباغرين فيها كلهم مره واحدة . والما يسرق ، الما يقوم يسرق مو راجل
كان (٦) . فهى اذن ظاهرة سلوكية يشترك فيها كل أفراد القبيلة باستثناء النساء لأز
طبيعة العمل لا تتفق مع تركيبهن البيولوجى . والتركيب البيولوجى هو أحد أسس توزيع
العمل فى المجتمعات البدوية (٧) . فالحرب والنهب والسلب من الأعمال التى يختص
بها الرجل دون المرأة ، وان كان للمرأة دور فى ذلك ، فإنه لا يتعدى أن تثير الحماس
وتلهب المشاعر وتدفع الرجال دفعا - لما لها من وظيفة اجتماعية - إلى الاستبسال فى
الحرب أو التمادى فى أعمال النهب والسلب على نحو ما سترى .

نلاحظ فى بعض الروايات السابقة أن الهبته ارتبطت فى مفهومها ببعض التقسيم
السائدة فى المجتمع البدوى والتى تشكل إحدى خصائص الشخصية البدوية كالشجاعة .

١ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/٢٥٠

٢ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١٩٠٢

٣ - كجين : بابجيم أنمشه : كره وبفض .

٤ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١٩٠٣

٥ - المره : المرأة .

٦ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١٩٠١

٧ - علم الاجتماع البدوى ٢٩٧

فالرجل الذى لا يمارس الهبته هو رجل جبان وضعيف الرأى وناقص الرجولة « مو راجل
كان » . وفى بعض المجتمعات القبلية فى البادية كانت الهبته هى السلوك الذى يبرهن به
الفرد على بلوغه قدر الرجال . فمن تقاليد البطاحين - مثلا - أن الفتى منهم عندما يبلغ
سن الرشد فإن عليه أن يثبت ذلك عمليا بوضع بصمته على ابل الغير التى يأخذها عنوة
واقنادارا وجهارا نهارا (١) . وهنا فقط يعترف له المجتمع ببلوغ قدر الرجال .

تلعب الماشية دوراً رئيساً فى المجتمع البدوى الذى يعتمد اقتصاده على الرعى
فهى التى تحدد مكانه ودور الفرد فى ذلك المجتمع لأنها أهم عناصر الثروة فيه . ولذلك
فإنها تلعب دوراً رئيساً فى مختلف مناسبات الحياة الاجتماعية : فهى مصدر الغذاء والكساء
والمأوى « وهى العملة المقبولة عند التبادل أو دفع المهر أو الدية أو مالىها » (٢) . وهذا
الدور جعل الماشية محط فخر وسعادة البدو ومصدر السلطة والغلبة فى مجتمعهم .
فكان - تبعاً لذلك - أن كانت الماشية هى ميزان قيمة الفرد أو الجماعة ، أى أنه كلما
ارتفع عدد ما يملكه الفرد من الماشية كلما سمت مكانته فى مجتمعه ، وكلما كانت
الجماعة البدوية تمتلك قدراً كبيراً من الماشية كلما كان قدرها كبيراً وسط الجماعات
الأخرى .

ونسبة لهذا الدور الذى تؤديه الماشية فى المجتمعات البدوية ، كان الحصول على
أكبر قدر منها واجبا تقتضيه الضرورة ويحتمه الواقع المعاش . وقد كان الحصول على
الماشية فى المجتمع البدوى فى السودان يأخذ أشكالا شتى . ومن هذه الأشكال الغزو
الجماعى والاغارة من قبيلة ما على قبيلة أخرى ، كما رأينا فى «القيمان» و«النهض» ،
ومنها الغزو الفردي المتمثل فى الهبته وغيرها من الأساليب الفردية الأخرى . فهى تشكل
- فى نظرنا - جانبا من جوانب الصراع الدائر فى المجتمع البدوى بين اصحاب
المخائض من جانب ، وبين أولئك الذين لم تمن عليهم الطبيعة من فيضها بشئ وبالتالى
تضاءلت منزلتهم فى المجتمع .

ورغم أن الهبنة عموما لم يسعوا الى جمع الأموال ولم يكن تكديسها هدفا لهم ،

١ - التراث الشعبى لقبيلة البطاحين ١٤٨

٢ - علم الاجتماع البدوى ٢٥٩ .

أما أب صلعة فوق ضلأعو نيتل و كركر
ويقول الآخر :-

الولد الخائف القبيلة نلسمو
يخلف ساقو فوق تيساً رقيق قدومو
أمن جاب رضوه البهم البينفر قومو
وأما انحامشن قدح الرماد حرومو

إذن فقد كان المجتمع القبلي في البادية يجزل الشاء لمثل هذا النوع من السلوك فسي الحياة ويلوم المتقاعسين عنه . ومن هنا كان على الفرد أن يعمل على كسب رضا المجتمع حوله ويتجنب لومة وتحقيره وذلك بأن يعلو ظهره بعيره مزوداً بالسلاح للنهب والسلب .

ولعله قد يتبادر إلى ذهننا سؤال عن موقف الهبته من الناحية الدينية من حيث أنها نوع من السرقة ومجتمع البادية في السودان مجتمع يدين بالإسلام ومعروف بالطبع موقف الإسلام من السرقة . وللإجابة على هذا السؤال نقول أن العرف القبلي لا يعد الهبته سرقة أو حراماً . بل على العكس تماماً ، فهو يعتبرها إحدى سبل كسب العيش الحلال ، وينظر إليها كنوع من الفروسية ودليل على القوة والشجاعة ومعلوم أن المجتمع البدوي يقدس أعمال الفروسية . وفي الإطار العام فإن النهب والسلب هو إحدى القيم التي يقوم عليها المجتمع البدوي . ولكن هناك ضوابط على كل شيء في ذلك المجتمع حتى النهب والسلب والخروج على القانون .

وتبين الروايات نظرة أفراد ذلك المجتمع للهيبته - وفي ذلك يقول أحد الرواة من منطقة الكواهلة : « ما بنشوفه سرقة بنشوفه سمنة » (١) . وهناك من يعد نهب الأبل بعيداً عن السرقة ويرى أن نهب غيرها من أنواع الماشية وغيرها هو السرقة بعينها . وفي ذلك يقول طه الضرير : « لا دي مي سرقة (يعني الهبته) السرقة عندنا السخل (٢) والعتود (٣) والعنزر (٤) وعلقة النسوان . العلة يعني حنة

إلا أن هناك من الشراهد ما يدل على أن هناك فئة منهم قد سعت فعلاً إلى جمع كميات كبيرة من الأبل عن طريق الهبته . وشاهدنا على ذلك أن هناك جماعة يسمون « أولاد حليلات » هم اليوم من الرءاء بمكان حصلوا عليه عن طريق النهب - على حد قول الرواية - يقول الراوى وهو يتحدث عن أحدهم ويدعى « العطا ود حليلات » : « دي البلة (١) هو عندو مراحين إبل (٢) والبلة كان ود ولو كبرى ببينها (٣) بي فلسو ويقول في موضع آخر : « سراجي آي و كولو ما لهم هم سمنة سبعة كلهم ما لهم دأ عمتأوه بي السرقة » (٤) . ويقول أحد الرواة من الكواهلة وهو يتحدث عن أول عهده بالهبته : « أدليت أتبره نفسها أول قومته لى ، ومن أتبرة كسبت وجيت ميدلى فى الدندر و ستمتهن شجرة و شخاوب و سعينهن » (٥) . وهذا يدل على أن منهم من كان يقوم بضم الأبل المنهوبة إلى إبله ويقوم بزيئها . ولكن مع ذلك نقول بأن هذا لم يكن هو الهدف الأساسى وراء الهبته إذ أن معظم الهبته ، أو على الأصح كل الذين قابلناهم ممن مارسوا هذه المهنة لسنين عدة هم اليوم من الفقراء المعدمين ، ولم يبق لهم من ممارستهم الطويلة لمهنة الهبته إلا شتات الذكريات وجملة أشعار هي كل رصيدهم فى الحياة .

هكذا نرى إلى أى مدى كانت الهبته ترتبط بتقاليد القبيلة وقيمها . ومن هنا كانت الهبته ، وكان العمل بها يجلب للفرد شكر وثناء القبيلة بينما تجلب حياة القعود والتسكع اللوم والتحقير . ولذلك حرص كل فرد فى القبيلة على أن يكون موضع ثناء ومادة إشادة . ولعلنا نلاحظ ذلك بوضوح أكثر فى شعرهم الذى جاء حافلاً بالحديث عن شكر القبيلة للذى ينهب ويسلب ولومها للذى لا يفعل ذلك . ومن هذا قول أحدهم :

الولد البيدور فوق القبيلة بشكر
يخلف ساقو فوق بلد العدو و يشوكر
أما جاب رضوه البهم ال لهيجو مسكر

١ - البلة : ال الآن (٢) مراح : قطع

٢ - مراح : يعنى بشرها

٣ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١٨٩٦

٤ - سى ومنها السب ما يريه الانسان ويقوم عليه وتطلق على المواشى والبهائم

١ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١٩٠٣

٢ - سخل : ولد الشاة (٣) عتود : من أسماء أولاد المزر

٤ - عنز : أنثى المزر

ذهب ، سكك ... دا يقولوا سراق (١) . ويقول راو آخر من منطقة الكواهللة :
« ما بين المهجراوى والسراق فى فرق . أولا السراق بيرى بى هنى وبيرى بى هنى .
ويا كين المهجراوى دا مكرب جملو ، بندقينو ودرقتو وطاش بى الحلاء .
هذا وقد عبر شعر الهبائه أنفسهم عن هذه النظرة للهيمته وكأنهم بذلك يجيبون على السؤال
المطروح أو كأنهم قد طرحوا هذا السؤال على أنفسهم وأرادوا بذلك أن يدفعوا عن
أنفسهم هذه الصفة غير الحميدة . ومن ذلك قول أحد البطاحين :-

فوق الكرت شلقنا (٢)

وكدى لى بيلة عرفنا

جبنا حلال ما سرقنا

علينا شهودنا درقنا

ويقول أحد شعراء الشكرية :-

يوماً يا ولد بى السكوبيس ننجال (٣)

كعب فلس الصبى وسمح القعاد فوق مال

نروح الغرب نجيب بكاراة غفال

نجيب فوقهن مطارق أب سن وسمننا حلال

لم تكن القبيلة إذن بمنأى عما كان يحدث . بل كانت بتقاليدها وقيمها وعاداتها
دافعاً قوياً من دوافع الهيمته . وهى تنظر للشخص الهبائى نظرة اعجاب وتقدير وللمقصر
عن ذلك نظرة انكار وتحقير . وهى ترى فى الهيمته تقليداً يجب أن يراعى . والهيمته فى
نظرها أسلوب فى الحياة كفىل بتوفير المال حيث تشتد الحاجة ، عندما تشح السماء
وتمسك الأرض ثمرها داخل احشائها أو تصير غير قادرة على العطاء والهيمته فى
نظرها ليست سرقة يعير بها أو حراماً يخشى عقابه . بل هى حلال طيب ومجال واسع
لابراز صفات الفروسية والقوة والشجاعة . « والبدوى يحترم الفروسية والقوة حتى

١ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١/٣٥٠

٢ - التراث الشعبى لقبيلة البطاحين ١٤٨

٣ - من بحث عن الطيب ود ضحوية فى مسابقة السلمابى لعبد السلام سليمان .

فى مواقف الغزو واللب والنهب (١) . وقد ذكر ابن خلدون أن من صفات البدوى
احترامه لللب والتخريب وتقديس القوة بكل مظاهرها . وما دامت تقاليد القبيلة تبيح
مثل هذا النوع من النشاط وتحض عليه ، فقد أصبح لزماً على الفرد منها التصرف وفقاً
لذلك والاعداء خارجاً عليها ، لأن احترام تقاليد القبيلة ومراعاة قيمها ومجاراة عاداتها هو
من باب الالتزام المعنوى من الفرد تجاه القبيلة على نحو ما رأينا آنفاً .

المسألة :-

سوف نجعل الحديث عن دور المرأة فى نشأة الهيمته واستمرارها جانبين :-

(١) الجانب الأول هو مكانة المرأة فى المجتمع البدوى عموماً ، وفى المجتمع
السودانى البدوى على وجه الخصوص ، لئلا نرى مدى التأثير الذى تحدثه فى حياة أفراد
المجتمع من الرجال .

(٢) والجانب الثانى يتعلق بالمرأة فى مجتمع الهيمته والدور الذى تلعبه فى هذا
المجتمع وفى نشأة الظاهرة .

١ - المرأة فى المجتمع البدوى :-

جاء فى « علم الاجتماع البدوى » أن هناك من المكانات والأدوار فى المجتمع
البدوى ما يرتكز على الاختلاف البيولوجى بين الذكر والأنثى . حيث أنه لدى غالبية
المجتمعات البدوية يتمتع الرجل بمكانات السيادة والسلطة وما يستتبعها من الأدوار
الاشرافيه . بينما تختص المرأة بمكانات أقل وبالتالي بأدوار أقل أهمية من وجهة نظر
المجتمع البدوى كأعمال جمع الطعام والخطب وطحن الحبوب وأعداد وطهى الطعام
والنسيج وصنع الأواني والأدوات وأحياناً تقوم المرأة بأعمال الرعى كما هو الحال لدى
المجتمعات البدوية العربية - فضلاً عن أدائها لمهامها كزوجة وأم (٢) . أما الرجل فإنه
يختص بأعمال الغزو والقتال والثأر والتمثيل الخارجى سوى لدى الأسرات الأخرى أو
البطون والعشائر أو حتى القبائل .

ونحن نلاحظ أن التقسيم فى العمل لا يجعل للمرأة مكاناً فى الحياة السياسية وبالتالي

١ - علم الاجتماع البدوى ١٧٢

٢ - علم الاجتماع البدوى ٢٩٧ - ٢٩٨

فهي لا تلعب دوراً سياسياً واضحاً . ولكن رغم ذلك فإن للمرأة تأثير فعال في القرارات التي تتخذها القبيلة سواء كانت تلك القرارات سياسية ، أو قرارات ذات صبغة عسكرية . وفي البادية السودانية على وجه الخصوص هناك أنماط من مثل هذا التأثير الذي تمارسه المرأة في الحياة السياسية للقبائل . فهي تتوسط في كثير من الأحيان في توجيه سلوك الرجال لما لها من تأثير اجتماعي عظيم . ثم أن القرار السياسي الذي تتخذه مجموعة رجال القبيلة . قد يكون خاضعاً لرد فعل لدى نساء القبيلة نحوه . والمرأة قد تسبب في تكسير خطط الرجال السياسية وتجعلهم يرجعون عن أخطر القرارات بتأثيرها الاجتماعي ومن هذا الذي نقول ما يرويه أبان كنيسون Ian Cunnison من أن مجموعة من الحمر خرجت للصيد ولكنها ارتكبت خطأ تمثل في تخطيها للحدود المسموح بها في الصيد وقبض بوليس مركز التوبر على أفراد هذه المجموعة بهذه التهمة . وبدأ نقاش رؤى اكماه داخل معسكر الصيد حيث كانت تتواجد النساء . وهناك جلسوا جميعاً حيث قدم الشاي والطعام . وبعد النقاش وافق الرجال على الذهاب مع رجال الشرطة لاستجوابهم بواسطة مأمور المركز . ومن داخل المعسكر سمعت النساء تغير مجرى الحديث . وبينما كان يعملون رواحهم استعداداً للذهاب ، جاء رد الفعل من جانب النساء مدوياً مستنكرات عليهم هذا الخضوع المذل لجماعة هم بالنسبة لهم بمثابة العبيد . ونتيجة لهذا التحريض والاثارة انقلب رجال القبيلة على رجال السلطة فقتلوا منهم أربعة . وبعد وقت ليس بالطويل وصلت تعزيزات من رجال الشرطة حيث أخذ رجال القبيلة رهن الاعتقال وقد سلم جميع رجال القبيلة إلا واحداً منهم أثر القرار . ولم يقف الأمر عند ذلك الحد ، بل تبع ذلك أن قامت النساء بتأليف الأغاني التي تذكر هذا الموضوع وتحلده ، وقد تركزت تلك الأغاني حول شخصين : الرجل الذي قاد الجماعة وتحمل ما ترتب على ذلك من نتائج . وفي الجانب الآخر كانت السخرية من الرجل الذي فر من وجه القانون (١) هذه إحدى صور التأثير الاجتماعي للمرأة في المجتمع البدوي في السودان .

وهكذا نلاحظ أن وظيفة المرأة الاجتماعية في بادية السودان هي من الخطورة بمكان . والرجل في نظر المرأة هو القوى ، الشجاع والكريم . فإذا فقد إحدى هذه

١ - I, Cunnison, Baggra Arabs, Oxford 1966, P. 33

الصفات صار مادة دسمة للسخرية والتحقير . وسلاح المرأة في كل ذلك هو لسانها . وقد ذكر الدكتور عبد المجيد عابدين أن للنساء أثر واضح في غناء الشعر الشعبي في السودان . ومن صور ذلك غناء الحكامات اللاتي يقمن بغناء مدائح أو أهاج تلور غالباً حول الجمال والكرم والفروسية التي هي فضائل المدوح ، أو حول الجبن والبخل والعجز ، وهو أشد ما يستثير انتباههم من رذائل المذموم (١) . والمهم في الموضوع أنه كان لهذه الطبقة من النساء أثر عظيم في حياة الرجال فكانوا يتجنبون شرهن مهما كلفهم ذلك ، وإذا وقع أحدهم فريسة لهن فالحل الوحيد امامه ان يترح من بلده . ومن هنا كان الرجال مهما سميت مكانتهم في مجتمعهم فأنهم كانوا يشترطون صمت هؤلاء النساء وقد ذكر عبد المجيد عابدين أن لامبن Lampen ذكر أنه رأى ثلاثة من نظار القبائل يقدمون رشى باهظة الى حكامه منهن لأنها هدتهن بهجومهم (٢) .

ولعلنا هنا لا ننسى الدور الذي لعبته شاعرة المرغوماب في تسجيل الممارك بين المرغوماب والبطاحين . وما يروى عنها أنها في مرة ، أنحت باللائمة على ولدها حسين الذي استهوته حياة الدين والتكاسل ففقد عن نصرة قومه وذكرته بأنه لن يحظى بحب أية فتاة من قومه لأن الفتاة لا تحب الحامل المتخاذل واستحثته على النهوض الى القتال والنود عن عشيرته ولو أدى به الأمر أن يعود اليها من الحرب جثة هامدة وأشلأ ممزقة (٣) . ومن شعرها في هذا المعنى :-

يا حسين أنا أمك وأنت مالك ولدى
ودقك حمست جلدك خرش ما في
متين يا حسين أشوف لوحك معلق
لا حسين ركب الفى الشاية علق
بطنك كرش غى البنات ناسي (٤)
لاك مضروب بالسيف نكمد في
لا حين كتل ولا حين مفلق
قاعدلى الزكاة ولقط المحلقت

وازاء هذه الوظيفة للمرأة في المجتمع القبلي في البادية ، كان الرجل يسمى لتجنب الاتيان بما يجعله مادة للسخرية والهزاء ، ويحرص كل الحرص على أن يظهر أمام المرأة

١ - عبد المجيد عابدين ، تاريخ الثقافة العربية في السودان بيروت ١٩٦٧ م ص ١٨٩ .

٢ - نفس المصدر ١٩٠

٣ - عبد المجيد عابدين ، في الشعر السوداني ، بيروت ١٩٧٢ م ص ٣٧

٤ - تاريخ الثقافة العربية في السودان ١٩٦٧ م

بالنظر الذي تريد . وهكذا كانت المرأة هي العين الساهرة والحارس الذي لا يغفل ولا يغفل عن مراقبة تصرفات الرجل . وكان الرجل بدوره من الحذر بحيث لا يترك للمرأة نفرة تنفذ منها إليه .

(٢) المرأة في حياة الهبانية :-

يعتبر الهباني في مجتمع البطاحين الزوج المثالي (١) ، وقد أهله ذلك طبيعة العسل الذي يقوم به . فمهمة الهبنة في نظرهم معين لا ينضب ومورد رزق لا ينقطع . وتفسير ذلك أن الطبيعة في البادية سمتها التطرف - فالمطر - مثلاً - قد ينقطع لسنين عدة فيعجز الجفاف ، وقد يأتي فجأة فتنهجر السيول والثلوج لتشوه حتى وجه الصحراء القاحلة (٢) وانقطاع المطر يعني الجذب ، والجذب مضر بالماشية إذ يتعذر الكلاء . وإذا حدث ذلك ضاقت سبل المعيشة بالناس . والذي يكون عمله معتمداً على ظروف الطبيعة ذات الأهواء المتقلبة لا يؤمن على إعاشة زوجته وأولاده إذا تغيرت الظروف الطبيعية في سنة من السنين . ومن هنا كان الهباني الذي يعمل عملاً لا تؤثر فيه غضبة الطبيعة ، مسر الزوج المثالي الذي تكون زوجته وأولاده في مأمن من عوامل الطبيعة وتقاباتها .

كانت المرأة في حالة حضور دائم في حياة الهبانية وفي شعرهم . وما الصورة السابقة إلا إحدى صور حضورها في حياتهم وهي كانت سبب خروجهم من ديارهم وتعرضهم لمجير الصيف وزمهرير الشتاء . كانت هي دافعهم لاقتحام الخطر وركوب الصعاب . ثم كانت هي الظل الوريث الذي يأوون إليه بعد عودتهم من رحلة الهبنة فتسمح عنهم غبار السفر وتجوهم بحبها وعطفها . والمرأة حاضرة في حياة الهبانية فسي الصحراء أو في السهول أو في الغابات . فهي التي تنزل الطمأنينة والأمن وتثبت أقدامهم حين يلتف بهم الخطر ويحيط بهم القدر ويوشك الموت أن يسدل عليهم رداءه . وقد روى أن الطيب ود ضحوية كان يسير ورفيق له في غابة كثيفة الأشجار يستمعون إلى صوت قرص الإبل في الأشجار ويحاولون تحديد اتجاهها وفجأة يزار أسد فيمزق ستار الصمت حولهم : « وَبَعْدَيْنِ فِي أَثْنَاءِ مَشْيِهِمْ جُمَاهُنْ شَابِلَاتُ الْجَرَّةِ (٣) وَهُنَّ

١ - التراث الشعبي لتيبة البطاحين ١٩٨ .

٢ - علم الاجتماع البدوي ١٧٣ .

٣ - الجرء : ما يخرج البير من جوفه ليضفه مرة ثانية .

ما سكين لهم مناسبة كلام بي الراحة . بَعْدَيْنِ فِي أَسْدَ قَامَ قِدَامَ مِنْهُمْ سَمِعَ حَرْكَتَهُنَّ نَر . لما الأسد نثر الحمل كَفَسَمَن (١) الجرة وَهُنَّ سَكُوْنَ مِنَ الْمُنَاسِبَةِ إِنْ يَقُولُوا . . . بعدين في الوكت دا الطيب انتبه قال

الليل امسى والتعسان جَرَّابِدُو (٢) يَدَحْن (٣)
كَبَس (٤) ألهم على السلط (٥) قُلُوْبِهِمْ وَحَن (٦)
كَفَسَمَ الجرة سَحَارَ الْغُرُوبِ (٧) إِنْحَسَن (٨)
نَعُودَ سَلَمَانَةَ (٩) يَا عُمَرَ الْفَنُونُ إِنْ صَحَن (١٠) ، (١١) ،

والمرأة في حياة الهبانية نوعان : النوع الأول هي المرأة الغفيفة المصونة أو بنت القبيلة . أما النوع الثاني فهي المرأة العاهرة التي يغشاها الهبانية للترويح والسر وشرب الخمر . والتي تبهم الحنان وتجود عليهم بحسدها ، ونحن نعلم أن المجتمع العربي البدوي منذ عهده الأول كان يضم طبقتين من النساء : طبقة النساء العربيات وهن الأمهات والزوجات والبنات . وأما الطبقة الثانية فهي طبقة العاهرات التي تتألف عادة من الأماء أو من أعتق منهن (١٢) . وقد سبق لنا أن ذكرنا أن المجتمع البدوي في السودان هو صورة من المجتمع البدوي في جزيرة العرب التي وفدوا منها . هذا وقد كان لكل طبقة من الطبقتين الآنف ذكرهما من النساء دورها في دفع الرجال لإمتنان الهبنة . وقد تغنى الهبانية في شعرهم بكل طبقة منهما . يقول الطيب ود ضحوية :-

- ١ - كفسم : كترم : ضم فاء وسكت .
- ٢ - جرابيد : جمع جريده وهي الساعد . وتوصف ساق الإبل الامامية بالجريدة
- ٣ - دح : ضرب الأرض
- ٤ - كبس : زحم وملأ
- ٥ - سلط جمع سالت وهو الشديد
- ٦ - وح : صوت واضطرب .
- ٧ - سحار الغروب : جبله ويبدو انه أتى من الغرب .
- ٨ - قمن : أصبح ساهما شارد البال كانه في محنة
- ٩ - سلمانه : إحدى التواني

(١٠) صح : تحقق

١١ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١٩٠٨

١٢ - الشراء الصماليك ١٠٨ .

كم شديت على نسا يسوك (١) النساب (٢)
وكم جايب (٣) زميل (٤) من الرهد (٥) كساب (٦)
حديث الناس كتير ما عندي ليهو حساب
انقطع اللسان يا فاطمة (٧) أبو كى إن عاب

وتحدث الروايات عن المرأة كسب أساسى ودافع رئيسى وقوى لاشتغال الناس
بالمهبة . فمن قبيلة حمر يقول أحد الرواة : « بس عندنا فى الزمن النساب
النواحد وكت يجب حاجة . وكت - يجب مال القبيلة البعيدة يعنى البنات
يشكروا كتير . على حسب الشكر مش على حسب الفلوس أبداً » (٨)
ويروى آخر من نفس القبيلة أنه كان يهوى إحدى الفتيات ويرغب فى الزواج منها ولكن
والده رفض أن يبيع البقر ليزوجه منها وقال له إذا أردت أن تتزوج من هذه الفتاة فان
عليك أن تفرج لكب مالا . فعلاً حدث ذلك . ويقول : « دأ ال بخلينا تقسوم
نقوك أليل نجيب المال دبك . بعدتين جيت المال نحمد الله وأزوجهنا » (٩)
فالمهباتى لا يحرك رجلاً ولا يخطو خطوة إلا كانت المرأة عالقة بذهنه . وهو يظل يذكرها
حتى إذا أفلح عن المهبة . وما أن يتذكرها ويتذكر لحظات المتعة معها حتى يعصره
الحنين ويغلبه الشوق فيعتلى ظهر بعيره من جديد :-

عكسنا ظربنا يا المشوع ليالى لعيننا
وسينا سروجنا فوق النيب بعد ما شينا
قلت نومي فوسية القيرير اللينسية
كم لى رضاها بى درب الدراهيم غينا

١ - يسوك : من ساك نايه اذا صوت وكرز

٢ - الناب : السن خلف الرباعية ويقولون نايب

٣ - جايب : من جاب : احضر .

٤ - زميل : جمع زامله وهى الدابة يحمل عليها ومعنى هذا مجموعة الابل . (٥) الرهد : يعنى منطقة
نهر الرهد .

٦ - كساب : من كسب وهى فى قاموس المهباته أخذ المال بالقوة .

٧ - فاضة : فاضة وهى بنت وهى موجودة الآن بمنطقة الشقالوه بشدى

٨ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١٨٩٦ .

٩ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١٨٩٤ .

ومن ذلك قول الآخر :-

ولع (١) الكندوس (٢) تمنبنا (٣) يا عباس (٤)
عقيد (٥) النة قرن (٦) لا مين نهارن دانس
هتكننا العمير (٧) إلا رب العباد خلائس
ما بترضى أم رشوم (٨) جيبة الشروج بباس (٩)

أما الطبقة الثانية من النساء فقد كان للمهباته معهن صولات وجولات . وكانوا
لا يغمضون إلا وسرعان ما يعودون اليهن وقد بلغ بهم الشوق مداه . يقول أحد المهباته
من قبيلة الكواهلة عن سبب إشتغالهم بالمهبة : « سمنة (١٠) بس - ولى البنات ولى
المجالس » . ويقول فى موضع آخر عن أوجه صرفهم : « نيتونس مع
البنات (١١) ، الفرخة (١٢) ألتسحة كُلتها نحن راقدين معاه (١٣) . ويقول
أحدهم من منطقة حمر : « فى خصوص المجالس وفى خصوص الشرايات وفى
خصوص دخول بيوت النسوان ال من فانتحات بارات و هكذا » (١٤) . إذن فقد
كانت الحمر والنساء تشكل دافعاً قوياً من دوافع المهبة . أما شعر المهباته فقد جاء حافلاً
بذكر المرأة وصورها كدافع أساسى لمثل هذا النوع من السلوك . وكان سفر المهباتى

١ - ولع النار : أشعلها

٢ - الكندوس : الغليون

٣ - تمبكه : من التباك

٤ - عباس : أحد رفاقه

٥ - عقيد : قائد

٦ - نوقر : شرد وأبعد

٧ - العمير : تصغير عمر

٨ - رشوم : جمع رشم وهى سلسلة دقيقة من الذهب يقلد أحد طرفيها بالزمام والطرف الآخر يشد على
شعر الرأس أمام الأذن

٩ - بباس : خاليات .

١٠ - سمنة : الوقفة الكريمه والشرف والسماح .

١١ - نونس : تبادل الحديث مع

١٢ - الفرخة : الأمه .

١٣ - الارشيف سريط رقم م/د/أ/١٩٠٣

١٤ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١٨٩٩ .

المواصل من أجل كسب رضاها :-
 واحذات في البيوت ديمة (١) عميرات (٢) دُخَانِهِنَّ (٣)
 طالت شدة المغبون (٤) دَوَامُ فُوقِ شَأْنِهِنَّ (٥)
 انْعَقَدُوا (٦) الصناديد (٧) أخواني أَلْ بَعْرِفُوا بِكَانِهِنَّ (٨)
 جَابُوهُنَّ مَرَايَا (٩) وَلَا مَزَلَقَات (١٠) حيرانِهِنَّ (١١)

وهم في سبيل إرضاء المرأة يبذلون كل مرتخص وخال ويستهيئون بالموت ويزدرونه
 وهو عندهم البديل المقبول لعدم جلب ما يرضى المرأة :-

الولد البذور في فَمَاهُ مَا يَشْتَفِ
 أَلْ بِحَجِيمِ قُبْجَةِ اللُّشَقِ الطَّوِيلِ وَ مَقْتَفِ
 أما يجيب رَضَى السَّمَانَةِ مَا يَتَخَسَفِ
 وَلَا أَم رَوِيَّة لَا حَوْلِينَ تَكُونُفَتْو مَعْتَفِ

ومن أجل إرضاء المرأة وكسب ودّها كان الهباته يستعذبون كل مر ويتحملون
 كل صعب ، ويقدمون كل نضحية وفداء . فإذا ما رمت بهم الأقدار في السجن استعانوا
 بالصبر عليه بذكرهم :-

الْقَيْدَ وَالْحَبْسَ قَطُّ لِي الْقَلْبِ مَا يَبُودَرُ
 أَطَرَى اللَّيْسَةَ يَا طَه الضَّرِيرَ لَا تُسَوِّرُ

من كل هذا يتضح أن المرأة كانت عاملا فعلا في نشأة الهبته واستمرارها ،

١ - ديمة : دائما

٢ - عميرات من حمر : احمر لونه .

٣ - الدخان : من تدخن المرأة إذا جمعت الدخان بعلوها . وهي عادة ان تدخن المرأة ببيدات زكية .

٤ - المغبون : من الغيبة وهي الشعور بالمرارة

٥ - شانهن : شأنهن

٦ - انْعَقَدُوا : تكاتفوا

٧ - الصناديد : جمع صنديد وهو الشجاع

٨ - بكان : مكان

٩ - مَرَايَا : جمع مري وهي الناقة التي تدر اللبن بعد اندماد

١٠ - مَزَلَقَات : من زلقت المرأة الجنين إذا أسقطته .

١١ - حيران : جمع حوار وهو ولد الناقة قبل أن يفصل .

ودافعا قويا للانحراف فيها . فالمرأة في الحى تحت الرجل على الخروج وحين يغيب
 تنتظر اوبته لتفرح به وتقول الشعر في مدحه احتفالا وتكريما . فقد كانت النساء يؤلفن
 الأغاني في مدح الهباته على نحو ما رأينا في الفصل الأول من الباب الأول من هذا
 البحث . والطبقة الثانية من النساء هي الأخرى تنتظر الهباتى لتفضية الوقت في المسرح
 والطرب ، في احتساء الخمر ، وفي ممارسة الجنس . وفي مقابل ذلك يغدق عليها من
 عائد رحلته - وهو فوق ذلك سيد الموقف والمسيطر على دائرة الطرب . وهذه مسألة
 نفسية ، أى تأكيد السيادة والذاتية واحتلال زمام الأمر في مجلس المرأة . وكثيرا ما
 يتكرر هذا الموقف بالنسبة للرجل السوداني وسيظل .

وبما يروى في مثل هذه الحالات أن الطيب ود ضحويه (١) عاد غائما من رحلة
 له وحط رحله في منزل احدى صديقاته . وانتظم المجلس في الشرب ودارت الخمر
 بالرؤوس . وهنا طلب الطيب من صديقه أن تكدل الصورة بالرقص . فاستجابت له
 المرأة . وساد الطرب الدار ومن فيها . وبينما المرأة تؤدي رقصها والجميع في انشاء
 وجور ، اذا بالغانية تتوقف فجأة عن الرقص وفي عينها ذهول مخيف . ولما رأى
 منها ذلك جذبها اليه واطل من الباب ليرى حقيقة ما أثار الرعب في نفسها . رأى الطيب
 جماعة من المسلحين تنوى اقتحام المكان ، وكانوا هم اصحاب الابل التي كان الطيب
 قد نهبا وهيا بشمنها جلسة الطرب التي هم فيها . لم يحرك المشهد شعرة في رأس الطيب
 ولم يبد له اهتماما بل التفت الى صديقه وطلب منها أن تواصل الرقص ولا تهتم لمشل
 هؤلاء الضعاف فهو كفيل بالقضاء عليهم ان أقبلوا يريدونه بسوء :

زَوَزَى (٢) وَ تَسْفِي (٣) أَلْ فُوقِ الْمُتَاقِيلِ (٤) نَدَّة (٥)

وَمَا يَعْجَبُكَ فَرَزَع (٦) نَاسًا كُتَالَهُمْ (٧) هَدَّة (٨)

١ - الارشيف شريط رقم م/١/١/١٩٠٨ .

٢ - زوزى : سار في تحبب .

٣ - نسفت المرأة كفلها : غربك .

٤ - متاقيل : جمع متقال وهو ضرب من الخيل الذهبية .

٥ - ندى : من الندى

٦ - الفرزاع : التصرف وطلب اللص الغاصب .

٧ - كتالهم : قتالهم .

٨ - هد : هدد دون الضرب

تَعْرِضِي نَبَاتًا (١) إِنْ لَحِقَ الضَّرَاعُ (٢) إِنْ سَدَّ (٣)
نَمَى الرَّقِصَةُ عَقْبَانُ (٤) أَلَسَّاءُ أَلْ يَنْهَسْدَةُ (٥)

لفت ذلك إنباه كل من في الدار فراحوا يستطلعون الأمر . ولما أدركوا حقيقة ما يجري خارج الدار إرتبكوا جميعاً وساد الإضطراب مجلسهم وراحوا ينظرون إلى بعضهم البعض في هلع وخوف شديدين . وظل الطيب ثابت الجنان مليئاً بالثقة ، وأراد تطمين خوف الجماعة وتوئيد شأن أصحاب الإبل الذين جاءوا يقتفون أثر أبلهم وهم يحتفزون للانقضاء . فأنشأ الطيب يقول :-

دَيْكَةُ (٦) حِلَّةُ (٧) مِنَ الطَّلَمَةِ مَا بِحَوْشُونَا (٨)
يَا بَيْتَ غُثَى يَا نَاسَ رُوقُوا (٩) لَا تَدَاوْشُونَا (١٠)
حَرَمْتَ الْحَلَالَ أَلَيْلَةً كَانَ يَغْشُونَا (١١)
حَيْسُ (١٢) أَلْ فِي الْحُرَابِ (١٣) مَسَعَ (١٤) يَعْطِيطُ (١٥) فِي الشُّونَا (١٦)

الفقر :-
رغم أن صورة الفقر غير واضحة وضوحاً جليلاً - في مسألة المهمبة كما هو الحال بالنسبة -

- ١ - نباتا : نباتا
- ٢ - الضراع : الذراع
- ٣ - آمد : من مد أى بسط
- ٤ - عقبان : عقب ذلك..
- ٥ - أنهد : من هد البناء إذا هدته وضعفه
- ٦ - ديكه : جمع ديك وهو ذكر الدجاج
- ٧ - حله : قريه
- ٨ - حاش : اعترض طريقه ليقيضه وهو جاد
- ٩ - روقوا : من راق بمعنى صفا
- ١٠ - تداوشونا : من التوش وهو الازعاج
- ١١ - غشا : غشى فلان أنه
- ١٢ - حيس : صوت
- ١٣ - وعاء من الجلد
- ١٤ - مسع : الآن
- ١٥ - عايط : صاح ونادى
- ١٦ - الشونا : مكان بيه

للمملكة العربية ، إلا أنه كان يشكل أحد دوافع المهمبة . فمن هؤلاء من دفعه الفقر دفعا لأن تمتد يده إلى ابل غيره بقوة السلاح . وفي هذا المجال يقول أحد المهمبات من منطقة الكواهلة وهو يتحدث عن سبب اشتغال الناس بالمهمبة : يَنْهَسُوا لِي الصَّرْمَةِ (١) وَيَنْهَسُوا لِي السَّوَالِفِ سَوَالِفِ الشُّكْرِ . وفي الحديث عن كيفية صرف ما تحصلون عليه من أموال نتيجة للنهب والسلب ، يقول : « يَا كَلُومِينَ أَوْلَادُهُمْ وَيَسْقُومُهُمْ » (٢) . فهذا النوع من الناس دفعته الفاقة وضيق ذات اليد دفعا إلى امتنان المهمبة . وعموما نستطيع أن نقرر بأن صورة الفقر كدافع من دوافع المهمبة تظهر بوضوح أكثر في وقتنا الحاضر هذا منه في الزمن السالف . فالكثير من المهمبات اليوم وخاصة في منطقة حمر ، يتحدثون عن الفقر واشتداد الحاجة كدافع وسبب رئيسي من أسباب امتنانهم للمهمبة وسعيهم الدائب وراء الإبل .

يقول أحد هؤلاء عن سبب نهب الإبل : « والله في ناس إحتياج »
ويقول مهمباتي آخر من قبيلة حمر : « في زول يَعْنى أَصْلُو أَصْلُو دَقِيقِ الْوَيْكَةِ » (٣)
في يَيْتُو مافي ، والناس المَال راقِد في شَقَّتْ بِي جَائِي وَيِي جَائِي (٤) . بَعْدِيَسَنَ الْيَوْمَ دَا أَوْلَادُكَ جِيْعَانِينَ (٥) لَا بَدَّ مِنْ تَرُوح تَسْرِق تَعْشِبُهُمْ . ويقول في موضع آخر : « » وفي نَاس دِيْل فَقْرَانِينَ (٦) عَدِيلُ الله أَكْبَرُ ، بَعْدِيَسَنَ تَرُوح لِي التَّاجِرِ تَقُول لِي دِيْنِي نَص رَطْلُ سَكْرَ مَا بِيْدُكَ نَص مَلُوءَ عَيْشَ مَا بِيْدُكَ ، وَالْمَال بَارِيكَ غَرِبَ صَبَاحُ (٧) ، وَغَبَالُكَ (٨) جِيْعَانِينَ جَدًّا ، (٩) .
فهذه الروايات تدل دلالة قاطعة على أن بعض الناس قد دفعهم ضيق العيش دفعا إلى أن يسلكوا هذه الطريقة في الحياة التي تقوم على نهب وسلب الإبل .

- ١ - صرمة : حاجه
- ٢ - الارشيف شريط رقم م/د/١/١٩٠٥ .
- ٣ - الويك : الباية والباية الناشف
- ٤ - بي جاي وبي جاي : من. كل النواصي
- ٥ - جيعانين : جوعى
- ٦ - فقرانين : فقراء
- ٧ - صباح : شرق
- ٨ - غبال : أبناء
- ٩ - الارشيف شريط رقم م/د/١/١٨٩٧ .

أن الهمة بهذه الصورة تعتبر صراعاً بين الغنى والفقير . وذلك ما تمليه طبيعة الاقتصاد البدوى الذى يفترق توزيع الثروة فيه إلى التوازن . ويتضح عن ذلك وجود فقر مدقع وإلى جانبه غنى فاحش . وفى حقيقة الأمر ، المجتمع البدوى من ناحية اقتصادية بسيط التكوين ، فهو يتكون من طبقتين إقتصاديتين أساسيتين : طبقة أصحاب الإبل أو أرباب المخاض كما يسميهم بعض الشعراء ، وطبقة الصعاليك ، وكان البعد الإقتصادى بينهما بعيداً ، (١) . أن هذا الذى يقال عن ظاهرة الصعلكة العربية ينطبق على ظاهرة الهمة فى المجتمع البدوى فى السودان ، ففي البادية الرعوية فى السودان يمتلك بعض الناس عدة قطعان من الإبل والغنم والمغز ، بينما لا يجد آخرون غيراً يرتحلون عليه ويحملون عليه متاعهم . ومن هنا يتحتم عليهم أن يستعملوا قوتهم لفرض نوع من التوازن فى الحياة الإقتصادية لمجتمعهم - فالهمة إذن هى صورة من صور الصراع الإقتصادى فى البادية بين من يملك وهو ضنين وبين من لا يملك وهو معسّم حزين . ولكن هذا الحزن سرعان ما ينفجر غصاً ويأخذ صورته الإيجابية فى اللجوء إلى استعمال القوة لرد الظلم الواقع على الفقير والمحروم .

الهمة الشخصية :-

كان بعض الهباته ينهب ليشع حاجته إلى اللهو فى مجالس الشرب والنساء . والنسب لا تتوفر له فى حياة مجتمعه العادية :-

آح (٢) واغلى (٣) من زولا جمالو ملوكى (٤)
والحاس (٥) بيهو من تالاك (٦) يضوقوا عدوكى
أمن برضى بى الذلة وأتركوا لوكى (٧)
وأمن نطلع القلعة وجبال السوكى (٨)

١ - الشعراء الصعاليك ١٢٢ .

٢ - آح وأح : لفظة تشمل عند الأم .

٣ - الغلب : المزيمة .

٤ - ملوكى : نسبة إلى الملوك أى كجمال أهل الملك .

٥ - الحاس : من أحس بالشئ إذا شرب به والحاس : الذى أحس به

٦ - من تالاك : من ناحيتك

٧ - لوكى : لوك أو اللهو معك .

٨ - القلعة وجبال السوكى : أماكن بين نهري الدندر والرهده ومنطقة القضاة .

فهو هنا بين أمرين أما أن يترك حياة اللهو مع صديقته هذه التى كم هى جميلة كجمال الملوك ، وأما أن يغزو القلعة وجبال السوكى . ولقد كانت حياة اللهو والمجون هذه تسيطر على جميع الهباته ، ولكنها كانت أوضح فى بعضهم أكثر من الآخرين . ومن هؤلاء من كان من بيوت ضالعة فى الثراء يمكن أن توفر له العيش الهادى . ولكن الرغبة فى الحياة اللاهية تملأ نفس الفرد منهم وتدفعه دفعا لنهب أموال الناس .

ولعل أصدق مثال لهذا القول ولهذا النوع من الهباته شخصية الطيب ود ضحوبة . فكل الروايات عن حياته تجمع على أنه ينتمى إلى أسرة تملك أعداداً كبيرة من الماشية بكل أنواعها : الإبل والغنم والمغز والحيل والحمير . ثم أن الطيب كان أكبر أخوانه ، فكانت الفرصة أمامه واسعة للتمتع بأموال والده فى حدود ما يكفل له الحياة المستقرة ويوفر له متطلبات العيش . هذا وقد وصل الأمر بوالده أن عرض عليه نصف ماله نظير استقامته وإقلاعه عن هذا النوع من السلوك . ولكن الطيب لم يكن يعبر كل ذلك أذناً صاغية فظل منغمساً فى حياة النهب والسلب وما توفره من أساليب اللهو . وحتى فنى المرات التى إستجاب فيها لنداء والده بالبقاء فى داره ، كان كل مرة يضيق بحياة القعود وسرعان ما يعود إلى ما كان فيه :-

قعداً فى البيوت يا الرايقة (١) من دون صالح
بسمع يا على العاقيل يقول موق صالح (٢)
لو كان مساعديني الزمن مومجاليح (٣)
كم وديت (٤) رزمة (٥) لى الساكنين بلود المالح (٦)

تحدث الروايات عن ثراء والد الطيب ، كما تحدثت عن محاولاته التى لا تقف عند حد لاثناء الطيب عن هذا السلوك .

١ - الرايقة : من راق بمعنى صفا ويقولون بنت رائقه أى هادئة ورزينة .

٢ - صالح : الناجح الذكى .

٣ - مجاليح : ممالك .

٤ - ودى الشئ : ذهب به

٥ - رزمة : من رزم الشئ : جمعه وشده .

٦ - بلود المالح : جمع بلد . والمالح البحر الأحمر يسمونه بحر المالح للوحة مياهه .

تقول إحدى الروايات :-

« وأبوهم ثرى ، بملك من الليل خمسين ناقة يتكبد ، و يمكن أبوهو بملك
شحية (١) ضان يتكبد ، كثيرة يعنى ، و يمكن أبوهو بملك من الخيل عشرة
جداً من إنثابة لا ضكر ، دا عالم الله ما فيه اثنتين ثلاثة ، وعندو مسن
الرقبت ثمانية نسعة (٢) وكان والده بالإضافة إلى ذلك لا يدخر وسماً في محاولات
حملة على مراجعة موقفه وترك ما هو فيه . ولم تكن . محاولات والده في هذا الشأن تقف
عند حد . بل أنه كان يلاحقه أينما ذهب ويعيده إلى الديار . تقول إحدى الروايات عن
ذلك : « وعمل ما يسافر معاهم (يعنى الهباته) أبوهو حسب ما عندو هو فريد يتلحق
يجبوا منهم صاّد ولا غاية ما قال لو الرزق القدامى دا إنت شريك فيهو النص
بعدين الطيب لا زال طريقتهو ال ما سيكتها ما ش فيها ما خلّاهها (٣) . رغم الإلحاح
من والده ورغم صنوف الاغراء ، كان الطيب يفضل ذلك النوع من الحياة القائم على
المغامرة والنهب واللب الذى يعقبه اللهو في مجالس الخمر مع الإماء أو « ستات المجالس
كما يسموهن ، في يوتن التي أعددها خصوصاً لاستقبال هواة الخمر والجنس .

حب المغامرة :-

إذا كانت الهمة في جانب المتعة الشخصية وسيلة لاشباع هواية ، فإنها في هذه
الحالة هواية في حد ذاتها يعمل الفرد لاشباعها - وقد تمكن حب المغامرة هذا فسى
نفوس الكثيرين وكان إشتغالهم بالهمة من أجل ذلك . ولعلنا نجد لذلك تفسيراً عاماً ، في
حياة البدوى نفسه ، وحياة القبائل الرعوية السودانية . فالبدوى كان بطبعه ميالاً إلى أعمال
الفروسية والغزو . وقد ذكرنا آنفاً أننا نرى أن الهمة كانت بصورة ما بديلاً لما كان
يحدث بين القبائل من غزو بغرض النهب واللب . ففي البادية لاحظنا وجود ظاهرة
الغزو بين القبائل بغرض تحقيق كسب اقتصادى - وتمثلت هذه الظاهرة في « القيمان »
و « النهيض » . فقد كان أفراد القبيلة بشر كون في هذا الغزو بصورة منظمة . ولما
انقرض هذا ، كان لابد للعربى الذى يتمتع بالفروسية وبقدمها أن يجد لنفسه منفذاً

١ - شبه : شاة .

٢ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١٩٠٧

٣ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١٩٠٧

جديداً . وذلك لأن الطاقة التي كانت تستهلك في تلك الغارات ما زالت موجودة ولا بد
لها من وسيلة تفريغ ، فكانت الهمة مجالا طيباً لاستهلاك هذه الطاقة وتفريغها . ولكن
الهمة أخذت صورة الفردية بينما كان النشاط القديم يأخذ صورة الجماعية .

تعويض المال المنهوب :-

هذا من الأسباب الخاصة . إذ أن الفرد هنا لا يمتن الهمة إلا بعد أن يكون قد
ضرب في ماله مرات ومرات . فمن الناس من كان يملك أعداداً كبيرة من الماشية .
ولكنها تمرضت لعمليات نهب وسلب متكررة ومتتالية . ونحت الضغط النفسى من جراء
فقدان هذه الثروة ، يلجأ الشخص إلى نفس الأسلوب إنتقاماً وتعويضاً . يقول راو من
قبيلة حمر : « وفي بعض ناس يعنى الواحد يكون عندو بهائم و بهائم دي
يقوموا يسرقوهن مينو أنحرامية ما يين . و تانى يسوقوا مينو بهائم ما يين
و تانى يسوقوا مينو بهائم . يزهج على كدا يقول أنى ذاتى أسرق لأ كاني
بهائم دي . . . ويقول في موضع آخر :- في ناس واحد ين بعتي قصتهم عرقهم
مال سرقوهوا منهم كتير جداً (١) . لاشك أن الدافع هنا واضح . فهذا النوع
من الناس دفعته ظروف نهب ما كان عنده من الإبل إلى الإشتغال بالهمة إنتقاماً
وتعويضاً .

الخلاصة :-

نخلص من كل هذا إلى أن للهمة دوافع عديدة وأسباب مختلفة . وهذه الدوافع
والأسباب إما أن تكون اقتصادية أو اجتماعية وإما دوافع خاصة . فالدوافع الاقتصادية
ترجع إلى عدم التوازن في توزيع الثروة في المجتمع البدوى ، الأمر الذى أدى إلى
بروز طبقتين اقتصاديتين على طرفي نقيض . طبقة اصحاب الإبل ، وطبقة المعدومين
الذين كان بعض الهباته منهم . وفي الجانب الاجتماعى كانت التميّلة بقيمتها وتقاليدها
وعاداتها أحد العوامل التي عملت على نشأة مثل هذه الظاهرة واستمرارها ثم أن طبيعة
المجتمع البدوى نفسه تقدس أعمال الفروسية ، وتشجع النهب واللب . ولذلك لم يكن
من الغريب أن تنشأ في مجتمع هذه طبيعته مثل هذه الظاهرة التي تعتبر صورة من صور

١ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١٨٩٧

القروية وتقوم في جوهرها على الغزو والاغارة من أجل النهب والسلب. ومن الناحية الأخرى كانت المرأة في المجتمع البدوي تتمتع بوظيفة اجتماعية وبحكم هذه الوظيفة كان لها أثرها العظيم في توجيه سلوك الرجال واملأه المواقف عليهم تبعاً لرد الفعل الذي يصدر منها تجاه كل فعل يقومون به أو قرار يتخذونه. أما الأسباب الخاصة فهي تتمثل في ميل البعض وهوايتهم لحياة اللهو والمجون التي يوفرها لهم مثل هذا العمل. ثم أنها تتمثل في ميل الفرد الشخصي إلى المغامرة وأعمال القروسية. وهذا يتوفر عن طريق النهب والسلب هذه. ولهذا كانت الهمة بالنسبة لبعضهم بمثابة هواية في حد ذاتها. وأخيراً فإن هناك من مارس هذا النوع من النشاط انتقاماً وتعويضاً لثروة ضاعت. وتكافئت كل هذه العوامل والدافع لتعطيل هذه الطريقة في الحياة التي تقوم على نهب وسلب الأبل. والتي عرفت بالهمة.

نظم الهمة وقواعدها قيمها

(١) النظم
تقوم الهمة على نظم معينة تشمل كيفية الدخول في مجتمعها والصورة التي يتكون بها هذا المجتمع، ثم أسس التعاون وصوره في هذا المجتمع.

١ - مجتمع الهمة :-

إن مجتمع الهمة بسيط في تكوينه الاجتماعي حيث أنه يتكون من فئتين أساسيتين الفئة الأولى هي فئة الهمة الذين يقومون بعملية النهب والسلب. أما الفئة الثانية فهي فئة « العملاء ». ويتلخص عمل الفئة الثانية ومهمتها في القيام ببيع الأبل المنهوبة ومساعدة المحتاجين من الهمة لمواصلة سفرهم، وذلك عن طريق تقديم القروض لهم بنية إعادتها منهم بعد عودتهم من رحلة النهب.

كيفية الدخول في مجتمع الهمة :-

ليست هناك شروط موضوعية تنظم الدخول إلى عالم الهمة، بل إن كل من توفرت لديه الرغبة وتجمعت لديه الأسباب وتوفر لديه الاستعداد النفسي والجسماني يمكنه أن يلجأ إلى مجتمع الهمة. ولكن بعد الدخول فإن لهذا المجتمع ضوابط تنظم العلاقة بين أفراده وقواعد تحكم العمل نفسه وتعرفه. وقد رأينا في حديثنا عن دوافع الهمة. أن هناك بعض القبائل التي لا تعترف بفردها منها بلسوخ قسر الرجس إلا إذا أقدم على نهب الأبل. ومن هنا. ومن واقع ما رواه بعض الهمة يمكن القول أن السن التي يدخل فيها الإنسان هذا المجتمع لا تسبق سن البلوغ. فقد ذكر طه الغرير أنه بدأ ممارسة الهمة منذ أن بلغ السابعة عشر من عمره. يقول: « والله من كَوْن عُسْرِي سَبَقَ طَاشِرْ طَمَنَطَاشِرْ (١) مِنْ بُلُوغِي دَخَلْتُ فِيهَا (٢) ». وهذا لا يعني أن من لم يبدأ ممارسة الهمة منذ بلسوخ سن الرشد. يكون قد فاتته قطارها. فهناك من بدأها وعمره قد جاوز الثلاثين. يقول أحد الهمة من منطقة الكواهلة. عن عمره حين بدأ

١ - سبطاشر طمنطاشر: يعني سبعة عشر وثمانية عشر.

٢ - الأرشيف شريط رقم م/د/١/٢٠٠

يعمل في المهنة : « عُمَرَى خَمْسَةَ وَثَلَاثِينَ سَنَةً » (١) . ولكننا نستطيع أن نقول
عموماً أن سن الدخول إلى عالم المهنة هي سن البلوغ وما بعدها . أما سن التقاعد عن
هذا العمل فهي ليست محددة بأي صورة من الصور - لأن هناك ظروف المرض والعجز
وتقدم العمر . ولكننا نقول بأن متوسط العمل في المهنة يصل إلى الثلاثين عاماً .

يقول طه الضريبر إن الشخص بعد أن يعزم أن يحذو حذو أبيه أو جده ، فإنه يتبع
ذلك بالتدريب على استعمال السلاح « يقوم يدرب نفسه سيف ودرقه وكان
سلاحاً كان ممنوعاً » (٢) . وسلاحهم يتكون من السيف والدرقة وبعض الأسلحة
النارية . وقد تحدث المهباته في شعرهم عن نوع السلاح الذي يتزودون به في مغامراتهم :
بَعْدَ أَبِ جِقْرَةٍ (٣) وَالْهَارِي (٤) أَلْ بِيَاكُلُ الْهَمَائِمَةَ (٥)

حَقَّقْنَاهَا يَا أَخُو الْعَبُوسِ (٦) مَيَّ (٧) دَائِمَةً
حَكُومَةُ الْتَوَادِ مَنَعَتْ عَلَيْنَا السَّائِمَةَ (٨)
كَسَمَ لَهِ هَاجِمِينَ وَالْخَلَائِقَ (٩) نَائِمَةً

فهو يذكر من تلك الأسلحة « أب جقرة » وهو ضرب من السلاح الناري القديم .
ويذكر « الهاري » وهو كتابة عن السيف ، و « الصائمة » وهي الدرقة . وهناك صورة
أخرى من صور التدريب على العمل . تتمثل هذه الصورة في خروج الواحد منهم مع
شخص متمرس في هذا العمل ليكتسب منه الخبرة وأساليب السلب والنهب ، وكيفيته
التصرف إزاء كل احتمالات الموقف . وبعد أن يتعلم أصول العمل وطرقه ، يمكنه أن
يستمر مع الشخص الذي تدرب معه أو الانصراف إلى مجموعة أخرى ، أي أنه ليس

- ١ - الأرشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠١
- ٢ - ، ، ، ، م/د/أ/أ/٢٥٠
- ٣ - أب جقرة : ضرب من السلاح الناري القديم .
- ٤ - الهاري : كتابة عن السيف .
- ٥ - الصائمة : كتابة عن الدرقة .
- ٦ - العبوس : الدنيا
- ٧ - مَيَّ : ليت
- ٨ - السائمة : كل ما يسام من حيوان . وسام الشيء : عرضه للبيع .
- ٩ - الخلائق : ويقولون الخلق : الناس .

ملزماً بالاستمرار مع من قام بتدريبه وتأهيله لهذا الضرب من العمل . يقول أحد المهباته
من منطقة الكواهلة عن أول عهده بالمهنة : « أول بيرنجية مَعَايَ مُحَمَّدٍ وَدَّ آدَمَ
عَلَسْنِي هُوَ بَسُوقَ مَعَاهُو وَ يَحْرُ . والخروج مع شخص متمرس ، ليت ، في
الواقع ، قاعدة يتبعها كل من أراد العمل في هذا المجال . فبعضهم كان يخرج دون
الحاجة إلى شخص عارف . زاده في ذلك ما سمعه من الذين سبقوه في هذا المجال من
جبه . يقول طه الضريبر : « أول قَوْمَةٍ كَانَ مَعَايَ وَلَدَ يَقُولُوا لَوْ رَحِمَهُ اللَّهُ وَدَّ عَلَى
وَدَّ جَرِير . والاثنين ما كُنَّا بِنَعْرِفَ شَيْءَ إِلَّا أَنَا بَدَّ عَيَّ مِلَاهُو » (٢) .

كيف يسرون ؟ :-

إن رحلة المهباتي المحفوفة بالمخاطر . تحتاج إلى رفيق . يخفف وحشة الطريق
ويقاسم الصعوبات وقسوة الظروف أحياناً . ويعاون في تخليص الأبل النهوبة عندما
يحتاج الموقف إلى الصدام مع أصحابها . ولكن مع ذلك فقد يسير الشخص المهباتي
وبسلك طريقاً منفرداً . يقول أحدهم : « والله بمشوا اثنين و ثلاثه جميع و في
واحد دا بمشي ، ناس الواحد يسافر براهو (٣) . و عندنا واحد ينسوقوا
اثنين ، واحد ين ثلاثه واحد ين أربعه » (٤) . ويقول راو آخر :- « والله ثلاثه
بمشوا وأربعه بمشوا و خمسة بمشوا و ستة بمشوا و سبعة بمشوا . زَيَّ (٥) ما يتفق
ثمانية بمشوا » (٦) . إذن فقد كان المهباته يسرون في جماعات . وأحياناً يسرون
فرداً . وقد ذكر طه الضريبر أنه لما قابل الطبيب ود ضحوية أول مرة كان الأخير يسير
منفرداً فانضم إلى مجموعته (٧) . ولكن رغم هذا فقد كانت صورة السير في جماعة هي
الغالبية . وهي - في نظرنا - الصورة المناسبة مع الأسلوب الذي تم به عملية النهب .
ويستشف من شعر الطبيب ود ضحوية أنهم كانوا يكونون مجموعة تضم إلى جانبه ، طه

- ١ - ملاهو : أكثر من .
- ٢ - الأرشيف شريط رقم م/د/أ/أ/٢٥٠
- ٣ - براهو : لوحده
- ٤ - الأرشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٨٩٤
- ٥ - زَيَّ : مثل
- ٦ - الأرشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٨٩٦
- ٧ - الأرشيف شريط رقم م/د/أ/أ/٢٥١

الضريير ، الصديق ود التركاوى ، كيفة ود عمران ، وآخر يدعى عباس . وهذا الأخير يتكرر اسمه كثيراً فى شعر الطيب ويأتى الحديث عنه فى صورة تهكم وسخرية . ومن شعر الطيب فى ذلك :-

عباس انتهى (١) جاذع الحيل (٢) فوق غيرك
نعمتلك (٣) قليل حيلة و ضعيف سيرك
أمن ترضى بى العائدة (٤) وتصد لى دميرك (٥)
أمن فوق درب طه ينحلق طيرك (٦)

أما اختيار الرفيق فإنه لا يخضع لمقاييس محددة . فقد يجمعهم الطريق . وقد يرافق الواحد منهم أحد المهابته من قبيلته . وليس من الضرورة أن يكون الرفيق من نفس القبيلة أو المنطقة . فالمهابتى من الشرق من منطقة البطانة مثلاً ، قد يرافق آخر من الغرب من منطقة كردفان . والمهابتى من قبيلة الجعليين قد يرافق آخر من قبيلة حمير أو أو دار حامد أو البطاحين أو الكواهلة وهكذا . وما يروى فى هذا عن الطيب ود ضحوية قول الراوى : « أولا الطيب داجرب البطاحين رابعهم (٧) ، الشكرية رابعهم ، أيها ناس ، الكمالاب رابعهم ، ناس البشاريين رابعهم ، أى محل فيهو ناس ندر (٨) فيهو ناس تحترهم سمح ووجه كلهم بخر معاهم » (٩) .

وقد روى عن الطيب ود ضحوية (كما سيتضح ذلك من سيرته) أنه فى بداية عهده بالمهبة رافق بعضاً من القرىات والمواوير من قبائل غرب السودان ، وأنه أخيراً لجأ إلى البطاحين ورافق مجموعة منهم .

١ - انتهى : غير أصيل

٢ - جدد فيه الحمل : تحل له عنه ضعفا .

٣ - نعمن : من أجل . لأن . لأجل .

٤ - العائده : ما حصل عليه . أى العائد

٥ - دمير : تصغير دمر ، وهو مكان الإقامة فى شهر الصيف .

٦ - حلق طيره : كناية عن أنه مات .

٧ - رابع : رافق والرباع : الرفاق

٨ - ندر : جمع نادر .

٩ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٩ .

مراحل المهبة :-

تم عملية المهبة عبر مراحل متعددة ، تبدأ بتجمع الأسباب والدوافع . وتنتهى بانفاق المال المنهوب لتبدأ من جديد . فالمرحلة الأولى هى ما تحدثنا عنه من تجمع الأسباب والدوافع والتدريب على أنواع الأسلحة واختيار الرفيق . وتلى هذه المرحلة مرحلة مرحلة الطريق إلى الهدف ، وهى عبارة عن المسافة التى يقطعها المهابتى من نقطة إنطلاقه حتى بلوغ المكان المعين للتهب . وهنا يكون الطريق وعراً ومخوفاً بالمخاطر وضروب المعاناة . فهم يسلكون طريقهم عبر مسافات يهدم فيها الجوع والظما ، ويتعرضون خلالها لهجير الصيف ولهب شمس المحرق :-

يوماً فى بسط (١) عند المقسم نومنا
ويوم نضارى (٢) من لفح السموم (٣) بى هدومنا (٤)
يوم بنوجب (٥) العمله (٦) ونجيبه لزومنا (٧)
نحن ان عينا يا كيفة (٨) أم خلود بتلومنا

كل هذا والطريق مخوف بالمخاطر ، رغم الزاد الذى يتزودون به ورغم أنهم يخاطون لكل الاحتمالات والتوقعات :-

يوماً كرتبيت (٩) و يوماً عشانا ريبيت (١٠)
و يوماً نسيف (١١) الثابة (١٢) و عليها ثيبيت
أمن جبتت مالا فترح أم سوميت (١٣)
وأمن فوق جبال سقدي (١٤) انجدع ما جيبت

١ - بسط : فرح وطرب (٢) تضارى : استتر .

٢ - السموم : الريح الحاره (٤) الهدوم : الملايس والياب .

٥ - وجب الشيء : قام بالواجب نحوه .

٦ - العمله : الابل المنهوبه (٧) لزوم : ملازمة .

٨ - كيفة : هو على أحمد على ود عمران من البطاحين .

٩ - كرتبيت : جرى الابل .

١٠ - ربيت : ضرب من اللحم المخلوط يؤكل .

١١ - سب الشيء : أخذه غير ملتوت (١٢) الثابه : الثبغ

١٣ - سوميت : خسر

١٤ - جبال سقدي : جبال غرب سنار . بين سنار وكوستى .

ورغم هذه المعاناة : فالدافع عند الهبائي أقوى مما يعانیه ، ولذلك فإنه لا يرمي بغير الموت بديلاً لا رضا المحبوبة ، أم سويت .

تأتي بعد ذلك مرحلة بلوغ الهدف وهي أخطر المراحل جميعاً . ففي هذه المرحلة يكون الهبائي قد وصل إلى مكان الأبل التي يريد نهبها . والهبائه لا يبنهون إلا الأبل التي يشمون فيها دلائل المقدرة على السير لمسافات طويلة ليضمنوا عدم تمكن أصحابها من اللحاق بهم . وتم عملية انتقاء المجموعة من الأبل في بقعة وحذر وتخفى للخطر خشية هجوم مباحث من أصحابها . وفي كثير من الأحيان يشعر أصحاب الأبل بقدومها في حينها فيعلنون ظهور جمالهم للنو والحين وتم عملية المطاردة . وحين يبدو الأمر من المواجهه . يبدأ الهبائه في تطبيق تكتيكهم ، الموضوع لمثل هذه المواقف . ويخلص هذا التكتيك ، في الآتي : تنقسم المجموعة إلى قسمين : قسم يسير مع الأبل وينفذ بها . أما القسم الثاني فهو يبقى ليشكل حاجزاً بين الأبل وأصحابها . وتعمل هذه المجموعة كل ما يمكن عمله لعاقة الطوق المطارد عن التقدم . وتم عملية التعطيل عن طريق التخويف والتحذير . فإذا تمادى المطاردون يصيب الهبائه أحد الجمال لادخال الرعب بين أفراد المجموعة المطاردة من أصحاب الأبل . فإذا لم يشتم ذلك فقد يصل الأمر إلى قتل بعض الأشخاص . وفي ذلك يقول أحد الهبائه : « ينور عهم (١) بازول أرجع بازول أرجع بازول أرجع . إن بقي ما رجع ينضرب أجمع كلف (٢) ينرمي . إن انتخروا (٣) عليك ما بشرقهم » . ويمضي فيقول : « نحن زول ما ينكثلوا . نحن دابرين رزق يس (٤) . فهم لا يقدمون على القتل إلا إذا لم تجد الوسائل الأخرى في إرجاع الجماعة المطاردة « الفرع » والا إذا عدمو كل حيلة لتخليص الأبل من أصحابها ، فليس امامهم إلا أن يقتلوا وهم مرغين ، لأنه ليس من عادتهم الفرار وتسليم الأبل لأصحابها بعد نهبها .

أما المرحلة الأخيرة من مراحل الهبائه فهي بيع الأبل والتمتع بالعائد منها . ففي هذه المرحلة يتم بيع الأبل بواسطة « العملا » . وبعد بيع الأبل ينصرف الهبائه إلى

- ١ - ورعه من الشئ : دعاه إلى تجنبه والابتعاد عنه .
- ٢ - كلف : حركة صوتية (٣) اتخروا : تقدموا .
- ٤ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١٩٠٥ .

ظلمهم « الوديف » « سئات المجالس » حيث يستقر بهم الأمر عندهن . وهناك يحتسون الخمر ويجالسون النساء ويمرحون ويطربون . وحينما ينفد المال الذي في أيديهم ، يعلنون ظهور جمالهم مرة أخرى لبدأوا نفس المراحل من جديد .

كيفية التصرف في المال :-

نحدثنا الروايات عن كيف يتصرف الهبائه في الأموال التي يحصلون عليها بعد بيع ما يغنمون من أبل ، فنقول إحدى الروايات : « إن بقيت لبيت زول مسكين ساكت ينكسيه ، و بشعلتو . أيلنقى مينقطع يندي . بس بنباري لي العريتان كلتو ينكسي » . ويقول نفس الراوي في موضع آخر عن كيفية التصرف في هذه الأموال : « ينسكر بها ساكت سكرأ مالي حد . نتونس مع البنات ، الفترخة التسنحة كلتها راقدين معاهما » (١) . ويذكر راو آخر أن بعض الهبائه يصرفون هذه الأموال على توفير الطعام لأولادهم ويعطون منها المساكين والمحتاجين من النساء والرجال . ثم أنهم إذا وجدوا أحد زملائهم من الهبائه وهو معدم فأنهم يعطونه مما معهم من هذه الأموال . ويقول راو آخر أن أول أوجه الصرف لدى الهبائي هي أن يشتري لنفسه بعبراً أصيلاً وسيفاً بئراً ودرقة من الجلد الأصيل . وما تبقى بعد ذلك يذهب للاماء (٢) . ويقول أحد الهبائه من قبيلة الكواملة عن أوجه صرفهم : « مجالس و يشربوهم خمره ، و يشربوهم سيجابر ، و يدوهين لي الفترحات و هدي كدأ (٣) . ويقول راو من قبيلة الجعلين : « ينشعوا نفهم فيهن عقابهم ولا هو محتاج ليهن . يجلسوا مع الأصحاب أكان يجولهم في أنادي أكان يجولهم في أي شئ . عندهم القروش مش حاجة هيمية » . وقد ذكر طه الضرير أنهم كانوا يحلون بها المشاكل التي تحدث بسبب النقود .

نخلص من كل ذلك إلى أن أوجه الصرف في مجتمع الهبائه تلتخص في الآتي :-

- (١) الخمر والنساء
- (٢) المساكين والمحتاجين

- ١ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١٩٠٣ .
- ٢ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١٩٠١ .
- ٣ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١٩٠٩ .

(٣) مساعدة بعضهم البعض في حالات الحاجة .

(٤) نصيب و العملاء منها .

(٥) حل الشاكل التي تحدث بسبب القروش .

(٦) بعضهم كان يصرف منها على أهل بيته .

ب- التعاون في مجتمع المهيئة :-

تعود مجتمع المهيئة روح من التعاون والتكاتف والتعاقد تحتها طبيعة الحياة التي يعيشونها والتي تجعل الفرد منهم في أمس الحاجة إلى الآخر . وللتعاون في مجتمع المهيئة صور ثلاث نلخصها فيما يأتي :-

(١) قوانين المرافقة أو الرفقة :-

لعلنا نلاحظ في الطريقة التي يتم بها تخلص الابل المنهوبة ، أن هناك مجسالا لمحدث خيانة إذا لم يكن هناك ما ينظم هذه المرافقة . والواقع أن مجتمع المهيئة له قوانين تحكمه وقواعد تنظمه ، وللمرافقة بوجه خاص ، قوانين تحكمها وقيم تستند إليها ومعتقدات تساعد في الالتزام بتلك القوانين وتضمن استمرار التعاون والتعاقد والتكاتف بصورة قوية وفعالة .

ولكى يلدأ المهيابة أى احتمال للخيانة ، فأنهم قبل أن يبدأوا رحلة النهب هذه يؤدون قسماً معيناً . يقول أحدهم : واجب الواحد لى الرفيق ، عندهم فائحة بشيلوها الخابن الله يخونوا ويؤوموا يروحوا يكوسوا مال الناس . (١) . وعموماً فإن مجتمع المهيئة يتبع بصورة فريدة من الوفاء . ولدى جماعة المهيابة اعتقاد جازم بأن من يخون رفيقه سوف يلحقه الضرر . سواء أكان فى ماله أو فى نفسه أو فى ذريته . وهذا الاعتقاد يساعد كثيراً على أن تتمكن هذه الخاصة فى نفوس أعضاء هذا المجتمع . ومن ذلك ما قاله أحد هؤلاء المهيابة من أن : « أليخون دا عندنا مات حفيبان و عريان » . ويقول أحد الرواة : (٢) « ويقولوا ليك نخون كل شى إلا »

١ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١٨٩٩
٢ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١٩٠٢

الغردة (١) متعتها المرتبوط بيها النجمل دى ما دامين (٢) هي عرقانة و ماشة متعاك ماتخونها . فيقولوا خوانة (٣) الغردة دى كمتة ليهم ينضهم هم ، ينثاقهم بى عكس الأيام الله براهو ما بد بهم . هم إذن يعتقدون أن الحياة لا تعود على مرتكبيها إلا بالضرر والذي يخون فى مجتمعهم محقر دليل . ومن هنا كانوا حريصين الحرس كله على الوفاء للرفيق . وعملوا على اغلاق كل المنافذ التي قد تنفذ منها احتمالات الغدر والحياة إلى مجتمعهم . يقول أحدهم :-

سلمان من خيانة الغردة لا من عاد (٤)

أى أنه عاد خال الوفاض لأنه إرتكب خيانة ضد رفيقه .

هذا وقد حكى لى بعض الناس من منطقة الجميلين الحكاية التالية (٥) :

قال : كان جماعة من المهيابة يسرون باحثين عن مغم يغموه . وفى الطريق التقى بهم من هو على شاكلتهم ، وكان يسير وحيداً . فعرضوا عليه الانضمام إلى مجموعتهم فوافق . وسارت المجموعة إلى هدفها وغنمت وعادت . وحين جاؤا إلى تقسيم المغم . قال رئيس الجماعة للمهيابة الغرب على المجموعة . أن العادة حرت أن تقسم ما تحصل عليه من الابل نصفين : نصف لرئيس المجموعة ، والنصف الآخر لبقية أفراد المجموعة . ولكن هذا الإشتار من جانب رئيس الجماعة لم يعجب ذلك المهيابة فرفض هذا التقسيم . وهنا دعاه رئيس المجموعة للمبارزة فان غلب كانت الابل كلها من نصيبه وإن هزم تنازل من نصيبه منها . فوافق الرجل على الاقتراح . ولم يبارزهم باليف كما توقعوا . بل أنه عدل إلى إحدى الأشجار وقطع منها عدداً من العصي على عادد الجماعة . ونازلهم واحداً تلو الآخر فغلبهم جميعاً وكان كلما أصاب واحداً منهم حمله إلى ظل شجرة . ثم إنصرف إلى الابل المنهوبة . وكان يضرب البعير أو الناقة على شقه (أو شقها) الأيمن فيجربى فى اتجاه غير ذلك الاتجاه الذى ضربت فيه . وهكذا وهكذا أتم تقسيم الابل إلى مجموعتين ساق نصفها وترك الباقي لهم .

١ - غردة : غرضه وهو الرجل كالحزام للرجل
٢ - ما دامين : ما دام (٣) خوانة : خيانة
٤ - روى هذا الشعر هكذا دون زيادة .
٥ - حكى لى هذه الحكاية الوالد العاسل المشطر مساعده الزبير من قرية المرازمة غرت مدينة العالاب فى شهر نوفمبر ١٩٧٥م بمنزله والصياغة التي ترد بها هنا من عدى .

هذه القصة رغم ما يبدو فيها من المبالغة ، إلا أنها تقف دليلاً على اعتقاد هؤلاء الناس في أن من بسلك مسلك الحياة لا بد خاسر . وأن الطمع على الرفيق لا يعود إلا بالصعور والموان . فهذه المجموعة أرادت الغدر بهذا الشخص لأنه كان وحيداً وكانوا هم عصاة ولكنه أنصر عليهم بأضعف أنواع السلاح . ومثل هذه القصص هي في الواقع أنما تساق لترسيخ مفهوم الوفاء للرفيق في هذا في هذا المجتمع ، فهي بمثابة العبرة والعظة لمنع حدوث خيانات بين أفراد ذلك المجتمع . وهذا يؤكد أن لهذه المجموعة كل ما يميز الجماعة من التراث الذي يتناقله أفرادها - على نحو ما رأينا - والذي يوظفه في تثبيت قيم مجموعتهم . يضاف إلى ذلك أنه لم يبق ما يشبه القاموس الخاص في الكتب التي يستعملونها ولها دلالات خاصة في مجتمعهم كما سنرى حين نتحدث عن ظواهر شعرية الفنية .

أن الوفاء للرفيق وتقديس المرافقة من أميز صفات مجتمع الهيباته . وهذا الوفاء يأخذ عدة صور في مجتمعهم . ومن هذه الصور ما يقف عند حد المشاركة الوجدانية . ومنها ما يتصف بالإنجابية ويصل إلى حد الذود عنه بالروح وبالمال وفدائه بالنفس في أحلك الظروف . يقول أحد الرواة من منطقة الجليلين : « إذا كان الواحد جابهاً (يعني الإبل) يوقفهم في السوق ، ينصدفون في الخلاء ، كان معاهم ربيب . ينضم أبو يقول معاً فلان . الله أن ستمو لا سليم وأخذ شكرتو ، وإد كر إنصدف يتكتمل بها براهو . يقول الحاجة دي أنا سويتها ما يقول معاً فلان (١) ويقول أحد الهيباته من الكواهل عن الرفيق : « إن بقي ناييم في بيتو ، ورفيقك حقيقته . تقسيم لو عودو في بيتو (٢) . تلك صور من صور الوفاء للرفيق . وهناك المزيد من هذه الصور . يقول أحد الهيباته من الكواهل أيضاً : « الزول ميتا بقي منعك ، تاني الزول ال فيهو فابده كان جات الحارة يسوي في صهرو ما يدتي ، وما يطمع على (٣) . ويتحدث راو آخر في موضع آخر عن نفس الموضوع ولكن بتوسع أكبر حيث يعدد واجبات الرفيق نحو رفيقه فيقول :

- ١ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١/١٩٠٩
- ٢ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١/١٩٠٣
- ٣ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١/١٩٠١

بقي بعدين إن بقي راجع من الطريق . من ال عندنا دك بديهو ، ما بهو بنهو الزول ال نجيووا كولو بدتي . أقول بازول قيم بيهو أولادك . أنا بشيل حق متصروفاتي وأي طريقة بتعدين إن بقي هو مسافر و جيت لي أولادو ، بقيهم تكسي المرة ، وتكسي الوليدات ، عندهم حاجة كدا بدتهم متصروفات حدا . بعدين إن إنتمك في السجن . يعني إن في غرامة بدفعها ليهو ، وإن مرى (يعني صاحب الإبل) أتامل بي العربي يكتم . بعدين إن جيت رزق هو فاعيد مو متسحون و مو مسافر تقسمو لي (١)

هذه النصوص تعد أشكالاً متعددة لصور الوفاء للرفيق في مجتمع الهيبته وهي توضح أن مجتمع الهيبته مجتمع متماسك إلى درجة كبيرة ، يوفر للفرد فيه ضمانات كبيرة ويحميه من التعرض لأنواع الموان إن وقع فريسة للمرض أو العجز ، أو إذا زج به في غياهب السجن . ومن خلال هذه النصوص ، ومن خلال شعر الهيباته أنفسهم ، يمكننا أن نستخلص الأشكال الآتية من صور الوفاء للرفيق :-

١ - التعاطف الشعوري :-

يعبر شعرهم كثيراً عن شعور التضامن وعمق الاحساس بالفاجعة حين يقع أحدهم في يد القانون ويخرج به في السجن ومن ذلك قول الطيب ود ضحوية :-

- الليلة النفيس أمست حزينه وعامدة (٢)
- و ما بشيلي بي برقع (٣) حميدة وحامدة (٤)
- فارقنا الرباعة (٥) أبان (٦) قلوباً جامدة (٧)
- ناس طه اللحو (٨) ضو القبيلة الحامدة (٩)

- ١ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١/١٨٩٤
- ٢ - عامده : من عهد : اشتد حزنه .
- ٣ - برقع : غطاء الوجه معروف
- ٤ - حميدة وحامده : نساء من الزبيدية
- ٥ - رباعة : الزملاء والأصدقاء (٦) أبان : أصحاب .
- ٧ - جامد : قوي
- ٨ - اللحو والأحو : من الحوه وهي سواد إلى الخضرة أو حمرة إلى السواد .
- ٩ - الحامد : الساكن - وهدت النار : ذهبت حرارتها .

وقد يأخذ هذا التضامن شكل الإصرار على مؤازرته والوقوف إلى جانبه والعمل على تخليصه ثم مدحه :-

الخبر النجيبى الصدّيق متفقل جـوّة
حاليف ما بتقيف دُونو أن بقيت فى هوّة (١)
عند طرش (٢) ألدّرق ما بتسى شرط الحوّة
كبّاس (٣) لى الدّهم (٤) عيّد ألّ يقول يا مَرُوّة (٥)

(٢) ومن ذلك أن الواحد منهم يكون أميناً على سر رفيقه . فإذا ما بدر منه ما يعيب أو ظهرت منه سوءة . كان الآخر كئوماً لها . حريصاً على أن تبقى حبيسة نفسه لا يروح بها لأحد مهما كانت الظروف . ومن ذلك قول الخضر ود فكاك :-

ناس قدّر الله (٦) فاعدّ بن فى البيوت ما بختروا (٧)
و من كبّيبها (٨) وكشّف جال (٩) الحزيم ما بفتروا (١٠)
أخير (١١) أختر برأى (١٢) أسد الرّضيّة (١٣) أدتروا (١٤)
صاحبى أن زلّ (١٥) ما بتفشّاهو (١٦) عيبّو بستروا (١٧)

(٣) ومنها أن أحدهم إذا أصابه عجز أقعده عن العمل ، فإن رفيقه يعود به من

١ - هوّة : الحوّة الفاضّة من الأرض . الحفرة .

٢ - طرش : ضرب

(٣) كبّاس : من كبّس : زحم وملا

٤ - الدّهم : جمع دهمه وهى السواد والمكان الموحش (٥) مَرُوّة : مَرُوّة .

٦ - قدر الله : كناية عن الامعة والساقط الهمة .

٧ - ختر : سافر فى طلب الابل عند الهباته .

٨ - كبّ : صب . والضمير هنا يرجع للقهوة .

٩ - كشّف حاله : فتجده .

١٠ - مَرّ : تعب

١١ - أحير : أحزن

(١٢) برأى : لوى

١٣ - الرضيّة : ما تكسر من شوك وأخشاب من الشجر الذى قدم به المهد .

١٤ - نتر : نمر . بقسوة .

١٥ - زلّ : سقط وانزلق .

١٦ - فشّى السر : كشفة .

١٧ - مَرّ : أخفى وغطى .

وقت لآخر ويمد له يد العون ، ويقوم بواجبه كاملاً فى اعالته ومن معه من زوجته وأبنائه .

(٤) ومن ذلك أيضاً أن الواحد منهم إذا قبض بجريمة ابل مسروقة ، وكان يشاركه فيها رفيق له ، فإنه يتحمل ما يترتب على الجريمة من عقاب دون أن يتعرض بذكر لرفيقه من بعيد أو قريب ، رغم أنه فى الحقيقة والواقع شريك فعلى فى الجريمة . أما وقد أدى هذا دوره فى اخفاء اشتراك ذلك فى الجريمة ، فإن على الآخر فى مقابل هذا الصنيع أن يقوم بخطوات ايجابية تخفف الحكم على رفيقه أو تدفع الإتهام عنه . ومما يقوم به فى هذا المجال :-

أ - عند نظر القضية بلجاً إلى البحث عن شهود يدفعون عنه الجريمة . ويكون ذلك أحياناً باستجبار عدد من الناس يؤدون القسم ويشهدون على براءته من التهمة الموجهة اليه . وهناك من لا يمانع فى القيام بمثل هذه المهمة .

ب - وإذا ما أخطئ فى ذلك وثبتت الجريمة وصدر الحكم ، فإنه يقوم باستئناف الحكم مرّات ومرّات . ولا يقف سعيه لتخليص رفيقه عند حد .

ج - إذا تضمن الحكم غرامة ، فإنه يقوم عنه بدفع مبلغ الغرامة .

د - إذا أخفقت كل محاولاته لتخليصه من عقوبة السجن ، فإنه يتكفل باعاشة أبنائه فترة بقائه فى السجن .

وهنا تحضرنى رواية رواها لى أحد الهباته فى سجن النهود تتجسد فيها كل الحالات السابق ذكرها . ورغم أن الشخص المذكور رفض تسجيلها إلا أنى أوردتها لقيمتها هنا ، وسأحفظ له حقه فى ذلك بعدم ذكر اسمه (١) .

يقول أنه وأثنان من رفاقه قد قاموا بنهب عدد من الابل وقاموا ببيعها جميعاً الا بغيراً واحداً احتفظ به هو . وقبض هذا البعير عنده فاتهم بسرقة بقية الابل . وثبتت الجريمة وصدر ضده حكم قضى بتغريمه خمسمائة وخمسين جنيهاً والسجن لمدة ثلاث سنوات . وكان التصرف من جانبه أنه لم يقل باشتراك احد معه فى هذه الجريمة . فماذا

كان موقف الآخرين ؟

١ - كان ذلك فى صباح الأحد ٢٩/٢/١٩٧٦ بسجن مدينة النهود .

في المرحلة الأولى قاما برفع استئناف ضد الحكم . ونتيجة لهذا الاستئناف رفع
حكم الغرامة . وفي المرحلة الثانية قاما بدفع مبلغ ثلاثمائة جنيه لأسرته لأعاشة أيام
ولم تقف محاولاتهم عند هذا الحد . فقد أخبرني أن أحدهما قد ذهب إلى الأبيض لرفع
استئناف جديد في رئاسة المحافظة . وهو مازال في انتظار مانسرح عنه هذه المحاولة
هذه صورة من واقع هذه الجماعة توضح الصورة الحقيقية لتنسيق الأدوار في مجتمع
المهنة ، وتحديد لكل فرد فيه واجبه وفقاً لبقائه الموقف ويتطلبه الواقع .

(٢) السالف :-

يمثل « السالف » شكلاً آخر من أشكال التعاون والتكاتف الذي يسود مجتمع
المهنة . و « السالف » في عامة السودان يعنون به كل ما تقدم من مودة وعشرة وعرو
واحسان . وإذا كانت قوانين المرافقة تنظم العلاقة بين المهبات الذين يكونون مجموعة
واحدة ، فإن السالف يعنى ما يقدمه المهباتي لزميله دون سابق معرفة شخصية أو علاقة
بينهما من أي نوع . وقد ذكر طه الضير أن السالف يمثل في واجب المهباتي نحو
زميله حتى ولو لم يكن هناك سابق صلة . فإذا ما وجد الواحد منهم زميل له في موقف
يحتاج فيه إلى مد يد العون . فليس أمامه إلا أن يفعل ذلك ولا اعتبر خارجاً على السالف
مما يترتب على ذلك عواقب ليست من صالحه في شيء . ومن تلك العواقب أن الذي
يتمتع عن تقديم العون لزميله يكون عرضة لغضب زملائه عليه ، ويمتنعون هم بدورهم
عن تقديم أي مساعدة له إذا كان يحتاجها . وهناك الكثير من الحالات التي يحتاج فيها
المهباتي لمساعدة زملائه في المهنة . ومن ذلك أن يفقد بعيره في بلد ليست له فيه معرفة .
و يحقق في إحدى سفراته ، وما إلى ذلك مما هو متوقع من سوء الحال لمن هو في مثل حالهم .
وتحدث الروايات عن الحالات التي يكون فيها السالف . ومن ذلك ما يبعده
طه الضير منها في قوله : « ... ناني نقيتوا مقبوض مموك وحلكتو بي مال .
حتى أن شاء الله جسالكم ال راكيبين فوقهن أن ما حلتيتوهو مرققتوا
من استائف . إن نقيتوا مفلتس عربان منقطع عادم القوت الضرورى ، ان
ما كسيتوهو وعدتو رأسو بي مالكم حلتيتوهو شاف رايتو برايتو مرققتو
من استائف » (١) . ومثل هذا النوع من التعاون سمي بالسالف لأن المعروف فيه

١ - الأرشيف شريط رقم م/د/أ/١/٣٥٩ .

يكون متبادلاً . فالذي يخلصك من مأزق وقعت فيه ، قد تجسده في نفس المأزق في
وقت آخر . فيجبرك المعروف الذي أسداه لك أن ترد له الجميل . وعلى ذلك فإن
المهباتي ما أن تمسه الحاجة وهو في بلد ما ، فإنه يتوجه نوا إلى زميله المتواجد في نفس
المنطقة . فيقوم هذا باكرام وفادته ويزوده بما يحتاجه إذا كان بعيراً أو مالا أو مجرد
توجيه لمكان يكون فيه مجالا للنهب . ومن ذلك قول أحد المهبات : « وإذا ما عثرو
جنال ميتو قرة يشد جملو هو ذاتو بركتو هو حقيبة ويشيل ليهو سرح
و يلف بي يروحوا يهجموا لهم مال ينشع ناس يشيلوا ميتو . أخيراً يمترو ويتصرفوا
لما دك يبيع ميتو جمل بركت فيهو و يموت ، و يقسم لى باقى حقتو
يشيلو و يمشى أهلو » (٢) . ويعمل التعاون بين المهبات إلى درجة أن الواحد منهم إذا
وجد أحدهم في قضية ما فإنه لا يبارحه إلا بعد أن يعرف المصير الذي يؤول إليه . يقول
أحدهم : « المهجر اوى أن بنيتن ليفي رفيقو منقطع أقطع الشك يشهلو . أن يقيتن
زى قضية يقوم و يقع معاهو . ما يقيف ناس يعرفوا التواجب خلاص » (٣) .
ولا بد أننا نلاحظ أن هذا الضرب من السلوك قد اقتضته طبيعة الحياة التي يعيشونها .
فهم في سفرهم المتواصل هذا وفي تغربهم الدائم قد يتعرضون للكثير من مثل هذه
المواقف الحرجة وهم بعيدون عن أهلهم وعشيرتهم . وما دامت تجمعهم وحدة المصير
ولا غرو إذن إذا لجأوا إلى خالق صور من التعاون تجبهم قسوة المصير وتخفف عليهم
إحتمالات الهلاك والضياع . فهذا السالف يضمن لهم الخروج من المواقف التي يحتاج
فيها الفرد إلى عون ومساعدة شخص آخر . مثل هذا العمل يمكن أن يقدمه أي شخص
ولكنه في مجتمع المهنة يصل إلى درجة الإلزام . لأن الذي يتخاذل عن تقديم العون
لزميله يعتبر في عرفهم قد أتى بعيب كبير ويصبح محل تدرهم وسخرتهم وتؤ سمعته
داخل مجتمعه فيحذر الجميع عن التعامل معه ويحجمون عن تقديم أي عون له . وبذلك
لذلك فرص التعامل في كل ما يوجب التعامل بين جماعة المهبات . وبذلك يكون المجتمع

١ - الأرشيف شريط رقم م/د/أ/١/١٨٩٤ .

٢ - « ... م/د/أ/١/١٩٠١ »

بصورة ما قد وقع عليه عقوبة العزل الاجتماعي ، وهي عقوبة لها نتائج خطيرة على حياة الفرد في مجتمع تحف به المخاطر كمجتمع الهبته .

(٣) التعامل بين العميل والهباتى :-

ذكرنا آنفاً أن مجتمع الهبته يتكون من فئتين أساسيتين هما : فئة الهبته وفئة العملاء . والمقصود بالعملاء أولئك الذين يتوسطون في عملية البيع بين البائع والمشتري ، أى « العملاء » . و « العملاء » في مجتمع الهبته هم رجال في عدة مناطق ينصبون « الخلاوى » ويعملونها لاستقبال جماعات الهبته ، ويلعبون دوراً أساسياً في تسويق الابل المنهوبة . فالهباتى بعد وصوله الى دار العميل يقوم بتسليمه مجموعة الابل المعروضة للبيع . ويقوم العميل من جانبه بعرضها على تجار الابل أو القصابين ويبيعها لهم بالسعر الذى يكون قد اتفق عليه سلفاً مع الهباتى . وبعد البيع يقوم العميل باستلام « عمولته » وهي عبارة عن مبلغ يكون قد تم الاتفاق عليه . واحياناً يكون هذا المبلغ عطية مزين على حد تعبيرنا العامى . وفي بعض الحالات يرفض العميل قبول أى مبلغ نظير عمله هذا متعللاً بأنه إنما يخدم أخاه لا يريد لعمله هذا مقابل . وتدير العميل من أولى واجبات الهباتى لأن ذلك يوفر عليه مشقة العثور على مشترٍ مضمون . يقول أحد الرواة : « يعدين لايد ولايد من تدير عميل يستلم منو المال » (١) .

أما فئة « العملاء » هذه فانها في العادة تألف من بعض الذين كانوا يعملون فسى الهبته وتركوها لسبب من الاسباب ، وأوضح هذه الاسباب هي العجز والشيخوخة او تقدم العمر . فهذا العمل ، بهذه الصورة - أعنى عمل العملاء - امتداد للعمل فسى الهبته . وفي بعض الأحيان يقوم الهباتى نفسه بهذه العملية . مثلاً اذا كان احد الهبته متواجداً في منطقته وجاء بعض الهبته بمجموعة من الابل فإنه يمكن ان يقوم بنفس عمل العميل في تسويقها . ولكن الأصل في المسألة أن يكون هناك عميل معروف يفد اليه الهبته بغيرتهم ويقوم هو بواجبه نحو تسويقها . يقول أحد الرواة : « يود من (يعنى الابل) لى زول ، عند هم عملاً . يعنى معناتها عند هم عيون يجيبوهم ليهم يبيعوهم عند هم » (٢) .

١ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١٩٠٢

٢ - « « « م/د/أ/١٩٠٥

ان هذا العمل الذى وصفناه من « العملاء » ليس هو عملهم الوحيد . فعملهم لا يقتصر على تسويق الابل بل لهم دوراً آخر يؤدونه . يقول أحد الهبته من منطقة الكواهل واصفاً هذا الدور : « كان جيت لى الشاجرة (١) دبيل عملاك ، يكسبك وينعليتك (٢) ويد بك النجمل ساكت ويد بك القروش وانت تمشى بنهض تخلو . تجي تخلصو تكافى بيها » . فهذا يوضح أن « العملاء » يقومون بجانب عملية البيع . بتزويد الهبته بما يحتاجونه كدين يؤدونه بعد عودتهم من رحلة النهب . يقول طه الضرير موضحاً الدور الذى يقوم به العميل : « ألمتهجارى وكنت يكبر يقنب يخرج . مثلاً جيت أنت جيت الليل . تعال يا ولدى سوق الليل دبيل ودين لى فلان الفلانى قول ليهو الليل دبيل جابهين فلان الفلانى فى البلد الفلانى انت مرتاح هنا » (٣) .

كانت البادية السودانية تعج بهذا النوع من الناس . وفي كل منطقة وكل قبيلة ، كان هناك عدد من هؤلاء « العملاء » معروفين لدى الهبته ولا يحتاجون لوصف . وقد جاء ذكر الكثيرين منهم ممن اشتهروا في منتصف هذا القرن ، أثناء الحديث عن الهبته وسير المشتغلين بها . بل جاء ذكر بعضهم في أشعار الهبته أنفسهم . ومن « العملاء » المشهورين : إدريس ود على الصو وعلى جبريل ومحمد هديل فى شرق السودان ، وعواد من عرب الزبيدية وهو الذى يقول الطيب فيه :-

مقل (٤) وأنكلب (٥) راح (٦) يلنقم (٧) القسواد

و مساجراً عادى (٨) من سبهم (٩) الشقط (١٠) حواد (١١)

١ - ذكر المهاجرة لأن « العملاء » فى الأصل كانوا مهاجرة .

٢ - نعلت من النعال وهو الخذاء .

٣ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/٣٥٣

٤ - مقل صارت له مقالة وهي كتابة عن ضخامة العتق

٥ - انكلب صار كالكلب فى رق الضمير

٦ - راح : صار (٧) لقم : هاجم

٨ - عاتى قوى

٩ - سهم : جمع سهمه وهي الجهة والمكان .

١٠ - الشقط : مراكز البوليس

١١ - حواد : من حاد عن الشئ تجنبه

يا جِد القَرَارى (١) أَلْ لى البَحَر . . . خَسَواد (٢)

ما يقسن دروب ناس عابدة بت عواد (٣)

ومن قبيلة الكواهلة بمنطقة نهري الدندر والرهذ كان هناك من « العملاء » محمود ود آدم ومحمد ود آدم وأحمد ود المليح . ومن الجعليين : أحمد ود عوض السيد ود روشان ، وأحمد عوض الكريم ود ضبعه ، وحاج على ود طه . ومنهم أيضاً أبو جارثه من قرية « أبو عريف » جنوب جبل دود . ومن القريبات : جيري تجير . ومن الكبابيش « قنفود » الذى جاء ذكره فى شعر للخضر ود فكاك حيث يقول :-

قيس البابرة وتر فوق جرائك وقود

وواكدرك طرينا الغرب جبال قنفود

..... الخ

ومن الكبابيش أيضاً « عيد » الذى يقول الطيب ود ضحوية عنه :

قُعَاداً فى البيوت يا أم دَرَعَة (٤) ما هو (٥) مَسْفِيد

و ما فيش (٦) نَزْهَة (٧) مِن غير أَل تَسِيها الإيد (٨)

كَمْ كَرَبْتَجْتَهين (٩) فُوق الصَّرِيْمَتُو (١٠) . . . حديد

وأصبح قابيض العَرَبُون (١١) وَرَق من عَسِيد (١٢)

إن هذا العمل الذى يقوم به العميل نحو اعمباتى والذى يتلخص فى بيع الأبل وتسهيل صفه ان كان محتاجاً ، هذا العمل كانت تقوم به فى بعض الأحيان « ستات المجالس » أو « شيخات الأنادى » . فهم قد يحطون رحالهم لدى إحدى هؤلاء النساء ويوكلون

١ - جد القَرَارى : ول من الأولياء من منطقة القراى .

٢ - خسواد : غاض .

٣ - عابده بت عواد : عواد أحد « العملاء » من الزبيديه وعابده بت .

٤ - الدرعه : الشعر الذى يلصق برأس المرأة .

٥ - ماهو : ليس

٦ - ما فيش : لا يوجد

٧ - نزهه : متعه

٨ - الايد : اليد

٩ - كسريج : ضربه بالكرباج وهو الصوت .

١٠ - الصريمه : القجام

١١ - العربون : بعض الثمن أو الأجرة يعطيه الرجل لثلاث كضمان لانعام المقد .

١٢ - عسيد : أحد « العملاء » من الكبابيش .

لها مهمة بيع الإبل مقابل قدر من المال يتفق عليه معها . ومن الناحية الأخرى إذا جاء أحدهم إلى هذه المرأة وطلب اليها أن تقرضه مبلغاً من المال يرده لها بعد أوبته فأنها لا ترد فى ذلك . ومن هنا كانت هؤلاء « الشيوخات » يقمن بنفس الدور الذى يقوم به « العملاء » . وقد تحدث اعمباته عن ذلك فى شعرهم :-

الندرب أَلْ يجيب كمش (١) النُقُودُ مو (٢) مَسِين

ما بمشيهُو ديك بيتو (٣) أبْ جِلِيداً لَسِين (٤)

أَلْ وَلَدْ أَلْ يَقُوم مِن أم حَمَد (٥) مِدَيَسِين (٦)

غَضِباً عَنُو يا السَّاحِر (٧) يَسُوقِيهِنَّ بَسِين (٨)

وهكذا نرى أن هؤلاء النساء يشكلن عنصراً آخر من عناصر الحياة التعاونية التى

يتمتع بها مجتمع اعمباته .

تلك كانت صورة مجتمع اعمباته . فهو مجتمع يعتمد من حيث تكوينه الاجتماعى على فئتين أساسيتين : فئة اعمباته وفئة « العملاء » وهو مجتمع تسوده روح التعاون التى تتمثل فى علاقة اعمباته كفئة واحدة ، وفى التعامل بين الفئتين اللتين يتكون منهما المجتمع . وهو تعاون أملت طبيعة الحياة القائمة على المغامرة ، المحفوفة بالمخاطر ، والمتعرضة فى كثير من الأحيان للصعوبات والمشاكل .

٢ - القواعد :-

تقوم عملية النهب على بعض القواعد التى يتحتم على المشتغلين بها مراعاتها . ومن شد عن هذه القواعد يعد مارقا من حظيرة اعمباته . ومن أوضح هذه القواعد مايلى :-

١ - كش : جمع كشه ، ما يملأ الكف .

٢ - مو : ليس

٣ - ديك بيتو : أى الذى يلازم بيته مثل ائدك .

٤ - لين : هش .

٥ - أم حمد : إحدى الفوائى من قبيلة الشكرية واسمها « سهو » .

٦ - مدين : مستدين .

٧ - الساحر : اسم الجمل .

٨ - بسين : فى الملاية .

١ - الاقتصار على نهج الابل :-

فلما في تعريفنا للمهمة أنها طريقة في الحياة تقوم على نهب وسلب الابل . وبمعنى هذا التعريف أن المهمة تقتصر على نهب الابل دون غيرها . وتلك قاعدة أساسية من قواعد المهمة . بل هي الأساس الذي يقوم عليه التفريق بين المهماتى وغيره . ولابد أنفس تصور أن يكون لاهتمام هذه الفئة بنهب الابل دون غيرها أسباب ومبررات . ولعل في اجابات المهمات على السؤال عن سبب اعتمادهم في النهب على الابل دون غيرها . ما يعين على اكتشاف تلك الاسباب والمبررات . أما الجانب الآخر من هذه الاسباب والمبررات ، فذلك ما يوجد في طبيعة المجتمع البدوى وتكوينه الاقتصادى والاجتماعى وربما فى شىء تتمتع به الابل دون غيرها .

ومن اجابات بعض المهباته عن سبب نهيم للابل ما يقوله أحدهم
 النيل حاجه كويّسه ناعمة مامثل الشاه الـ ينبدوهم بيها (١) .
 همباتى آخر : « أولاً النيل عزاز ، الثانيه كمان سوقيه ذاتو عزه . الـ
 سجنوهو فيهن ، كان كتلوهو فوقيهن زول عزيز خلاص يند . (٢)
 فنهب الابل اذن عزه كما يقولون ، وهو يجلب الثناء والتقدير ، ونهب غيرها فيه مذلة
 وتحقير . وبينما يسمي الذي ينهب الابل « همباتى » ، يسمي الآخر « سراق » يقول
 أحدهم : فى ناس يسوقوا غير النيل لاكمين ديلة ما هم سراق
 صفتهم سراق . السراق دأ يسرق البيت ، يسرق العتر يسرق الـ (٣)
 إذن هذا هو مفهوم المجتمع البدوى للذى ينهب الابل . فالذى ينهب غير الابل ليس
 همباتى فى نظر المجتمع .

و هناك جوانب أخرى لتفسير إقتصار الهبة على نهب الإبل . ومن هذه الجوانب ما هو إقتصادي وما هو إجتماعي ، ومنها جانب يتعلق بطبيعة الإبل نفسها .

أ - الجانب الإقتصادي :-

لا أظن أن في حاجة إلى أن نعيد ما ذكرناه سابقاً عن التكوين الإقتصادي للمجتمع

١ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١٩٠٥ .
 ٢ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١٩٠١
 ٣ - " " " " م/د/أ/١٨٩٦

البدوى . ولكننا نضيف إلى ما قلناه قولاً آخراً وهو أن البيئة الجغرافية قد لعبت دوراً
ملموساً في حصر موارد أعراب البادية الطبيعية في المراعى . ومن الناحية الأخرى فإن
ظروف هؤلاء الأعراب الحضارية قد وقفت بمجال عملهم عند الرعى . وإذا فُان
الثروة في المجتمع البدوى كانت تنحصر في قطعان الإبل والمعز والغنم . أما الإبل فقد
كانت تحير ما في هذه الثروة . فعلاقتها بالإنسان البدوى علاقة المشقة في شتى
احتياجات حياته . فهي مصدر غذائه وكسائه وأداة حمله عند الرحيل من مكان إلى آخر .
ومن الناحية الأخرى فإن العائد من الإبل من الناحية المالية لا يمكن أن يقاس بالعائد من
الغنم أو المعز . أو الثور . فالثور لا يصل ثمنه إلى نصف ثمن المعز ،
ناهيك عن الغنم والمعز . ومن هنا كانت وثرة الإبل الاقتصادية كبيرة . مما جعل منها فيه
إغراء كبير قياساً بغيرها من أنواع الماشية الأخرى .

٢- الجانب الإجتماعى :-

ب - الجانب الإجتماعى :-
أما الجانب الإجتماعى لمسألة إقتصار الهبته على الإبل فقد جاء ذكره فى ما مضى من حديث حول مكانة الماشية فى المجتمع البدوى . فثروة الأفراد فى ذلك المجتمع تقدر بما يملكون من إبل ، وكان كل ثرائهم يقوم بالإبل . وقد رأينا أنما ذلك المجتمع فى المجتمع البدوى كانت تؤخذ بشخصية مالك الماشية ، والإبل منها على وجه الخصوص ثم أن الثراء نفسه كان وسيلة إلى السلطة ومعبراً للمكانة الإجتماعية الرفيعة . وهذه المكانة للإبل فى المجتمع البدوى . جعلت الإهتمام بها يصل درجة كبيرة ، والحصول عليها يتخذ أشكالا عديدة . والهبته واحد منها .

ج - الجانب الطبيعي :-

ج - الجانب الطبيعي :-
هذا الجانب وإن كان أقل من سابقه من حيث الأهمية والتأثير ، إلا أنه يعتبر أحد جوانب المسألة . فالجمل يعتبر سفينة الصحراء الأولى ، وذلك لمقدرته على تحمل العطش لأطول فترة من الزمان ، والاهتماء إلى مواقع الماء فيها . وهذه ميزة لا تتوفر لأي حيوان آخر . وهو أيضاً يفوق غيره من أنواع الماشية في السرعة وعلى المسافات . وقد ذكر طه الضير أن من ضمن أسباب تمسكهم بالإبل أن : « الإبل تبعد » (١) أي أنها تسير لمسافات بعيدة . وقدima قالت العرب : « الجمل سفينة الصحراء » . ولا يخفى أن أصحاب

١ - يجب : أي أنها تفسر مسافات طويلة وتبعد .

الإبل ما أن يحسوا بفقدائها . حتى يكونون ما يعرف بـ «الفرع» . ويحثون السير خلفهم متبعين أثرها بواسطة قاص الأثر أو غيره . وذلك يحتم على الهباته الإبتعاد بها عن مكانها أطول مسافة ممكنة ليضيقوا على الذين يتتبعون أثرها فرصة اللحاق
توفره الإبل دون غيرها .

ولكل ما سبق من أسباب وعوامل ، كان الهباته يركزون عملهم في
ومن أجل ذلك يعنون عن نهب البقر والغنم والمز . بل أكثر من ذلك يعتبرون هذا
ويعيرون به غيرهم . يقول أحد الهباته من قبيلة الكواهلة : « شاة الفطيم ما بنسوقها ولا حمار بنسوقها ولا نشرة بنسوقها ولا »
آخر من قبيلة حمر : « وزول يسرق غناية بيعيتوا الغويين (٢) بيعتس (٣) »
هذا وقد حفل شعرهم بالإفحار نهب الإبل وفي نفس الوقت يتبرأون من نهب غيرها .
يقول الطيب ود ضحوية :-

ما بدتبي (٤) لي عنز (٥) الفطيم (٦) والشاي
بعرف سوق بكاراً دكتن (٧) دآدأي (٨)
بضرب ما برائي (٩) بخالف الهدأي (١٠)
كسبي أل عنيذ قرانتهن جز بي (١١) أم يسأي (١٢)

وعموماً نقول بأن القاعدة هي أن الهباتي هو الذي ينهب الإبل ويعف عن غيرها من كل الأشياء ، وما دونها من أنواع الماشية ، وذلك للاعتبارات المذكورة فيما مضى من القول .

- ١ - علا : إلا ، ما عدا .
- ٢ - العوين : النساء .
- ٣ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١/١٨٩٦ .
- ٤ - تدبي : مشى على يديه ورجليه . تلصص .
- ٥ - عنز : أنثى المزم .
- ٦ - من فطم الطفل فصله عن الرضاع .
- ٧ - دكتن : دليلهن .
- ٨ - دا دأي من اللوداي وهو صوت يرسله الراعي إذا أراد جمع الإبل .
- ٩ - ما برائي : لا أتردد .
- ١٠ - الهدأي : الذي يهدى وينصح .
- ١١ - هز الشئ : حركه .
- ١٢ - أم يسأي : البندقية .

(٢) العلاية في النهب :-

يقول أحد الهباته من قبيلة الكواهلة : « ما بين المهجراوى والسراق قسى مرق : أولا السراق دا مراق يبرى بي هنى ويبرى بي مئى دا بقولوا سراق . وياكين (١) المهجراوى دا مكرب جملو ، بندقتو وسيفوو طاش فى الخلاء . فالهباتى إذن لا يأتى متلصصاً ولا يأتى فى الخفاء ، إنما يحصل على غنيمة بالقوة ، عنوة وإقتداراً « حمرة عين » وسيلته إلى ذلك شجاعة فطرية وسلاح أصيل يجيد استعماله . ومن هنا كان عزوف الهباته عن « الهامل » ، فذلك فى عرفهم مما يجلب العار وباطخ السمعة . ولذلك فأنهم لا يسكن إلا الإبل المحروسة والمحمية التى حرص أصحابها عليها فأحاطوها بما يحفظها ويمنع الأبلت من أن تمتد إليها . ولعلمهم يجلون فى ذلك منعة شخصية . وهذه الصورة جاءت مرسومة بحانة فائقة فى شعرهم الذى تغنوا به يقول الطيب ود ضحوية :-

الزول البدور من البوادي ضريبة (٢)
ينقى موارك (٣) الغربة ويعد الرية (٤)
ما بد بي (٥) لى الهاملة (٦) البشوقها غريبة
إلا السيدة فى الدنار مسيلتها زريبة (٧)

(٣) عدم نهب القبيلة والقبائل المجاورة :-

من القواعد المرعية كذلك فى مجتمع الهباته أن الهباتى يجب ألا ينهب من قبيلته أو ما يجاورها من القبائل . وذلك يدخل فى ما يمكن أن نسميه « مراعاة الجوار » . ولذلك فأن القاعدة هي أن يتوغل الإنسان فى البلاد ويعد « الرد » على حد تعبيرهم .
النولد ألبدور الشكرة يا بى الشينة (٨)

- ١ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١/١٩٠١ .
- ٢ - ضريبه : قرصة ساعة .
- ٣ - موارك : من ورك على الشئ داوم عليه .
- ٤ - الرية : الشك .
- ٥ - تدبي : تلصص .
- ٦ - الهامله : من حمل ترك سأل فهو هامل وهى هامله عندنا .
- ٧ - زريبه : حظيرة المواشى .
- ٨ - الشينة : من شين : القبيح والقيح .

يَعِيدُ رَدُّو كَوْ يَنْطَح بِوَادِي جَنْهِنَّة (١)
أَمَّا نَجِيبُ فَلَوْماً (٢) تَبْسُطُ الرَّاجِينَا (٣)
وَلَا أَم رُوبَةَ (٤) لَاحُوكِينَ (٥) تَكُوفُتُو (٦) عَلَيْنَا

ويقول أحد الهبات من قبيلة حمر : « لا كين ما فيش (٧) سَرْقَة داخلية أبداً .
زول يشرق إبل بنات أَعْمُو فضيحة ذاتها ما يسمي راجيل أبداً ، والناس بمجوهو (٨)
في مجلسهم ما يبتعد . يعني عيب جداً . إلا زول يجيب بهاسيم من غادى وسمهن
زاتو بتاع النار هنا في القبيلة ما بتعرف . دي عندنا شكره (٩) ويقول طه الضربير
« و يسافر بلكد بعيد كان كلوهو فات فات ، وأن فوت
راح على اهلو » (١٠) إذن فالقاعدة هي أن يتعد الشخص عن ديار قبيلته وما جاورها
طول مسافة ممكنة وأن يتفادى دائماً ما يجلب له ما يعيب :

أَلَوْلِدَ أَلْبِدُورَ الشُّكْرَةَ لَا يَشْبِي سَوْمَ (١١)
يَبْعِيدُ رَدُّو مِن قَوْلِهِ فُلَانٌ إِنْ تَلَسَّ سَوْمَ (١٢)
أَمَّا جَبَابُ رُضْوَةَ (١٣) أَلْدَيْسُو (١٤) حَدَّاهُو (١٥) مَكُومَ (١٦)

١ - جهينه : مجموعة قبيلة ذات أصل عربي .

٢ - فلوس : جمع فلس يونانية الأصل : النقود .

٣ - الراجينا : الذي ينتظرنا .

٤ - أم روبه : الروبة الشعر وأم روبه كناية عن المرأة ذات الشعر الطويل .

٥ - حولين : من حول السنة والعام .

٦ - كوفت الشعر : صفه صفراً كبيراً غير متقن وكان يستعمل في الحداد على الميت .

٧ - مافيش : لا توجد .

٨ - مع الشراب من فمه : رمى به . ومع كره وتباعد من .

٩ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١/١٨٩٦ .

١٠ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١/٣٥٠ .

١١ - يتسوم : لا يتكلم .

١٢ - اتلسوم : من اللوم أى يأتي من الأفعال ما يجلب له لوم غيره .

١٣ - رضىوة : رضى .

١٤ - الديس : الشعر .

١٥ - حداهو : الى جانبه .

١٦ - مكوم : من كوم الشيء اذا جمعه وجمله كوما .

وأما أب رسوة (١) فوق ضلأعو تبتل و حوم (٢)

(٣) القسيم :-

يشتمل مجتمع الهبات على مجموعة من القيم المرعية . ومن هذه القيم ما هو عام
ي أنها قيم موجودة أساساً في المجتمع وفي شخصية العربي عبر تاريخه الطويل . ومنها
ما هو خاص بمجتمع الهبات مستمد وجوده منه . وهذه وتلك تكون جميعاً قيم مجتمع
الهبات السائدة فيه والموجهة له .

أن القيم العامة التي نعتيها هنا هي القيم المشهورة للعرب في كل زمان ومكان
كالكرم والشجاعة والشهامة ومراعاة الجار والعشير . فقد ذكر بيرجر . مثلاً . أن المرأة
الشهامة والكرم من أبرز سمات البدوي العربي (٣) . ومن هذه القيم العامة تميز الهبات
الآتية :-

أ - الشجاعة :-

تعتبر الشجاعة من أوضح سمات الهبات . إذ أن طبيعة عملهم تجعلهم دائماً في
اجهة الخطر . فأصحاب الإبل المنهوبة لابد أن يسعوا لإرجاعها مما يؤكد حدوث صدام
في كثير من الأحيان . ومن الطبيعي أن عدد المطاردين يكون أكبر حجماً من عدد الهبات
لكنهم في أغلب الأحيان لا يتخلون عما نهبوه من إبل ، وكثيراً ما يرجع أصحابها
من حيث أتوا بعد أن يكون الهبات قد أبلوا بلاء حسناً في الذود عن مغانمهم . فالهبات
إذن رجال أقوياء وشجعان ، وذلك ما يحكيه واقعهم وما هو مسجل في شعرهم . فهم لم
يكونوا يخشون الموت لأن الموت يلقاه المقيم أيضاً ولأنه رهين بقدر مكتوب :-

النَّاسُ أَلْعَلَى السَّاحِرِ يَشْفُقُوا الصَّيَّ (٤)
وَاللَّيْلَةَ أَمْسُوا فَوْقَ رَأْيَا نَجِيضٍ مَوْنِي (٥)

١ - أب رسوه : كناية عن الأسد .

٢ - تبتل : تبخر . حوم : من حام اذا دار حول الشيء .

٣ - M. Berger the Arab World Today, London 1962 P.6. 65.

٤ - الصي : الخلاء .

٥ - نجيف : ناضج ورأى نجيف : قوى : ومكته رأى نى .

نَاسُ أَبِ تَرَمَةَ (١) جَامُوسَ (٢) أَلْنَحَاسِ أَبُودَيَّ (٣)
عَقَدُوا الشُّورَةَ مِيعَادُهُنْ جِبَالُ كُرْبَيَّ (٤)

ب - الكرم :-

أن الكرم وقرى الأضياف هي من القيم العربية المعروفة والمشهورة . والكرم ضرب من ضروب التعاطف الإنساني . وللكرم في مجتمع الهمة عادة مظاهر . ومن هذه المظاهر صرفهم على غيرهم : فهم يعينون المساكين والفقراء ويمدون يد العون لكل محتاج . بل أن هذا الكرم يبلغ به أحياناً درجة يدفعون فيها كل ما يملكون تقادياً لتفانهم مشكلة يكون سببها المال . وكل ما نقوله هنا ورد ذكره حين تحدثنا عن أوجه صرفهم ، ولا أظن أننا في حاجة إلى تكراره . والذي يمكن أن يضاف هنا أن الهمة قد مدحوا الكرم وتمسكوا به بينما نبذوا البخل وهجوا البخلاء . بل كان الغنى البخل هو هدفهم دائماً . وقد عرّفهم عن ذلك :-

مَا نَبَى التَّنْبِلُ الْقَاعِدَ يَقُولُ سَوَيْتَ (٥)
وَ يَشْهَدُ خَالِقِي كَانَ يَوْمَ السُّعَالِ قَرَّبْتُ
إِنْ بَرَدَنْ تُقُودَ مَا نَبَى الْبَخِيلُ صَرَّيْتُ
وَ أَنْ حَرَنْ بُكَارَ مَا هِنْ صَفَايَحَ زَيْيْتُ

ج - المروءة :-

تعتبر المروءة صفة ملازمة للشخص الهمة . وهي أيضاً من القيم المعروفة في المجتمع البدوي والعربي منه على وجه الخصوص . يقول القوال : وهذا وقد ارتبطت بخاصية الوفاء مجموعة من الخصائص كالكرم والمروءة والشجاعة والإجارة والنجدة وما إليها (٦) وهو يرى أن مثل هذه الخصائص إنما نشأت كرد فعل للظروف

- ١ - أب ترمه : هو الصديق عثمان التركاوي من همة البطحين وأب ترمه لقبه .
- ٢ - جاموس : ضرب من البقر .
- ٣ - دى : الحرب . ويقو ديه أيضاً .
- ٤ - جبال كربي : جبال بيمها .
- ٥ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/٣٥٤ .
- ٦ - علم الاجتماع البدوي ٣٣١ .

البيئة الصعبة التي يحياها البدو . فالهمة رجل شهيم فيه نخوة ومروءة . وقد عبر الهمة أنفسهم عن هذه الخاصية في شعرهم . ومن ذلك أبيات الطيب ود ضحوية التي سبق أن أوردناها والتي يقول البيت الثاني فيها :-

عند طرش (١) الدُّرُق ما بنسى شرط الحُـمـوة
كباس (٢) لى الدهم (٣) عند البقول يا مروءة (٤)

د - مراعاة الجار والعشير :-

هذه القيم الأخلاقية هي أيضاً من السمات العربية التي ورثها المجتمع البدوي في السودان من جلوره العربية القديمة . وقد راعى الهمة الجار فلم يكونوا ينهبون ماله ، ومن ذلك أنهم لم يكونوا ينهبون أهل القبائل المجاورة ، ثم أنهم كانوا يخون عن محارم الجار والعشير وينفرون من مجرد التفكير في خيانه .

بَبْنَعِد رَدِّي (٥) مَا بَدَبِي أَخُونِ الْجَارِ
وَ بَحَرْتُ كَتْنِي فِي الْيَوْمِ أَبِ لِيْطَامَا (٦) حَارِ

ويقول الآخر :-

مَا بَشِيلُ الْفَرِيقِ بَنَى لَوْمُوبِي سَيَاتُو (٧)
مَا بَدَبِي فِي غَيْبَتُو وَ بَخَالِي (٨) أَخْصَوَانُو
يَوْمَ تَلْقَانِي فِي الْوَعْرِ (٩) الْقَنْوَبَةِ (١٠) وَطَانُو (١١)

- ١ - طرش : ضرب
- ٢ - كباس : زحم وملأ .
- ٣ - الدهم : جمع دهمه وهي السواد .
- ٤ - مروءة : مروءة .
- ٥ - الدُّرُق : المكان والناحية .
- ٦ - اللطام : الحرب .
- ٧ - يعني أنه يحترم رفيقه مهما فعل معه - وهو لا يكثر من لومه أو يتبع سيئاته .
- ٨ - خال : تحدث إليه في غلية وخلاء .
- ٩ - الوعر : المكان الخفيف .
- ١٠ - القنوبه : الخلاء والأرض الجافة العالية .
- ١١ - الوطاس : الأرض .

قلبي بكجن (١) النبيك كلام أمانو

وبجانب هذه القيم العامة التي تميز بها مجتمع المهبة كان له قيم خاصة . ونفسول خاصة لأن هذه القيم نابعة من المجتمع نفسه ومرتبطة به . ومن هذه القيم :-

أ - المسئولية التضامنية :-

رأينا فيما مضى من حديث عن قوانين المرافقة كيف أنها اشتملت على صور متعددة من صور الوفاء للرفيق . فهو دائماً موضع العناية والإكرام . ما وقع في مشكلة إلا تعاطف الآخرون معه وسعوا بكل ما يملكون لإنتشاله من معاناته . ثم أنهم إذا ما حدث له ما حملة على الغياب من أهل بيته قام رفاقه برعايتهم وتقديم كل ما يساعد على عدم أحاسهم بفقده . فهم يقدمون لهم المال ويعودونهم من وقت لآخر يخففون من بلوائهم حتى يكون ذلك بالنسبة لهم بمثابة العون على الصبر وإحتمال الفاجعة . ولا أظن أننا في حاجة لأن نعيد ما فصلنا القول فيه من صور وأشكال التعاون والتضامن الذي كان يسود مجتمع المهبة .

ب - عدم نهب الفقراء :-

ومن قيم المهبته أيضاً أن هناك أنواعاً بعينها من الإبل لا ينهبونها وهي إبل الفقراء من الناس . ومن ذلك ما يعرف في قاموسهم بـ « جمل القيد » . وفي ذلك يقول أحدهم « لاكين الشروجي ذا زاتو جمل قيد ما يخلو . جمل مربوط في الحلة ما يخلو إلا بشوف بكان النيل كؤم حتى بمشي يجر مينهن بمشي » (٢) . وكذلك هم لا ينهبون ما يعرف بـ « جمل الشيخ عبد القادر » ويعنون به الحمل الوحيد عند صاحبه . وحتى إذا جمعت هذه الجمال جميعاً لتكون قطعاً فانهم لا ينهبونها . كما أنهم لا ينهبون إبل المرأة . وهم لاشك يراعون في كل ما مضى الظروف الإنسانية للذي لا يملك غير يعير واحد ولا بد أنه في أمس الحاجة إليه وربما يكون معتمداً عليه في معيشته وترحاله .

ج - عدم نهب الأغنياء الكرماء :-

أن هدف المهبته دائماً الأغنياء والأغنياء البخلاء على وجه الخصوص . فهم إذا

١ - كجن : كره .

٢ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/١٨٩٦ .

جاءوا في منطقة وعلموا أن شخصاً ما من أصحاب الإبل مشهود له بالكرم ومساعدة المحتاجين والإنفاق على المساكين ، فانهم لا يتعرضون له بسوء . وهم دائماً يقصدون ذلك الذي يجمع الأموال ويكسبها ولا يجعل لأحد فيها نصيباً مهما أشدت به الضائقة :-

بالك (١) فاضى (٢) في روبة الغصون (٣) بيتقلم (٤)

و بيك ميملى (٥) يا الساحر (٦) عليك ميتكلم

الزول العلى كمش (٧) النة سود ميتعلم

نهجم دبرتو (٨) في القبسة (٩) الضياها مضلم

د - عدم نهب اليتيم :-

ومن القيم السائدة في مجتمع المهبة كذلك أنهم لا ينهبون مال اليتيم . وذلك لأن اليتيم في نظرهم أحوج ما يكون لهذا المال بعد أن فقد من يعوله . ونهب ماله يزيد الحزن المطبق عليه ويعنى فقده لما يمكن أن يتمول به في حياته .

الخلاصة :-

وخلاصة القول أن مجتمع المهبة مجتمع ذو قواعد تحدد أسس الدخول فيه وتنظم العلاقة بين أفرادها وهي علاقة تقوم على عدة صور من التعاون الذي تحتمه طبيعة الحياة نفسها . وله بجانب ذلك قواعد ترعى كينونته وتبين طبيعته وهي - أي هذه القواعد - مرعية إلى حد كبير من جميع أفراد المجتمع في تناسق وحسن نظام ودقة الترام . وتسود مجتمع المهبة قيم أخلاقية محفوظة . ومن هذه القيم ما هو من صميم المجتمع البدوي العربي ، ومنها ما هو خاص بذلك المجتمع نابع من داخله . وكل تلك النظم والقواعد والقيم هي وليد شرعى للظروف البيئية التي يعيش تحتها أفراد المجتمع نفسه ، على نحو ما رأينا .

١ - البال : القلب والباطر (٢) فاضى : خال

٣ - الروبة : هي الشعر . وتشتمل مجازاً لتعنى ما استطال من فروع الشجر

٤ - قلم : قطع (٥) تمل به : أعجبه

٦ - الساحر : اسم الحمل وهو من جمال الطيب ود ضحية

٧ - كش : كش من الشيء كشه إذا أخذته بقدر ما يملأ يده .

٨ - الديره : المكان

٩ - القبسة : من قبس : شعلة النار .

شعر الهباتة

مضمونه ، وظواهره الفنية والموضوعية

(١) المضمون :-

إن شعر الهباتة هو صورة من حياتهم . فهو يعبر عن طريقة تفكيرهم في الحياة ويعمل لهذا السلوك ويعكس ما يدور في نفوسهم . ففي هذا الشعر نجد تصويراً أميناً للمخاطر التي يتعرضون لها والمغامرات التي يخوضونها وقدرتهم الفائقة على تخطي العقبات التي تعصف بهم وصبرهم على الصعاب التي تجابههم كالجوع وانعدام الماء والمعارك التي يخوضون غمارها مع أصحاب الإبل المنهوبة أو رجال الأمن . ويشتمل شعرهم كذلك على آرائهم الاجتماعية والاقتصادية ، وآرائهم في غيرهم ممن لا ينتهجون نهجهم ، أولئك الذين ليس لهم من هم سوى مجالسة النساء والتلهي بسير الناس ونش عروضهم . ونجد في شعرهم بجانب ذلك فخراً بأنفسهم وبسطاً لمذهبهم والفلسفة التي يقوم عليها ، وطرحاً لقيمهم ومبادئهم ، تلك القيم والمبادئ التي تسود حياتهم وتحكم علاقاتهم ببعضهم وبغيرهم من الناس .

(١) شرح الدوافع والأسباب :-

تقوم حياة الهباتة على المغامرة الدامية . وهي حياة مهددة دائماً بخاطر الموت . ولذلك أدرك الهباتة بحسهم أنهم في حاجة شديدة إلى تعليل هذا السلوك في الحياة والدفاع عنه . ومن هنا جاء شعرهم يحمل الإجابة على السؤال الذي قد يخطر بذهن أي باحث في حركتهم عن الأسباب والدوافع التي حدثت بهم لإنتهاج هذه الطريقة في الحياة التي تقوم على النهب والسلب :-

عكنا طرينا يا المنوع ليالى لعيننا
وسينا سروجنا فوق النيب بعدما شينا
قلت نومي فوسية القرير الليننه
كم لي رضاها بي درب الدراهم غينا

وعلى هذا النحو أوضح شعرهم كل الأسباب والدوافع وراء حركتهم . فتحدث عن المرأة وعن القبيلة وعن الرغبة في اللهو والطرب وعن الفقر :-

من جبال حفرة (١) قمنا سربنا (٢)
بكرة في المزروب ملينا قربنا (٣)
جس الجالسة (٤) ترطن من الركوب مشغبنة
قماداً بي الفللس كيفن ليالى الصبنة (٥)

وعموماً شرح شعرهم الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تحيط بهم ولعبت دورها الكبير في خلق ظاهرة الهباتة التي كانوا هم فرسانها ، وأبطالها الذين يدافعون عن فكرتها ويلتزمون بقيمتها ونظمها وتقاليدها .

(٢) التوعيد والتهديد :-

تحدث الهباتة في شعرهم عن التوعيد والتهديد . وهذا التوعيد والتهديد موجه بالطبع إلى أصحاب الإبل التي هي غاية مناهم . وقد يكون ذلك موجهاً إلى شخص معين يسمونه ، أو إلى أصحاب الإبل عموماً أو إلى منطقة بأكملها يسمونها أيضاً . ومن ذلك قول الطيب ود ضحوية :-

ألييلة البروق فوق ألتبال ألتبنة
و شال نومي يا أب أبدأ مواركة (٦) ألتبنة (٧)
ألتنا والتيم (٨) يا ألتول بقي لي طبنة
وكتنا موبعيد بدى الدقادر (٩) ليننه (١٠)

- ١ - جبال حفرة : جبال بينها في كردفان .
- ٢ - سرب سربه : خرج لرحلة بعد الظهر .
- ٣ - القرب : الوطأ أي وعاء يعمل فيه اللبن والماء .
- ٤ - الجالسة : مقعد السرج . وترطن تكلم بالأعجية ويعني الشاعر أنها تحدث صوتاً .
- ٥ - الصبنة : صين المطر كف عن التهطل ولم يترك عدة أيام واسم العدة منها الصبنة .
- ٦ - ورك على الأمر قدر عليه وداوم عليه .
- ٧ - ألتبنة : هبع البعير مد عنقه في مشيته .
- ٨ - التيم : الترم . ونم غنى الشر وطرب .
- ٩ - الدقادر : تسبه إلى نهر الدندر ويقصد مناطق ذلك النهر .
- ١٠ - ليع : ضربه على قفاه بكفه .

وفي بعض الأحيان يوجه التهديد إلى شخص ما بسبب حادثة معينة . وقد روى أن الطبيب ود ضحوية قبض عليه بعد نهبه عدداً من الإبل وزج به في السجن . ولم يكن ذلك ليشنيه عما هو فيه ، بل زاده أصراراً على التمادى في عمله . ومن داخل السجن انطلق صوته متوعداً ومهدداً صاحب القطيع الذى كان سبباً في دخوله السجن :-

أليلة السجن جاب لو إنكتامه (١) وحسره
و نحن جرّار قو (٢) حدّث لى الجنين البره
سّحار الغروب راجينا كاضم (٣) الجرّه (٤)
بلحق بيك مراح (٥) حسّ الله وبين ما قرّه (٦)

وهكذا يث الهباتى تهديده ووعيده لأصحاب الإبل وهو دليل على سبق الإصرار وتأكيد الإصرار على التمادى فى الذى هو فيه مهما كان نوع العقاب الذى ينتظره على جريسته .

(٣) الحديث عن الرفاق :-

تعرضنا فيما سبق لقوانين المرافقة فى مجتمع الهبته ، ورأينا إلى أى مدى يكسبون التزام الرفيق نحو رفيقه . وكان من الطبيعى أن يتحدث الهباته عن ذلك فى شعرهم . وبالفعل جاء شعرهم حافلاً بالحديث عن أولئك الرفاق : تحدّثوا عن مواقفهم وعددو صفاتهم ووصفهم بالجدية والصمامه وقوة النفس والجسد . ولم يفتوا عند هذا الحد بل وصفوا شعورهم حين تفرق بينهم الأيام ، وهو شعور مكمل بالحزن والأسى والمشاركة الوجدانية فى المصائب . فقد روى طه الضرير أن رفيقه الطبيب ود ضحوية كان فى منطقة كسلا يبيع أبله له ، وهناك أتاه أن طه قد حوكم بالسجن . وتمضى الرواية فتقول : « الخبر جاهد فى كسلا قالو لو طه اتحاكم سبعة سنوات . هو زول بسيط وكت جاء

١ - انكتامه : الكتبه : شدة الحر .

١ - الجرق : الثور الذى يجر الساقية والمحراث . ونمت أيضا المجرّب .

٢ - الجرّه : ما يخرج البعير من جوفه ليسفنه مرة ثانية .

٤ - كضم : كرم : ضم فاه وسكت .

٥ - المراح : القطيع .

٦ - من مجلة الاذاعة والتلفزيون والمسرح ، عدد الخميس ١١ يوليو ١٩٧٤ م ص ٣١ .

لى الزبيديه (١) دليل ، لى مترلتو جاء غضبان . والزبيديه شافوا زول بسيط قبل يضحك . قالو لو ياأبو فاطنه انت الليله ما براك (٢) أصلا ماك براك . بعدين غنى يقول لهم :-

الليله النفس أمست حزينه وعامده (٣)
وما بتسلى بى برقع (٤) حميده وحامده (٥)
فارقنا الرباعه (٦) أبان (٧) قلوبا جامده (٨)
نام طه اللحو (٩) ضو القبيله الهامده (١٠)

فهم يعترّون برفاقهم ويعجبون بشجاعتهم وشدة مراسهم وقوة عزيمتهم واقدامهم :-

أمرار فى الكدّوس (١١) وأمرار سيجّاره أعلّب .
أمرار فى خلاء وأمرار بهيمه أسلّب
كم رابع جنين فوق الدرق يتلّب (١٢)
لى الباجينى (١٣) راسى (١٤) ومينو مانى مجلّب (١٥)

والواقع أن الحديث عن الرفيق يتخذ أشكالا مختلفة بدءاً بالفخر بشيائه ومضاء إرادته ، مروراً بالحزن على فقده - حتى ولو كان هذا الفقد مؤقتاً - وإنهاء بالوقوف معه وشد أزره والقيام بواجبه عنه والتعفف عن محارمه :-

١ - الزبيديه : من قبائل شرق السودان .

٢ - ما براك وما بلاك : تعنى أنك لست طيعيا أى أن وراك شيئا .

٣ - عامد : من عند اشتد حزنه .

٤ - برقع : غطاء الوجه معروف والزبيديه أكثر القبائل استعمالا له .

٥ - حميده وحامد : أسماء أعلام نساء .

٦ - الرباعه : الزملاء والاصدقاء .

٧ - أبان : أصحاب .

٨ - جمد الماء صار جليدا وهى هنا كناية عن الصلابة والشجاعة .

٩ - أحو : من الحوه وهى سواد الى الخضرة أو حمرة الى السواد فهو أحوى و « أحو » .

١٠ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/٣٥١ .

١١ - الكلبوس : الفليون (١٢) تلب : قفز

١٢ - الباجينى : الذى يجينى . (١٤) راسى : ثابت

١٥ - جلّب : فزع وخاف

مانى (١) الفاسد (٢) أل بنى الكيصب يشنى (٣)
سارح (٤) بنى العروض (٥) لى جارتى ما بدنى (٦)
با ستار من نضم الخشوم والتسبة
أنا أخو الزينة عند حل الرفيق والضبة (٧)

(٤) آراؤهم فى غيرهم :-

يفتخر الممبانه بعملهم ويمجلونه . ولذلك فقد رسموا فى شعرهم صورة
لحياتهم . وهى صورة تشع بالإشراق . وفى مقابل هذه الحياة المشرقة ، لفظ الممبانه
حياة أولئك الضعفاء الذين لا يسلكون ملكهم - وصوروا حياتهم فى شكل قائم وبغض
وخلعوا عليهم الألفاظ الدالة على الضعف وصغر الشأن (ناس قدر الله) و (المنفوخ
جراب الصوف) و (الديوك) وما إليها . وجاء شعرهم يقارن بين هؤلاء وأولئك :-

أكان شفتينا فى ساعة الدرك (٨) والخوف .
ما ينشلى بنى المنفوخ جراب (٩) الصوف
نحن أل ينكاور أم قوفه (١٠) ونسوقا ردوف
نحن ألدخل (١١) الحارة (١٢) العيصها ظرؤف (١٣)

فالممبانه هم الأقوياء دائماً ، يشقون الفيافى ويقتحمون الأخطار . أما أولئك فهم ساقطو
الهمم الذين يحومون من ظل إلى ظل ومن مجلس إلى آخر :-

١ - ماني : لست

٢ - الفاسد : الذى سامت أخلاقه .

٣ - تنياً : أخبر . وهى هنا بمعنى المفاخرة .

٤ - سرحت المواشى : ذهبت قرعى . وتستعمل « سرح » للرعاية عموماً .

٥ - العروض : جمع عرض (عرضى) : ما يصونه الانسان من نفسه أو من يلزمه أمره .

٦ - تديى : جاء متلصصاً .

٧ - الضبة : من ضب . شد القبض عليه .

٨ - ورد هذا الشعر فى « الشعر القومى فى السودان » ص ٢١٧ .

٩ - الدرك : الخطر (٩) الجراب : وعاء من جلد

١٠ - أم قوفه : الناقة

١١ - ألدخل : أى الذين تدخل ونغوص . (١٢) الحارة : الحرب

١٢ - الظرف : الوعاء ويقصد به هنا ظرف الذخيرة (٧) ديمه : دائماً

واحدين فى البيوت ديمة (١) مكبرين عتامن
عندموا الحيلة والزول اب عوارض (٢) لا من
واحدين صنددوا (٣) وختوا الضربير قيدامن
طبقتوا العودة لى الماسكات عداد ايامن

فهؤلاء فى نظرهم لا يساوون شيئاً مثلهم كمثل « الديوك » التى لا تبارح الحى وتحرك
ألباً دون إرادة وحول :-

من برئو (٤) حيلة البقارة

صبيح بتانى (٥) فى اب قروود (٦) لا يساره

واحدين فى البيوت زى الديوك تيساره

أبو سريج قفا (٧) بنى قصارى (٨) يوقيد ناره

ومن هنا كان عملهم هو العمل المثلل وكل ما عداه من أعمال فهو وضع وحقير :

واحدين أملوا البرازة (٩) والحشاشة

واحدين أملوا فوق سيرة الحواشبة (١٠)

واحدين أملوا الركبة المعاهما جعاصبة (١١)

ود الثور حليل بهما (١٢) متامو حناسة (١٣)

١ - عوارض : نوع من الشلوح واب عوارض وام عوارض وصف للمرأة .

٢ - صندد ، المصندد : الصنديد والصنديد الشجاع .

٣ - ورد هذا الشعر فى شريط رقم م/د/١/٢٥٨ بالارشيف .

٤ - برئو : لعله اسم قرية .

٥ - بتانى : مثنى بخطوات بطيئة ثابتة

٦ - اب قروود : اسم مكان ببيت .

٧ - قف : ذهب وتول .

٨ - قصارى : جبل قصير وهو نوع محمود من الجمال .

٩ - البرازة : تقاء لدق القمح

١٠ - الحواشبة : قطعة من الارض محوشة وهى عشرة أقدنه فى الجزيرة والمناقل وخمس فى مشاريع الاصلاح الزراعى .

١١ - جعاصه : المقدرة والتباهى .

١٢ - البهم : فى البادية يقصد بها الصيد الصغيرة .

١٣ - حناسة : من حنس : أغرى وأرضى .

فعملهم محط فخرهم ، وهو عمل يتم عبر طريق مخوف بالمخاطر لا يستطيع أن يسلكه ذلك الذى فى نفسه ضعف وفى جسده لين :-

الدرب الجيب كش النقود مو هين
ما بمشيهو ديك بيتو أب جليداً لـين
..... الخ

تحدث الهباته أيضاً عن فئة أخرى من الناس ، وكانوا يطلقون عليهم « البلايس » ومفردها « بلاسى » وهو الجاسوس والمخبر الأجير . وقد كان هؤلاء يشكلون صداعاً دائماً للهباته لأنهم يوشون بهم لدى أصحاب الإبل أو الساطة . ولذلك فقد عاب عليهم الهباته هذا المسلك وهجومهم فى شعرهم :-

أيل جفكن (١) على أبو فامس (٢)
ما يجيهين (٣) ودّيمة وما يجيهين البلاس
جيس رصاصهين بككى زى صبة أم هرامس (٤)
ما بترضى لتانى جيبه السروج يباس

ولعلم الهباته بخطورة هذا النوع من الناس على جماعتهم فقد تناصحوها وتواصوا بتفادى الطرق المؤدية إلى ديارهم :-

أولد البيدور يسوق أم راس (٥)
يصندد (٦) بى الحلاء ويحارب ردة (٧) البلاس
أمن جاب مالا فترح أم خراس (٨)

- ١ - جفل : نفر وشرذ .
- ٢ - أبو فاس : مكان بعينه فى كردفان
- ٣ - جاب الشىء : أتى به .
- ٤ - صب الماء : سكه . وأم هرامس فى غرب كردفان تعنى الأمطار الغزيرة .
- ٥ - أم راس : الناقة
- ٦ - يصندد : يضرب فى الحلاء
- ٧ - الرده : الرد وهو الملجأ والمأوى والناحية .
- ٨ - خراس جمع خرس : حلقة الذهب والفضة للزينة ويقولون فى جميعها أيضاً « خروس » وأم خراس كناية عن المرأة التى تزين بها

أما أب صلعة (١) جاجى (٢) فوق ضلأعو و حاس

وهؤلاء كانوا معروفين للهباته بأسمائهم ومعروفة ديارهم كذلك :-

قام مين دار برتنى (٣) وأتوجه المزروب (٤)
سريع فوق خبئو (٥) أب ساقاً تقول مصبؤب (٦)
دومانك جندولاً حاكّن اللشيبؤب (٧)
سوق لى يميناً ولا نحدّرنا (٨) فوق ياقوب (٩)

(٥) ذكر الأسلحة :-

يعتمد الهباتى فى حياته على قوة نفسه وجسده ، وقوة سلاحه . فاذا تحدث عن العنصر الاول فى نجاحه ، فلا بد أنه ذاكر الثانى لهذا النجاح وهو السلاح . حيث أن القوة والشجاعة لا يكفيان لتحقيق النصر وتأمين الكسب . أما سلاحهم فهو سلاح عرب البادية وسلاح اهل السودان عموماً المكون من السيوف والفؤوس والدرق وبعض أنواع الأسلحة النارية . وأكثر أنواع الأسلحة وروداً فى شعر الهباته هى : السيف والدرقه (١٠) وضروب من السلاح النارى . أما السيف فانهم يكون عنه بألفاظ منها « القداد » ، و « المارى » ، و « الحاد » ويكونون عن الدرقه « الصايه » ، أما أنواع الأسلحة النارية فقد ورد منها فى شعرهم « أب جقره » و « القربين » و « أب خمسه » و « أب مته » و « أب عشره » . وقد جمع أحد شعرائهم كل هذه الأنواع من السلاح فى قوله :-
بعد اب جقره والمارى الياكل الصايه

- ١ - اب صلعه : صقر الرمه ويسمونه كذلك لخلو مقدم رأسه من الشعر .
- ٢ - جاجى هى جاجى : أى تحرك كثيراً وفى « جاجى » تعبير صوتى لأن الصقر يحدث مع تحركه صوتاً يشبه نطق الفعل « جاجى » (١١) حاس : تحرك .
- ٣ و ٤ - : دار برتنى والمزروب أماكن فى كردفان .
- ٥ - الحلب : نوع من المشى وفيه مراوحة بين اليدين والرجلين
- ٦ - صب المعلن : مزجه وهو سائل على شكل مبيّن
- ٧ - الاشوب : الشؤوب من المطر
- ٨ - حدر وانحد : نزل وهبط
- ٩ - ياقوب : هكذا ينطقونها فى غرب السودان ويقصّون يعقوب .
- ١٠ - الدرقه : المجن .

حققتها يا أخوى العبوس مى دايمة (١)

الخ.....

على أن الهباني يذكر هذه الأسلحة مفتخرا بجزائته لها ومعترزا بمصاحبتها له ،
مكتفيا بالإشارة إليها دون تفصيل . فليس في شعرهم وصف دقيق لهذه الأسلحة من
لونها وشكلها أو طريقة صنعها . وهذا يرجع الى أنه يهتم فقط بما تفعله في أعدائه .
فالذى يهمه هو أصالتها واطاعتها له حين يلهم الأمر وتشتد به الحاجة إليها . وهذا
يرجع أيضا لطبيعة حياتهم التي ليس فيها مجال للوقوف والتأمل :-

جَبَدُوهين (٢) كُرَّة شَدَّوهين البُنَّاع (٣)
و دَرَعُوا البَاَزَة (٤) قَبَضُوا أم سِنَه (٥) والقَطَّاع (٦)
في بالنَّ بَعِيد القُود (٧) طَوَّال البَنَّاع
الْفَرَن (٨) تمام ما إترأوحن (٩) جُمَاع (١٠)

(٦) - علاقتهم بالسلطة :-

تنوع الحديث عن السلطة في شعر الهبانية . فهي أحيانا رجل الأمن الذي يكلف
بالقبض عليهم ، وهي أحيانا العمد والنظار الذين يمثلون أمامهم للمحاكمة ، وهي أخيرا
مأمير السجون الذين يتولون أمرهم في السجن . وقد صور الهبانية كل ذلك في شعرهم .
والنغمة السائدة في الشعر الذي يتحدث عن علاقتهم بالسلطة هي الإستخفاف والتحدى
واللامبالاه في حالة المواجهة حين تصبح واقعا لا مفر منه . ولكنها قبل ذلك تفادى هذه

١ - لبثية الشعر أنظر « الشعر القومي في السودان » ص ٢١٧ .

٢ - جبهون : الضمير بحال الركوب . وجيد بمعنى قاد وساق .

٣ - البناع : من يتبع : اشتد عنقه أو مفاصله فهو أبتع .

٤ - البازة : الدرقه .

٥ - أم سنه : نوع من السلاح الناري .

٦ - القطاع ويقولون الكقطاع أيضا : السيف .

٧ - القود : الإبل .

٨ - الفرَن : فر هنا بمعنى خرج للمرمى .

٩ - إترأوح : رجع .

١٠ - جماع : مجتمعات ويعنى هنا ان الابل لم يرجعن كاملات كما خرجن .

المواجهة . ولذلك جاء شعرهم مصورا لمواقفهم مع كل فئة من هذه الفئات التي تمثل
السلطة :-

ألبلد اللبوك عمدو وجفوك نظارو (١)
ليه المتلنا بقدل وبحوم فى ديارو
النلوى حكارى فى العند مشيهو حاكى عصارو
منو البانينا غير المولى واسعه ديارو ؟

والهباني ذو طبيعة منطلقة بعكس شعرهم أنهم قوم يحبون للانطلاق والحرية كما
يمكس حياة الرفض المتبادلة بينهم وبين الحكام (٢) فهم يرفضون هذه السلطة ويتحدونها
في قوة وشجاعة -

ألولد البيطره القيمه صعيد كتمور (٣)
بيكاوش (٤) فى البكار (٥) بى خلاء وعتمور (٦)
ميد ليهين الدنيدر (٧) المذمكوز
ما خصانا فى العممد المعا أبو النور (٨)

ويحكي شعرهم كذلك مواجهتهم مع رجال الأمن وإصطدامهم بهم ، ويفخرون
بصمودهم أمامهم وصدهم لهم -

كبستنوا البحر فميشلتهيات يبتاش
والقول نوى بى الهرمة وردف عبتاش
النادره النطلع عنوانها مآلو قيباش
صدوا قماحة ناس قنبور مع القصاص

١ - راجع الشعر القومي في السودان ص ٢١٣ .

٢ - الشعر القومي في السودان ص ٢١٣ .

٣ - كسمور : مكان بيته .

٤ - كاوش : بمعنى هجم وحاول القبض .

٥ - بكار : جمع بكرة وهي الصغيرة من الابل .

٦ - عتمور : صحراء جمعها عتامير .

٧ - الدنيدر : تصغير الدندر ويعنى منطقة نهر الدندر .

٨ - أبو النور : ناظر الكواهلة .

أما الفئة الثالثة التي صور شعر الحبابة علاقتهم بها فهي فئة مأمير السجون . فقد صوروها مقابلاتهم معهم ، وكانت هذه المقابلات تظهرهم بمظهر الأقوياء الذين لا تلين لهم قناة ولا تنهار لهم قوة أو إرادة ولا تنكسر لهم شوكة . وهم حين يقفون مثل هذه المواقف إنما يقفونها لإغترادهم الجازم بأن هدفهم أكبر من كل صنوف العقاب :-

ما تثنرنى يا قبطى السجن مؤ حاجة
بيش نرضيها غير أليل جداينة الباجة

وكان لعلاقة الحبابة بالسلطة ومن يمثلونها وجه آخر . فهم لم يكونوا دائماً يفلتون من قبضة القانون . ففى بعض الأحيان يتغلب عليهم رجال الأمن حيث يؤخذون لينفذ فيهم حكم القانون - وهو السجن في معظم الحالات . ولكن رغم ذلك لم يكونوا يبذلون ما يدل على أنهم سوف يقلعون عما هم فيه . بل إنهم ليدكرون صراحة أن كل أنسواع العقاب لن تنهيهم عن هذا الأسلوب الذى إختاروه فى الحياة :-

ألييلة البرق من عَصرو عمت (١) الفجة (٢)
ما فى مضارى (٣) غير قيرة (٤) وصقيعة (٥) وبلجة (٦)
فى شأن (٧) الزنازين (٨) والسجون والحجة (٩)
ما ينخلى يا الصديق (١٠) مرأيت (١١) فجة (١٢)

ويلغ استهتارهم بالسجن حداً يصرحون معه بأن الذى يهمهم ليس هو السجن

- ١ - عمت : غطى .
- ٢ - الفجة : الفرجة فى لغتنا ويقصد بها هنا المكان .
- ٣ - مضارى : جمع ضري وهو من ضارى : أغشى وستر وتضارى استتر .
- ٤ - قيره : البرد .
- ٥ - صقيعة : الفضاء والخلاء .
- ٦ - بلجة : اللجة : معظم الماء . ويقصد بها هنا الظلام .
- ٧ - فى شأن : فى شأن أى من أجل ويجب .
- ٨ - الزنازين : جمع زنزانه : حجرة السجن .
- ٩ - الحجة : كثرة الكلام .
- ١٠ - الصديق : أحد رفاقه ولعله الصديق ود التركاوى البطحاني .
- ١١ - مرأيت : جمع مريبيت وهي الناقة .
- ١٢ - فجة : الفجة شعر الناصية يطول - ويكنى بها عند الهدنوة لأنهم يتركون شعرهم يطول .

والمشاق التي تقابلهم فيه ، إنما الذى يهمهم هو فراق محبوباتهم أو صديقاتهم من الغوانى :

ظبط النمره (١) والباب العلى قافلينو
مشن همية (٢) يا ربى العقاب (٣) كيفينو (٤)
الزول أب قيرينا (٥) بى الحمر (٦) لا فحنو (٧)
وجت (٨) نارى من زولا مطول مينو

(٧) الحياة المضطربة :-

كان القلق وعدم الاستقرار النفسى والمكانى هى السمات المميزة لحياة الحبابة . وكان لابد لشعرهم أن يعكس هذا الإضطراب وإنعدام الطمأنينة . وكان الإضطراب فى حياتهم ذا شقين : الإضطراب النفسى من ناحية ، وعدم الاستقرار المكانى من الناحية الأخرى . وقد جاء شعرهم حاوياً للصورتين .

أما الإضطراب النفسى فيتمثل فى أنهم يعيشون لحظات من النعيم سرعان ما تنقضى فيحزمون أمرهم ويعتلون ظهور جمالهم من جديد متعرضين لمخاطر الطريق ، يستبد بهم الظمأ أحياناً ويمتنص الجوع إمعاءهم أحياناً أخرى ، وتلهب الريح المحرقة أجسادهم فى مرات كثيرة :-

يوماً فى بسط عند المقام نومنا
ويوم نضارى من لفح السموم بى هدومنا
..... الخ

وفى حالات أخرى تقتلهم الحيرة وتشتد بهم الحاجة إلى بعير يسافرون عليه ،

- ١ - النمره : الرقم والعدد .
- ٢ - مش همية : ليس مهما .
- ٣ - العقاب : البقية ، ما تخلف من الناس والأشياء .
- ٤ - كيفينو : أى كيف هو ؟
- ٥ - قرين : تصغير قرن : الشعر فى مقدمة الرأس المرأة أو الشعر عامة .
- ٦ - الحمر : أخلاط من المطر تمنع بعضها وتترك حتى تختمر وتكون من مسحوق الصندل والمحلب والزباد والمسك والقرنفل والصفرة .
- ٧ - لا فحنو : اللجة : الزكام . ولا فحنو أى صبا على المطر المذكور .
- ٨ - وچ المطر : انتشر وقاح . والنار تأجت والنار وجاجة .

ثم ينهزم الخبير عليهم فجأة فيعودون للهوهم وطربهم ويفرقون في بحور النعيم ، ولكن نعيم سرعان ما ينتفضي فيعودون إلى سيرتهم الأولى :-

يُوم في سُولَا (١) متحير ركوبتي حمار
وَيُوم مِتَعَلَى فوق كَبِك (٢) أَلْدَا (٣) أَبْ فَتَار (٤)
لَيْلَة بَدِير (٥) أم بَرَطُوم (٦) يَمِين وَ يَسَار
لَيْلَة بَبِيسْط الزينات (٧) بَنَات الدَار (٨)

فليس هناك يوم كالذي مضى ولا ليلة كالتى انقضت ، ومذاق هذا اليوم غير مذاق الأمس والغد ، وطعم هذه الليلة ليس كطعم التى مضت أو التى تلى . تناقض فى الحياة بين اليوم والأمس تنعكس آثاره على النفس . ولكنها الحياة التى ارتضوها لأنفسهم :-

يُوم مَجْنِبِين (٩) مامسكين نَقِيب (١٠) الهو (١١)
يُوم في لَيْلَة يَابَسِين فوق سُورِجَن كَو (١٢)
مَبْرُومَة الحشا (١٣) الميها التخيئة أم بَو (١٤)
يُوم بَنَجِيهَا نازلين زَي صُقُور أَلُو (١٥)

١ - سولا : لعله اسم مكان .

٢ - كيك : الحمل القوى .

٣ - المدا : لعلها من مد أى ذهب ومشى - وتكون بمعنى السفر .

٤ - الفقرة : قفا الرقة وجسمها فقار وفقرات .

٥ - بدير : من دار وأدار .

٦ - أم برطوم : البراتم : الشفاه . وام برطوم المرأة .

٧ - الزينات : جمع زينة : وهى من زين الشيء إذا حسنه ويقول الشيء زينه أى جميل .

٨ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/٣٥٨ .

٩ - جنب : قوى (١٠) نقيب : الطريق فى الجبل .

١١ - الهو : الخلاء .

١٢ - كو : كلمة صوتية تدل على القوة والجفاف والنشاط .

١٣ - مبرومة الحشا : كناية عن ضمور الحصر .

١٤ - بو : الرجل البو الفارغ . والبو فى الاصل ولد الناقة أو جلد الحوار يحشى قبا أو غيره فيقرب من ام

الفصيل فتخدع وتغطف عليه فتدر .

١٥ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/٣٥٨ .

ومن الناحية الأخرى ، كان الهمبانه جوايين للافاق لا يستقرون فى مكان . فيوما فى « جبره » ، واليوم الآخر فى القاش ، واليوم الثالث فى « جبل سقدي » يخططون لغزوة جديدة :

شَدَوْهين مع اللوكات (١)
عَقَدُوا الشَّوْرَة من سَقْدَى (٢) وَخَبِيرُهُم (٣) فَات
الْخَبِيرِ الْوَقَع هَج (٤) الْمِدِيرِيَّاتِ
أَبُولُك يا الزَّيْنَة رَكَازَة (٥) التَّقِيلَة انْ جَاتِ

وإذا خاب فألهم فى « سقدي » ، سرعان ما يشدون الرحال الى غيرها من البلاد ، رحيل دائم ، وما مكان فيه ابل ، الا وطاته أقدامهم :

شَقِينَا (٦) الْبَلَدَ لى الدالِى والمزْمُوم (٧)
عَرفْنَا الْوَاقِعَة (٨) يا السَّاحِر مِتِين يَتَقُوم
سَيَّات (الودوب) والقرقد (٩) المزدوم
على بَلِيد نَامَة (١٠) مَوْعُود بى السَّعْر لا تُنُوم

إن هذه الحياة المضطربة التى يشوبها القلق قد جعلت الهمبانه يشعرون شعوراً عميقاً بأنها حياة لاحظ لها من الطول ، وأن الموت يترصدهم ويتعقبهم فى كل لحظة وحين . ولكنهم كانوا يخففون وطأة هذا الشعور القاتم بقرب النهاية بالإعتقاد بأن لكل إنسان أجل مكتوب ، وأن الله وحده هو المتحكم فى المصائر . ونتيجة لهذا الشعور السدى

١ - اللوكات : الأوقات ويقصد فى الصباح الباكر .

٢ - سقدي : جبل بين مدينتى سنا وكونتى

٣ - خبيرهم : الخبير : الدليل

٤ - هج : هج أى أثار وهيج .

٥ - رَكَازَة وركيزه : عمود من بناء يرتكز وتستند عليه بقية الأشياء .

٦ - شقينا : من شق الطريق إذا قطعه .

٧ - الدال والمزوم : أماكن جهة منجبه .

٨ - الواقعة : المصادمة فى الحرب .

٩ - القرقد : الشمر المجعد ، والشمر عامه .

١٠ - نامة : إحدى النوانى .

الذى سيطر على نفوسهم ، فقد كثُر الحديث عن الموت فى شعرهم :-

الرَّيْحُ لِيَهَا خَالِقُ بَابًا مُوْ مَكْنُوم (١)
الرُّوحُ مَا يَنْتَقِرُ الْحَيَّةَ (٢) غَيْرَ الْيَوْمِ

الخلاصة :-

لقد صور شعر الحميات كل ما يتصل بحياتهم . فتحدث عن الدوافع وراء إلتهاجهم لهذا الأسلوب فى الحياة . وعلل لعملهم هذا تعليلاً لا يترك مجالاً لسؤال . ثم أنهم - ومن خلال هذا الشعر - طرحوا آراءهم والأسس الفلسفية لمذهبهم . كما بسطوا آراءهم فسي غيرهم ممن لم يتهجوا فهجهم فى الحياة فهجهم وسخروا منهم ومن خمومهم وبقائهم فى « البيوت » ووصفهم بالجن والخور وضعف العزيمة . كما جاء شعرهم حافلاً بصنوف التوعد والتهديد لأصحاب الإبل التى هى مرام نفوسهم وهدفهم المقصود . وتحدثوا كذلك عن رفاههم وعددوا الصفات الحميدة التى يتحلون بها ونعتوهم بالشجاعة والصمامة . وصوروا مظاهر الوفاء فى مجتمعهم . وذكروا فى شعرهم أنواع الأسلحة التى يستخدمونها فى عملهم هذا ، والتى هى الثوة الثانية التى يعتمدون عليها فى مقابلة الشدائد ومواجهة الخطر . بعد قوة النفس والجسد . وحفل شعرهم بالحديث عن علاقتهم بالسلطة وموقفهم منها بالتفادى أو بالمواجهة والتحدى والسخرية والإستخفاف . وصور شعرهم بجانب ذلك حياتهم المضطربة التى لا تستقر على حال . وجوبهم الآفاق وتشردهم فى الخلاء وراء الغنمة أو « الرزق » كما يسمونه . كل ذلك صورده الحميات فى شعرهم وتحدثوا عنه . فكان شعرهم بذلك هو المرآة التى إنعكست على صفحتها صورة حياتهم بكل ظلالها وخطوطها وأبعادها .

(٢) الظواهر الفنية والموضوعية :-

(١) البناء الفنى :-

إن شعر الحميات هو من نوع الشعر الشعبى المعروف فى السودان بـ « الدوبيت » . وهذه الكلمة « دوبيت » مركبة من « دو » وتعنى بالفارسية (إثنان) و « بيت » العربية . وبذلك يكون معناها (البيتان) . فالدوبيت - كما يقول الدكتور عبد المجيد عابدين ،

١ - مكثوم : الكثرة ، شدة الحر .

٢ - الجته : الجته وهى جسم الانسان

هو فى الأصل وزن فارسى إستعاره بعض شعراء العصر العباسى ونظموا فيه (١) . ويمضى فيقول بأنه لا توجد صلة بين وزن الدوبيت الفارسى هذا ، وبين وزن الدوبيت السودانى . وهو يصف وزن الدوبيت البدوى السودانى بأنه رجز عربى قديم يختلط أحياناً بوزن الكامل ، ويسبق تفصيلات كل شطر مقطع زائد أو مقطعان (٢) . وهذه الزيادة فى فى الوزن تعرف بـ « الخزم » .

والدوبيت السودانى ينقسم إلى رباعيات تتألف كل رباعية من أربعة أشطار تنفق فى القافية . وهذه الأشطار الأربعة تؤلف بيتين . ومن هنا كان التأثير الفارسى فى القافية أوضح منه فى الوزن بالنسبة للدوبيت السودانى . إذ أن هذه الخصائص تصدق على معنى « الدوبيت » وهذا يعنى أن لفظ الدوبيت ينطبق على نظام التقفية وتجمع أبيات المنظومة فى رباعيات . ولكنه لا ينطبق على جوهر الوزن ، إذ أن الوزن - كما قلنا - ليس إلا رجزاً عربياً (٣) .

ويبدو أن هذا الاختلاف فى جوهر الوزن بين الدوبيت السودانى والدوبيت الفارسى أوجد الفرصة للوقوف عند التسمية نفسها . وفى هذا يرى الطيب محمد الطيب أن « كلمة الدوبيت أشاعها المتعلمون الذى قرأوا تاريخ الأدب العربى . أشاعوها من خلال كتاباتهم ومن الراديو ومن المنابر العامة » (٤) . ويعطى هذا الضرب من الفن اسماً غير الدوبيت فيسميه « المربع » . ويقول : « يطلق لإصطلاح الدوبيت عند المجموعات المستقرة فى السودان على ما تعنيه بالمربع » (٥) ويمضى فيقرر بأن « أهل هذا الفن من البوادرى والأرياف فلا يعرفون كلمة دوبيت . . . وربما أسموا هذا المربع « تجاوزا » (الدوباي) وهى تسمية أقرب إلى المعنى من الدوبيت » (٦) .

التشطير :-

يتألف الدوبيت السودانى من حيث شكله البنائى من أربع شطرات تنفق فى القافية.

١ - عبد المجيد عابدين من الأدب الشعبى فى السودان ، الدار السودانية ، بلا تاريخ ص ١٧

٢ - المبارك ابراهيم وعبد المجيد عابدين ، الحردلو شاعر البطانة ١٩٥٨ ص ١٩ .

٣ - من الأدب الشعبى فى السودان ، ص ١٩ .

٤ - الطيب محمد الطيب ، دوباى ، مصلحة الثقافة ، بلا تاريخ ، ص ٢٢ .

٥ - نفس المصدر ص ٢١٣ (٦) نفس المصدر ص ٢١٣ .

هذه هي الصورة الغالبة، ولكن ليس هذا هو الحال دائماً، ففي بعض الحالات يأتي الدوبيت مكوناً من ثلاث شطرات . وفي ذلك يقول الدكتور سيد حامد حريز : « ومن النادر أن نجد دوبيتاً ثلاثياً » . ويمضى فيقول : « ويلازم الدوبيت الثلاثي إحساس بالتقصير في الوزن والبناء الفني » (١) . ويسمى هذا الدوبيت الذي يحىء على شكل ثلاث شطرات دوبيتاً أعرجاً . وقد تميزت بهذا الضرب من الدوبيت بعض مناطق السودان دون غيرها . يقول الدكتور عز الدين إسماعيل مشيراً إلى ذلك : « هذا الضرب تتميز به كردفان ودارفور في أكثر الحالات ، على أننا نجد نماذج لهذا الدوبيت الأعرج لدى الشايقية في شمال السودان » (٢) .

كما أن الدوبيت يرد في أربع شطرات في الغالب . وفي ثلاث شطرات أحياناً . فانه من النادر أن يرد في خمس شطرات .

المسدار (٣) :-

نظم الشعراء الشعبيون في السودان قصائد من الدوبيت في أغراض محددة . وقد عرفت هذه القصائد : « المسابير » وواحدتها « مسدار » . والمسدار عبارة عن قصيدة تتألف من عدد من الرباعيات التي قد تختلف في القافية .

هذا وقد تعرض عدد من الباحثين والمهتمين بدراسة الشعر الشعبي واللغة العامية في السودان لشرح لفظ « مسدار » ودلالته في مجال الشعر الشعبي . فقد جاء في « قاموس اللهجة العامية في السودان » ، أن : « المسدار في البطانة بالسودان هو مكان الرعى أو الجهة التي تتوجه إليها البهائم . ومن هذا أخذوا لإصطلاح المسدار في الشعر خاصة عند الحارذلو الشاعر القومي حين يتحدث عن مسدار الصيد وغيره فهو يتناول الرحلة ومراحلها بالوصف والتصوير » (٤) . ويضيف القاموس إلى ذلك أن المسدار قد تعنى القصيدة من حيث هي . وهذا يعنى أن لفظ « مسدار » يعنى في الإصطلاح الشعري تناول الرحلة ومراحلها بالوصف والتصوير .

- ١ - د . سيد حامد حريز ، فن المسدار ، دار التأليف والترجمة والنشر ، جامعة الخرطوم ١٩٧٦ من ٤٤ .
- ٢ - الشعر القومي في السودان ص ١٤ .
- ٣ - للمزيد عن معنى ونشأة وتركيب المسدار الفني راجع « فن المسدار » .
- ٤ - قاموس اللهجة العامية في السودان ص ٣٤٣ .

وجاء في كتاب « الحارذلو شاعر البطانة » عن معنى المسدار ما يلي : « ولفظ مسدار في اللهجة السودانية معناه الحكاية أو القصة ، وهو من الفعل سدر مقلوب (سررد) العربية » (١) . وقد تصدى الدكتور عز الدين إسماعيل لهذا المعنى وأبدى إعتراضه عليه . فقد ذكر أن لفظ سدر يرتبط بمعنى السير والإيغال في الطريق . ويرى أنه لكسى تأخذ كلمة المسدار معنى الحكاية فإنه يلزم أن تكون مقلوب مسراد ، وليست هناك كلمة بهذا الشكل . ويرجح أن تكون كلمة المسدار مشتقة من (سدر) بمعناها المعروف « أى ذهب لا يثنى . ويصل الدكتور عز الدين إسماعيل بالمناقشة إلى قوله : « نخلص من كل هذا إلى أن المسدار هو تصوير لرحلة عبر المكان أو الزمان أو عبر المكان والزمان معاً » (٢) .

أما الدكتور سيد حامد حريز فيقدم دراسة لفن المسدار مدعمة بنماذج من المسابير . وفي هذه الدراسة يتعرض لمعنى المسدار ونشأته وتطوره وأسلوبه الفني وعلاقة المسدار بالشعر العربي القديم وغير ذلك من المواضيع المتصلة بهذا الفن من الشعر الشعبي . ويهتأ هنا ما ذكره عن معنى المسدار وشكله . فهو يذكر أن « المسدار » (وجمعه مسابير) يمثل نوعاً معيناً من القصائد الشعبية التي تسير على نمط الرجز الرباعي ، وتعنى بسررد ومتابعة رحلة الشاعر إلى ديار محبوبته أو إحدى صديقاته من الغواني (٣) . وهذه الرحلة إما زمانية وإما مكانية . وفي حالة الرحلة المكانية يكون معنى « المسدار » ذهب لا يثنى في طريقه نحو محبوبته . وفي حالة الرحلة الزمانية يكون بمعنى « أوغل في الحب فهو لا يثنى عنه رغم تعاقب الفصول والأنواء » .

وذكر الطيب محمد الطيب أن « المسدار فن قائم بذاته ووحدته هي القصيدة ذات النفس الطويل التي تحكى تجربة متكاملة » ويمضى فيقول : « وهو تطور للشعر المربع (يعنى الدوبيت) لأن الهيكل البنائي للمسدار يتكون من تلك المربعات التي نتحدث عنها » (٤) .

- ١ - الحارذلو شاعر البطانة ص ٢٠ .
- ٢ - الشعر القومي في السودان ص ٦٥ .
- ٣ - فن المسدر ص ١٤ .
- ٤ - دوبيى ص ٢١٦ .

نخلص من كل ذلك إلى أن « المسدار » هو قصيدة تتألف من عدد من المربعات وتعنى برصد رحلة الشاعر إلى ديار محبوبته . وهذه القصيدة لها هيكل وبناء معهود يرسم الدكتور سيد حامد حريز صورته كما يلي :-

أ- الإستعداد لرحلة الحب وتهيئة الحمل وصاحبه لها .

ب- بداية الرحلة .

ج- وصف الطريق لديار المحبوب ويتخلل ذلك وصف الشاعر لهذا الحبيب ووصف للجمل الذى يجمع المحبين .

د- تبشير القرب من ديار الحبيب .

هـ- الوصول والإستقبال .

و- ما بعد الوصول من تمتع المحبين باللقاء وبأنس المجوع .

ويعلق الدكتور حريز على هذا التركيب للمسدار بقوله : « يختلف هذا التركيب والبناء اختلافاً طفيفاً من مسدار لآخر . فمثلاً قد تبدأ بعض المسادير بالرحلة مباشرة من غير اهتمام بوصف الإستعداد لها . كذلك قد تنتهى بعض المسادير بمجرد الوصول إلى ديار الحبيب . إلا أن المسادير - فى الغالب الأعم - تحافظ على هذا التركيب « (١) » .

شعر الهباته :-

قلنا أن الدوبيت هو القالب الذى نظم فيه الهباته شعرهم . ولذلك فإن ما يقال عن الدوبيت من حيث بنائه الفنى ونظام تشظيره ينطبق تماماً على هذا الشعر . فهو فى الغالب يتكون من أربع شطرات ، ولكنه فى نفس الوقت ، لا يخلو من الدوبيت الثلاثى والحماسى . والنصوص التى بين أيدينا تدلنا أن شعر الهباته يرد فى معظم الأحيان فى أربع شطرات . وهذه هى الصورة الأساسية لشعر الهباته فى منطقة البطانة . أما فى منطقة كردفان فهناك القليل جداً من شعر الهباته الذى يرد فى ثلاث شطرات . هذا وقد ذكر محمد أحمد إبراهيم وهو يتحدث عن الدوبيت لدى حمر أن الغالب فيه كونه مؤلفاً من أربع شطرات وأحياناً يكون من ثلاثة وفى حالات قليلة يكون من خمس شطرات (١) . وقد لاحظ أنه فى حالة الغناء يتكرر الشطر الثانى من الدوبيت الثلاثى .

١ - فن المسدار ص ٥١ .

٢ - محمد أحمد إبراهيم ، ملامح من التراث الشعبى لقبيلة حمر ، شعبة إبحاث السودان ١٩٧١ م ص ١٣٥ .

وهذا يدعم ما ذكر من أن الدوبيت الثلاثى يصاحبه إحساس بالتقصير فى البناء الفنى وبسبب ذلك يسمى أعرجاً .

(٢) المسادير فى شعرهم :

إن المسدار بالصورة التى عرفناه بها له وجود فى شعر الهباته . ولكن هذا النوع من القصائد قليل فى شعرهم . ولا بد أن نشير هنا إلى أننا نتحدث من واقع النصوص التى بين أيدينا ولعل أصدق مثال نسوقه هنا ، لتأكيد أن المسدار لا يشكل إلا نذراً يسيراً من شعر الهباته . هو الطيب ود ضحوية . فالطيب ود ضحوية من أكثر الهباته شعراً ، وشعره وحده يشكل ديواناً قائماً بذاته . ومع ذلك لم يرو له إلا مسدار واحد . وطه الضرير الذى روى شعره بنفسه ، لم يرو منه من المسادير سوى إثنين : يتكون أحدهما من ست رباعيات وشطرتين . ويتكون الثانى من ثلاث رباعيات وشطرتين . والواقع أن هذين المسدارين لا يحويان خصائص المسدار التى سبق الحديث عنها . فهما لا يصوران رحلة إلى ديار المحبوب ، وبناءهما ليس هو البناء المعهود للمسادير . ولذلك يصعب إعتبارهما من « المسادير » . ولعبد الله ود المتقدم : من هباته الكواهلة أيضاً مسداران يشتملان على كل خصائص المسدار الفنية ومعناه . يضاف إلى هذا ما ذكره الدكتور سيد حامد حريز من أن يوسف ود عب شبيش من شعراء المسادير (١) . وهو من هباته الشكرية المشهورين . وهذه تشكل جملة ما لدينا من مسادير الهباته . وقياساً بمجمل النصوص التى بين أيدينا لشعراء الهباته . فأنها لا تشكل إلا قدراً ضئيلاً . إذن فما هو سبب ندرة المسادير فى شعرهم ؟

إن السبب فى ذلك يرجع - فى نظرنا - إلى نوع الحياة التى يحيونها . فكما ذكرنا آنفاً كان الهباته يعيشون حياة مشوبة بالقلق والإضطراب . وهذا النوع من الحياة غير المستقرة على حال ، لا يتناسب مع التطويل والتنسيق . ولذلك جاء شعرهم فى شكل رباعيات تعبر تعبيراً خاطفاً عن مكنون نفوسهم ، وتطرح قضيتهم فى الحياة بالصورة المبسطة والتعبير المباشر . فالواحد منهم يسرق الأسباب لإشتغاله بالهباته . وعندها يخرج ينشغل بوصف ما يلاقه فى الطريق نحو الهدف . وخلال ذلك كله يكون مشغولاً بكيفية الحصول على الإبل ، وعندما يغتم يشغله التفكير فى طريقه خلاص هذا المغتم وتأمينه

١ - فن المسدار ص ٢٤ .

سيما وهو يعلم أن أصحاب الإبل يتعقبونه ويقتفون أثره . وهذا الشعور بالخطر هو السمة المميزة لهذه الحياة السريعة الدوران فهي تبدأ بتجمع الأسباب والرحلة نحو الهدف وتنتهي في مجالس الطرب واللهو لتبدأ من جديد . فحين ينفد ما لدى الهباني من المال يبدأ الأعداء لغزوة جديدة . ويستمر في هذه الدوامة إلى أن يقعه عنها تقدم العمر أو الموت . فهذه الحياة القلقة المشغولة بالكفاح لا تترك مجالاً للشاعر الهباني للتطويل ، إنما الذي يتلاءم مع طبيعتها هو الرباعيات التي يعبر الشاعر عن طريقها عن كل ما يتصل بحياته على نحو مسا رأينا .

(٣) الظواهر اللغوية :-

أ- تمثل لغة شعر الهباني لغة البادية العربية في السودان بكل خصائصها ومميزاتها وهذه الخاصية أعطت هذا الشعر وزنة خاصة في مجال الدراسات اللغوية . ولعل ذلك يتجلى بصورة واضحة في « قاموس اللهجة العامية في السودان » . فقد اعتمد اعتماداً كبيراً على شعر الهباني في الدلالة على إستعمالات الألفاظ وشرح معانيها . ومما هو جدير بالملاحظة هنا أن مؤلف القاموس قد أورد ما يقرب من المئتي شاهد من شعر الهباني . وكلها كانت ترد مسبوقة بعبارة « قال الهباني » . إلا ما نسب منها للمشهورين منهم كالطيب ود ضحوية وطه الضرير . وهذا يؤكد قيمة هذا الشعر في حقل دراسة معنى وخصائص اللغة العامية في السودان .

ب- يضاف إلى ما سبق أن شعر الهباني يشكل في معظم الأحيان قاموساً قائماً بذاته . فهناك بعض الكلمات التي يكون لها بجانب الإستعمال العام إستعمالاً خاصاً فسيجتمع الهباني لا يفتن إليه إلا من عرف خصائص ذلك المجتمع ومقوماته واللغة أحداها . وهذه الخاصية تعطى صفتهم الجماعية بعداً آخر يضاف إلى ما سبق أن ذكرناه من تميز مجتمعهم بتقاليد ونظم وقيم خاصة به . والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة . ولكننا نتعرض هنا لأكثر الألفاظ دوراناً في شعرهم .

يقول الطيب ود ضحوية مخاطباً رفيقه طه الضرير وقد أدركهما الفزع :-

زَمَنْكَ كَلُّوْ تَاكُلْ بَارْدَةً مَا ضُقْ حَارَةً

..... الخ

و برد عليه طه الضرير بقوله :-

زَمَنْي كَلُّوْ بِاَكُلْ حَارَةً مَا ضُقْ بَارْدَةً مَاكْ دَارِيْنِي ؟

..... الخ

ولفظ « باردة » في الإستعمال العام هو من الفعل « برد » أي صار بارداً . ولفظ « حارة » يعني في الإستعمال العام عكس « باردة » أي من « حر » صار حاراً . ولكن إستعمالهما هنا في غير هذين المعنيين . فالباردة عندهم هي الكسب الذي لا يسبقه قتال . والحارة هي الكسب الذي يكون بعد قتال . وفي شعر آخر يقول أحدهم :-

الْبَيْلَةُ أَمْ هَيْلَال (١) أُمْسَتْ سَرَائِكَ (٢) نَارَةً (٣)

أَسْبَادُكَ سَوَاوِيْقْ لِي الرُّدُوفُ (٤) أَلْدَارَةُ (٥)

إِنْ بَرَدَنْ نَكَافِيَيْنِ سَوَالِفِ السَّارَةِ (٦)

وإن حَرَنْ صَنَادِ بَدَأْ نَقَابِلِ الْحَارَةِ

والشاهد في قوله « سواف السارة » فالسواف جمع سالف . والسالف في الإستعمال العام هو ما تقدم من مودة وعرف وإحسان . ولكنه في مجتمع الهباني ضرب من التعاون بينهم على نحو ما أوضحناه في حديثنا عن نظم الهباني . وقد رأينا كيف أن المرأة من « ستات المجالس » يمكن أن تقوم مقام العميل في تقديم ما يقدمه للهباني ، ولذلك فإن سوافها مثل سوافه . فكان إستعمال « سواف السارة » هنا إستعمالاً خاصاً . وهناك الكثير من الألفاظ التي تحمل معان خاصة في قاموسهم - وربما لا توجد في غيره - أو إذا وجدت فإنها تحمل معنى مغايراً للذي هو في قاموسهم ، كلفظ « العملة » ويقصدون به الإبل المنهوبة وكذلك « العمال » - و « الخرة » أو « الخطرة » عند بعضهم ويقصدون بها السفر بغرض النهب والسلب - « والرزق » ويعنون به ما ينهبونه من الإبل - وكثير غير هذا - يقول أحد شعرائهم :-

١ - أم هلال : اسم الناقة .

٢ - السراء : السام وهي ما علا ظهر البعير من نتوء معروف وبمضهم يرى أن السراء غير السام وهي خلفها .

٣ - تارة : من تر ، رجع .

٤ - الردوف : مرادفة أي ذات أرداف وهي أيضا الرديفة .

٥ - داره : حامل .

٦ - السارة : إحدى النوانى .

كُتِلْنَاهُنَّ عِشَاءً وَ قُوزٌ (برة) مِتْيَامِيْنُو (١)
 كَشَى (٢) أَبْ تَرَمَةَ (٣) قِيدَامَنَا وَمَرَقْ لَنَا جِيْنُو
 كَمْ فَرَعَا (٤) لَحْمَنَا خَمَدْنَا بَيْضَةً سِيْنُو
 يَارَيْتَ أَلْسِيْفَ كَانَ نَحْكِي بِي الْفَاعِلِيْنُو (٥)

فالشاهد هنا في « كُتِلْنَاهُنَّ » أي « قُتِلْنَاهُنَّ » من « قتل والضمير في « هن » يرجع للابل . ولكن المقصود هنا ليس هو القتل المعروف أي إزهاق الروح . أن المقصود السرقة أو النهب . أي إننا قد سلبنا هذه الإبل وسرنا بها يمين القوز المذكور . وجاء في « قاموس اللهجة العامية عن الفعل « كسب » ما يلي : « كسب (ف س) المال طلبه وربحه . وعند الهباته تعني أخذهم المال بالقوة » . فشرع الهباته إذن يحوي الفاظاً تمثل قاموساً قائماً بذاته وخاصاً بالمجتمع الذي راجت فيه .

(٤) الواقعية :-

نقل شعر الهباته الواقع كما عاشوه . وصور حياتهم بكل ما فيها من جوانب إيجابية وسلبية ، مشرقة وقائمة وجادة ومازحة . ولذلك إبتعد شعرهم عن الإمعان في الخيال وخلق الصور التي لا تعبر عن الواقع . وقد كان لهذه الواقعية عدة مظاهر في شعرهم . فإذا حكى هذا الشعر لحظات النعيم التي يجيئونها ، رسم إلى جانبها صورة المعاناة التي يتعرضون لها في طريق رحلة الغزو هذه :-

يَوْمَ جَالَسِينَ مَعَ الْحَزْمِ (٦) الْقَصَارَ مَرْبُوعَةَ (٧)
 يَوْمَ مَاسْكِينَ نَقِيبِ (٨) صَايْدَانَا (٩) عَطَشَةَ وَجُوعَةَ (١٠)

- ١ - مِتْيَامِيْنُو : سرنا عن يمينه
- ٢ - كَشَى : طردنا أمامه
- ٣ - أَبْ تَرَمَةَ : الصديق ود التركاوي البطحاني أحد الهباته المشهورين .
- ٤ - فَرَعَا : النصره وطلب اللص والناصب .
- ٥ - جَرِيدَةُ « الصحافة » ، عدد ٢٣ ديسمبر ١٩٧٤ م ص ٧ .
- ٦ - الْحَزْمَةُ : ما حزم من حطب وغيره . وتشتمل الحزمة مجازاً في معنى الحصر والضمير ، وتوصف الحزمة بأنها أم حزم قصار .
- ٧ - الْمَرْبُوعَةُ : المربع ، الوسيط القائمة .
- ٨ - نَقِيبِ : الطريق في الجبل .
- ٩ - صَايْدَانَا : من صاد : أصاب .
- ١٠ - عَطَشَةُ وَجُوعَةَ : يعني عطشا وجوعا .

يَوْمَ فِي رُقَابِنَا حُبَالِ الْمِرْسِ (١) مَدْرُوعَةَ (٢)
 يَوْمَ تَابَعِينَ رَفِيقَ زَيْ صَيْدَةَ مَمْرُوعَةَ (٣) (٤)

فهم يوماً مع النساء ذوات الحصور الضامره ، الوسيطات القامة ، ويوماً في الخلاء بعضهم الجوع ويفتك بهم الظمأ ، وفي يوم آخر مشدودة أعناقهم بالحبال حين يقعون في أيدي رجال الأمن . فهذه صورة من واقع حياتهم وهي تلخيص لهذا النوع من الحياة . فالشاعر لم يتخرج حتى من أن يذكر مظاهر الجبن والضعف التي قد تظهر أحياناً على بعض رفاقه (الصيدة المروعة) .

إن لحظات المرح والانشاء التي يجيئونها ، تقابلها دائماً لحظات معاناة قاسية يعيشون تحت وطأتها وهم يشقون الفيافي والقفار عبر الصحراء يبردها و « سمومها » :-

يَوْمًا فِي بَسِيطٍ عِنْدَ الْمُقَسِّمِ دُومَنَا
 وَ يَوْمَ نِيْضَارِي مِنْ لَتْفِ السَّمُومِ بِيْ هَدُومَنَا
 يَوْمَ يَشْجُبُ الْعِمْلَةَ وَنَجِيْهِ لَزُومَنَا
 نَحْنُ أَنْ عَيْنَا يَا كَيْفَةَ أَمْ خَدُودَ بَتْلُومَنَا

وعلى هذا النمط يجيء شعر الهباته حاكياً واقع حياتهم بكل جوانبها الحيرة والشريرة . فيتحدثون عن القيم التي تتميز بها حياتهم : الكرم والمروءة والشجاعة الخ . وفي الناحية الأخرى الجوع والظمأ وسفك الدماء . كذلك وصف شعرهم صنوف الناس الذين كانوا على صلة بهم بكل تباينها وإختلافها . ومن هذه الشخصيات من كان صديقاً متعاوناً ، ومنها من كان عدواً متربصاً (البلايس) ومنها من كان خاملاً لم ينحونحوهم في الحياة . وقد رسمنا صورة ذلك في حديثنا عن حياتهم القلقة المضطربة وفي حديثنا عن علاقاتهم بالسلطة فهم عموماً لا يكتفون بتصوير الجوانب المشرقة بل حكوا الجوانب الأخر من هذه الحياة :-

- ١ - الْمِرْسُ : حبل
- ٢ - مَدْرُوعَةُ : من درع ، لبس الثوب أو وضع الثوب على الرقبه أو علق
- ٣ - مَمْرُوعَةُ : المرعى ، الجبان . وممروعة تعني هنا مخوفة أو خائفة .
- ٤ - الْأَرَشِيفُ شَرِيطُ رَقْمِ م/د/١/١٠٣٥٨ .

يا شاييل (١) أم شليخ قول ليها مزلولين (٢)
و سايقنا الغفير (٣) ميتوجة الكاملين (٤)
كلبيش (٥) يا حرس وأمكن حد يدك زين (٦)
صند يد يا عمر (٧) ما تقول دأ قلبو بلين

وهكذا نرى أن شعر الحمبات قد قام في بنائه الفني على هذه الأسس من الحياة الواقعية فجاءت الصورة الشعرية عندهم مطابقة تماماً لأصلها في الحياة .

(٥) خلوه من الغزل :-

ذكرنا في موضع غير هذا أن المرأة حاضرة دائماً في حياة الحمبات وشعرهم . فمن أجلها هاموا في البلاد وجندوا أنفسهم للكسب وأخذ الإبل بالقوة غير عابئين بالنتائج ولذلك فاض شعرهم بذكرها فإذا سموها قالو : « السارة » و « شمة » و « سالة » و « البقيت » و « بت عمر » و « فاطمة » و « الزينة » و « عابدة » . . . الخ . وإذا كنوا عنها فهي : « المزند عاجه » و « أم روبة » و « أم خراس » و « أم خلود » و « السماتنه » و « المتيرة » . . . أو « الديفة » :-

الولد الشيدور الشكره (٨) يتحكوبه (٩)
ينعيد ردو وكو (١٠) ينطح (١١) بلود (١٢) زئوبة
أما يجيب رضى الديفة (١٣) البصير (١٤) مذكوبة (١٥)

١ - شال : ذهب

٢ - مزلولين : من زل ، أزل

٣ - غفير : خفير

٤ - الكاملين : مدينة مسيرة ساعة بالعربية من الخرطوم جنوباً

٥ - كلبيش : كرتش الشيء أخذه وربطه

٦ - زين : جيد وباحكام (٧) عمر : أحد رفاق الشاعر

٨ - الشكره : الشكر - من شكر الرجل أى أثنى عليه

٩ - حكى : أتى بحكاية

١٠ - الكسو : كسو : لا

(١٢) نطح : اتجه نحوه

١٣ - بلود : جمع بلد وهو القطر والمكان

١٤ - صرت الأذن : سمع لها طنين

(١٥) المركوب : حذاء يصنع عليا

ولا أب رسوه (١) فوق ضلأعو (٢) سوي الهوبة (٣)

والذى نود أن نلاحظه في موضوع المرأة هو أنهم لم يتعرضوا لوصف محاسنها وإبراز صفاتها أو إظهار الوله والهيام بها أو الوقوف في ديارها ومناجاة طيفها وذرف الدموع في ذكراها . ولتفسير ذلك لا بد أن نضع في حسابنا طبيعة حياتهم القلقة المضطربة التي تصلح للتعبير السريع غير المتأنى والإشارة العابرة في غير إصراف . فهذا النوع من الحياة لا يعطى مجالاً للوصف الدقيق وتفصيل الصورة ، لأنها حياة سريعة الدوران محفوفة بالمخاطر والأهوال . فلا غرو إذن إذا جاء شعرهم مشيراً إلى المرأة من حيث هي امرأة بصرف النظر عن المميزات الجمالية التي تتمتع بها امرأة دون الأخرى . وعلى هذا النحو يكون شعرهم ، فليس فيه وجود للغزل بمعناه المعروف ، بل هو شعر يدخل في دائرة الحمبة وما جاء فيه ذكر للمرأة لا يخرج عن هذه الدائرة .

(٦) خلوه من الشعر القبلى :-

إن القبيلة بقيمتها وتقاليدها تعد سبباً رئيسياً من أسباب الحمبة . وقد صور الحمبات ذلك في شعرهم على النحو الذى فصلنا الحديث فيه عند إختيارنا للأسباب والدوافع . فالحمبات إمتنوا هذه المهنة تفادياً للوم القبيلة - أو على الأصح المجتمع القبلى - وكسب ثنائها . وتبعاً لهذا فإن صلة الحمبات بقبائلهم لم تنقطع ، والمجتمع القبلى لم يلفظهم بل ظلت مكانتهم فيه على حالها . ولكن الناظر في شعرهم يلاحظ خلوه من الشعر القبلى . ونعنى بالشعر القبلى هنا ، ذلك الشعر الذى يعنى بمدح القبيلة وذكر أمجادها وإظهار مآثرها وصفاء نسبها .

إن السبب في ذلك يرجع - فى نظرنا - إلى أن هذه الجماعة بحكم المهنة المشتركة قد كونت لنفسها مجتمعاً متميزاً له قيمه وتقاليد ومثله ، وله نظمه الخاصة التي تحكمه قواعده التي تسيره على نحو ما رأينا . وفى هذا المجتمع يجسد الفرد منهم الحماية والضمان الإجتماعى من غوائل الزمن . وهذه الظروف لا يوفرها له مجتمع القبيلة . وتبعاً لذلك إنصهرت روح الفرد فى روح الجماعة ، وصار الإلتواء لهذه الجماعة الجديدة أقوى من الإلتواء إلى

١ - رسوه : الرسخ ، ويكونون في البادية عن الأسد بأبى رسوة

٢ - ضلاع : جمع ضلع وأصلها نلع جمع ضلع وهى عظام الصدر

٣ - الهوبة : قلب الهوبة : انقلب على ظهره واضمأ رأسه على الأرض

القبيلة . لذلك نجد أن شعر الهيبات يتعد ، من حيث موضوعاته من الموضوعات القبيلة التي تهتم بالتغنى بأجداد القبيلة وتعدد انتصاراتها وتصور مكانتها وسط القبائل وعراقة نسب أفرادها وتفتخر بآثارها وتسجل أيامها . وفي مقابل هذا جاء شعرهم مصوراً لقيم جماعتهم ومفتخراً ببطولاتهم ومادحاً لسلوكهم . وفي ذلك يقول عبد الله ود المقدم :-

نحن المأبستعيش بي الزل (١) معيشة ميل (٢)

نحن بتركب الدرشى (٣) القفاهو بسيل

البنقصدو بشيع طرطشة (٤) وبهديل (٥)

برايو (٦) الصبح يبين في الصبة (٧) يوم الكيل (٨)

(٧) الحديث إلى الجمل :-

الجمل هو وسيلة الرحلة في طلب المال ، وهو رفيق الطريق وشاهد المخاطر والمغامرات . فهو يقاسم الهيبات حياته بكل ما فيها من إحساس بالخطر وتردد في المهالك . وإذا نعم الهيبات بلحظات من السرور كان الجمل على مقربة منه يرتاح ويتناول (علوفة) فان إهتمام المرأة التي يحط الهيباتى رحلة عندها بالجمل لم يكن يقل عن إهتمامها به هو - فانها تفكر في الإثنين معاً في نفس اللحظة . فلا غرو إذن إذا تحدث الشاعر الهيباتى عنه أو تحدث إليه . وطرب الإبل للحداء والغناء أمر معروف فقد ذكر مؤرخو الأدب العربى أن حداء الإبل كان معواناً لها على متابعة السير ومثيراً لنشاطها : « ويقال أن هذا الحداء كان يتفق في إيقاعه مع وقع أخفاف الجمال في مسيرتها من جهة ، وأنه قد تطور من جهة أخرى إلى شعر الرجز » .

وظاهرة الحديث إلى الجمل تتكرر بصورة واضحة في شعر الهيبات . فالشاعر

١ - الزل : الذل .

٢ - ميل : الشيء المائل الذي يسقط الغزيرة . والمائل : الحقيير والهين .

٣ - الدرشى : الجمل . والدرشى : ضرب من جرى الجمال .

٤ - طرطشة : عدم الاستقرار على حال .

٥ - البهديل : البهله ، وهى الخفة والعيش وعدم النظام .

٦ - برايو : من برا ، أى لوحده .

٧ - الصبة : الصب والصبة : ما صب من طعام ونحوه . ومنها صبة العيش .

٨ - الكيل : الكيل .

يصف له ما يعانيه ، مثلاً ، فى بعده عن محبوبته ويقارن بين حالتهما :-

بآلك (١) فاضى (٢) فى روبة (٣) الفروع يشنقند (٤)

و نحن نهانى (٥) لا بترقد ولا بترقد

الخلاتى يا الساحير (٦) تملئ (٧) منقند (٨)

فرق العنقو باهى (٩) و دوقو (١٠) مؤ متعقد (١١)

وبهذه الطريقة يحكى الشاعر حاله للجمل ويثبته شكواه ويؤكد له مدى إعماده عليه . وإذا أحس الشاعر أن الجمل يبطئ فى حركته أثناء سيره ، فانه يوجه الحديث إليه حاثاً إياه على الإسراع لطفى المسافات التى تحول بينه وبين محبوبته :-

يا أب تقزى (١٢) اندرج (١٣) ميتك فيلانة فريته (١٤)

وأرفق بى القران (١٥) شينات (١٦) مطابق (١٧) الضيقة (١٨)

وفى كثير من الأحيان يأخذ الحديث إلى الجمل شكلاً آخر . فلا يكفى الشاعر بالحديث إلى الجمل ، بل يدبر معه حواراً يكون الشاعر هو الذى يحكيه - وذلك ما يمكن

١ - آبال : القلب والظاهر . X الشعر القومى فى السودان ص ٢٢٦

٢ - فاضى : خال .

٣ - روبة : الروبة : الشعر . وتشتمل مجازاً بمعنى أطراف الأشجار

٤ - نقند : نقول نقند الدحاجة : ضربته بمقارها

٥ - هاتسى : هله .

٦ - الساحر : اسم جمل الشاعر . وهو أحد جمال الطيب ود ضحوية المعروفة .

٧ - تملئ : دائماً .

٨ - منقند : منقند وسقند : طائر أحمر اللون مشهور بعدم النوم .

٩ - باهى : طويل . (١٠) دوق : اللحم دون عظام .

١١ - عقد الجبل نقيض حله .

١٢ - أب تقزى : اسم جمل وهو من جمال الطيب ود ضحويه .

١٣ - اندرج : شد فى سيره .

١٤ - فريته : تصغير فرقه وهى المسافة .

١٥ - القران : جبل يشاهد به البحر أو القوس . وقران أيضاً قران الابل .

١٦ - شينات : الشين القسيح .

١٧ - مطابق : جمع مطبق . ومطبق الوادى : مضيته .

١٨ - الضيقة : اسم قرية وهى التى ولد بها الطيب ود ضحويه بين مدينتى أم على والمحمية .

أن نسميه «إستنطاق الحمل» . ويدل من خلال مثل هذا الحوار تجاوب الحمل مع صاحبه ويصل ذلك إلى درجة أن الحمل يحتاج على صاحبه إذا أحس أنه يوجه إليه بعض الإتهامات ، وفي هذا الحوار يستعمل عبارتي قلت له وقال لي (١) .

ومن ذلك قول الطبيب ود ضحوية :-

قُتْ لِيكَ يَا جَمَلُ مَاكَ (٢) عَارِفُ الْغَيْبِ نَيْبِي (٣)
نَاوِي (٤) بِكَ مَبِيتُ رَبِّي (٥) دَكَاكَ (٦) مِكنِيبِي (٧)
قَالَ لِي أَسْعَلْنِي (٨) جَمْعُ الْوَاسِعَةِ (٩) مُوْهِمِيبِي
قُتْ لَوِ النَّائِرَةِ فِي قَلْدَةٍ (١٠) وَرِيدَهَا (١١) مَنِيْبِي

وتجاوب الحمل مع صاحبه وتفهمه لظروفه من الأشياء التي يعكسها الشاعر في الحوار الذي يديره معه . فإذا راح الشاعر يتغنى باناً شكواه وحرارة شوقه وتلهفه إلى المكان الذي يقصده ، رد عليه الحمل مؤكداً له أنه قوى على تحمل مشاق الرحلة وقادر على إيصاله في الوقت الذي يريد :

قال لي الحمل لا تكثُرْ التوليف (١٢)
وَبِتَّهَادٍ دَنِي بِي جَمْعُ الْعَتَامِيرِ (١٣) كَيْفَ ؟
قَرِبْتُ (١٤) بَلَدْتُو الزُّوْلُ أَبْ جَلِيداً هَيْفَ (١٥)

١ - الشعر القومي في السودان ص ٥١ .

٢ - مالك : ما أنت أو لست .

٣ - نيتي : من نوى الشيء إذا قصد وعزم عليه .

٤ - ناوي بك : أيضاً من نوى والضمير في « بك » يرجع إلى الحمل .

٥ - الرب : الخليط وموضع القزازة من الحرب .

٦ - دكك : جمع دكة وهو منزل العرب الرجل ، وهي أيضاً المرتفع من الوادي .

٧ - مكنيتي : من المكنية وهي مدينة تقع غرب « أم عل » والضيقة قرية الطبيب ود ضحوية .

٨ - اسعلى : أسألني ويقولون سأل يمتون به سؤال .

٩ - الواسع : الأرض .

١٠ - قلده : من قلده : عانقه .

١١ - وريدا : الوريد هرق في العنق . يصفون المرأة بأم وريد ويمنون الجيداء ذات العنق الطويل .

١٢ - التوليف : الغناء (١٣) العتامير : جمع عتمور وهو الصحراء .

١٤ - قربت : من قرب : دنا .

١٥ - هيف : من أهيف وهو الضامرة البطن ، الرقيق الخصر .

و قال لي وصيلاً ذاك (١) جَمَلُ أَبِ عَصَاةٍ سَيْفِ (٢)

وإذا تحدث الشاعر إلى الحمل وأستنطقه ، فإنه كذلك تحدث عنه ، فوصف مكانته في حياته واختار له الأسماء التي تدل على القوة وشدة البأس والمراس . وتعرض الشاعر كذلك لوصف قدرة الحمل الحارقة على تحمل الرحلات الطويلة وصبره عليها وتحدث عن إصالة نسبة وصلابة عوده :-

مقل (٣) وإنكلب (٤) راح يلقم (٥) القواد (٦)
وساحراً (٧) عادى (٨) من سهم (٩) النقط حواد (١٠)
يا جد القراري (١١) أَلْ لِي الْبَحْرُ خُـسـُـوَاد
ما يقسن دروب ناس عابدة بت عواد (١٢)

وكان من الطبيعي ألا تنف العلاقة بين الشاعر والحمل عند هذا الحد . ولذلك كان الشاعر يتأثر بكل ما يصيب الحمل من المرض أو الإصابات ، وهو يتألم لفراقه إذا حكمت المقادير بأنفصاله عنه ، وبرثيه إذا مات وبأسو لمرضه إذا مرض :-

ما تَسْتَاهِلُ الْعَوْرَةَ (١٣) وَخَسَرَ النِّعِينَ
وَكَمْ مِنْ فِجَّةٍ فَوْقَ ضَهْرِكَ مَحْلِيلِ دَيْنِ
كثير مِنْ فَارَقِ النَّزْهَةِ وَرَضَى الْوَالِدَيْنِ
الْبَاقِي اللهُ يَا هَجَامَ فَرِيْقِ (١٤) أُمُ زَيْنِ (١٥)

١ - ذلك : من «أ» بمعنى فا ويقولون هذا وهكذا .

٢ - جبل اب عصاة سيف : هو جبل الشيخ حامد أحد الأولياء المعروفين في منطقة الجليلين .

٣ - مقل : صارت له مقله وهي العنق .

٤ - إنكلب : صار كالكلب في ضووره .

٥ - راح : صار . ولقم : هاجم . (٦) القواد : الذي يقوده .

٦ - راح : صار . ولقم : هاجم . (٦) القواد : الذي يقوده .

٧ - ساحر : اسم الحمل (٨) عادى : قوى .

٨ - سهم : جمع سهم وهي الجهة والمكان .

٩ - حواد : من حاد عن الشيء إذا تجنبه .

١٠ - جد القراري : ولي من الأولياء من منطقة القراري .

١١ - عابده بت عواد : أحد « الصلا » وعابده بته .

١٢ - عور : ذهب حسن إحدى عينيه فهو أعور .

١٣ - فريق : حى . ١٤ - أم زين : ذات الحسن والجمال .

شعراء المهتبه ومشاهيرها

نحاول هنا ان نعطي نبذة عن بعض شعراء المهتبه وغيرهم من مشاهيرها ممن جاء ذكرهم في حديثنا عن شهرة الافراد في هذا المجال :
طه الضرير :-

هو طه محمد أبو زيد . يعرف احياناً باسم « ود اب زيد » . ويكنى : « ابو الزينه »
وهي ابته . ومن شعره في ذلك :

أبوك يا الزينه عكا هن قبض في روسهن
الهوج والشرق فوق العواتي بكرو سهن
أمسوا الليله في الغوب الكثير جاموسهن
نوا العوده لي الغالي ورفيع ملبوسهن

ويلقب : « الضرير » وذلك لضعف في بصره . ينسب الى قبيلة البطاحين ، والده من فرع « العلاماب » ووالدته من فرع « العركشاب » ويقول انه من ناحية جدته أم أبيه « شرحابي » أي من فرع « الشرحاب » والضرير من شعراء المهتبه المعروفين في كل بقاع البادية السودانية . يبلغ الضرير من العمر حوالي الثمانين عاماً ويقم الآن بمنطقة « أبو دليق » شرق الخرطوم . مارس المهتبه منذ شبابه الباكر يذكر انه اشتغل بها في سن السابعة عشر أو الثامنة عشر . وبرغم ما عرف عنه من ضعف البصر فقد كان خبيراً بالدروب والمسالك والنواحي . وقد عرف عنه انه كان يعرف الموضع الذي هم فيه بشم ترابه . ولعل هذا هو السبب وراء تقديم مجموعته له في غزواتها . وهذه المجموعة كانت تضم الى جانبه كل من الطيب ود ضحويه والصدیق ود التركاوي وكيقه ود عمران . وقد ورد كثير من الشعر الذي يدل على أنه كان قائداً لمجموعته أو على الأقل خبيرها ودليلها . ومن ذلك قول ود ضحويه :-

انقلدوا الصناديد والضرير قدامهم
نوا العوده لي الماسكات عداد أيامهم

ومن أراد المزيد عن حياة هذا الشاعر الهباني وشعره يمكنه مراجعة ارشيف معهد الدراسات الافريقية والآسيوية الأشرطه (٣٥٠-٣٥٩) .

الطبيب ود ضحويه :-

إسمه الطيب عبد القادر سليمان ، ويقال له « الطيب ود ضحويه » كما يقال له « ود ضحويه » . والإسم ضحويه يقال إنه لجدته أم سليمان ويرى آخرون إنه إسم لأحد جدوده . ولد الطيب بقرية صغيرة يقال لها « الضيقة » بامالة الياء بالقرب من محطة سكة حديد « أم علي » في طريق الخرطوم - بورتسودان على الضفة الشرقية لنهر النيل . ينسب الطيب إلى أب « مسنداي » وأم « سروراية » . والمسنداب والسروراب من أفرع قبيلة الجعليين ، والجعليون المعنويون هنا هم الجعليون الأصليون الذين يقطنون المنطقة بين ملتقى نهر عطبرة والنيل وخانق السبلوقه - وهم يجمعون في طريقه حياتهم بين الرعي والزراعة . دخل الطيب الحلوه لدى أخواله السروراب حيث أتم حفظ القرآن وتزوج الطيب في سن التاسعة عشر من بنت خاله الفكي سرور . وبعد هذا التاريخ تذكر الروايات أنه إنخرط في العمل في نهب وسلب الإبل . عمل الطيب في المهتبه رغم ما عرف عن والده من ثراء وسعة في الرزق . وقد بذل والده محاولات كثيرة لإثنائه عن الإستمرار في هذا النوع من الحياة - ولكن يبدو أن الطيب كان ذا ولع شديد بها فكان شعره يعكس التعلق بهذه الحياة في المرات القليلة التي إستجاب فيها لوالده ومكث معه في الديار بعضاً من الوقت . ولم يترك الطيب العمل في المهتبه تماماً إلا عندما تقدم به العمر وأقعده المرض عن الحركة . ويذكر أنه أخيراً تاب وقضى بقية حياته منقطعاً للصلاة والعبادة وتلاوة القرآن . وفي آخر أيام حياته أصيب الطيب بمرض نقل على أثره إلى مستشفى الخرطوم للعلاج ، ولكن الطب عجز عن إستئصال الداء فنقل مرة أخرى إلى منزله بمدينة كبوشية حيث توفي في حوالي عام ١٩٤٣ م . وقد خلف الطيب بتنين أحدهما تدعى « فاطمة » وتقيم الآن بقرية الشقالوه بالقرب من شندى - وقد ذكرها كثيراً في شعره معتزاً ومفتخراً . والطيب من أميز شعراء المهتبه ويعتبر شعره مرجعاً مفيداً لدراسة كل ما يتصل بهذه الظاهرة . قال وهو يحتضر مسترجعاً ذكرى أيامه التي خلعت وداعياً نفسه إلى الصبر على ما تلاقي من حشرة الروح لأنها لم تترك باباً للمتعة لم تلجبه :-

يُومَ بِنْدَاوَرِ الْبَكْرَةِ وَنَحْصُرُوْهُ نَدِيْهِ
وَيُومَ بِنَشَقِ عَتَامِيْرٍ بَعِيْدَةٍ وَتِيْهِ

يا نفس السواد المتعة كملتيها
أبقى لزومه وكت القرعة وقعت فيها

عبد الله ود المقدم :-

من شعراء المهتبه المجدين الذين ما زالوا على قيد الحياة يحملون ذكرى أيام ودعوها ولكنهم سجلوها شعراً باقياً على مر الأيام . وأسمه عبد الله المقدم فضل الله . يتنمي إلى فرع « الشدايدة » من قبيلة الكواهلة التي تنهى نسبها إلى الصحابي الجليل الزبير بن العوام . يبلغ الشاعر من العمر خمسة وستين عاماً . وقد ولد بقرية « جبل موي » إلى الغرب من مدينة سائر وقضى معظم فترة صباه بها . أما الآن فإنه يقيم بقرية « نور الهادي » غربي نهر الدندر .

عمل ود المقدم في المهتبه وهو في الخامسة والثلاثين وأقلع عنها منذ حوالي عشرين عاماً . يعمل الآن مزارعاً بمشروع السوكي . وهو شاعر معروف في المنطقة ما أن يجيء ذكر للشعر الشعبي إلا وكانت الإشارة إليه - وله عدة مسابير كما له شعر في أغراض غير المهتبه .

شرف ود المحرب :-

هو شرف المحرب من أشهر المهتبه بمنطقة بادية البطانة . وهو من قبيلة الكواهلة فرع « الحميدانية » يقيم الآن بقرية المحرب غربي نهر الدندر داخل منطقة مشروع السوكي حيث يعمل الآن مزارعاً به . عمره الآن خمسة وسبعون عاماً . والقرية التي يقيم بها الآن سميت على اسم جده وتعرف الآن باسم « حلة شرف » وشيخها هو ابنه الصديق . عمل في المهتبه منذ أن كان في الثالثة والعشرين من العمر وتركها قبل عشرين عاماً على ما يذكر . ومعنى هذا أنه عمل فيها . لمدة تربو على الثلاثين عاماً . وعمن شرف رجل فكه وصاحب نكته وله طريقة جميلة في القاء الشعر وإعطاء المعلومات .

ود عايس :-

من المهتبه المعروفين في قبيلة الكواهلة . هو محمد عايس شيخ قرية « ود عايس » التابعة لريف سائر . يبلغ من العمر الخامسة والسبعين ويعمل مزارعاً بمشروع السوكي . عمل في المهتبه في سن الثالثة والعشرين وترك العمل بها قبل مدة طويلة وهو يرى أنه

بذلك قد إهتدى إلى الصواب وإنها الآن بالنسبة له فضيحة وعيب كبير . يتنمي إلى فرع « الحميدانية » من قبيلة الكواهلة . يحفظ كثيراً من شعر المهتبه .

أبو جيب أبو زيد :-

معلم معروف عرفته بادية كردفان وعرفها غنلما كان يجوب أنحاصها بحثاً عن الإبل . وهو من الرواة المفيدون حيث أنه ملم بالكثير جداً من جوانب المهتبه وحياة المهتبه في منطقة كردفان ونظم وقواعد المهتبه وقيمها عموماً . ومن ناحية النسب فإنه يتنسب إلى قبيلة حمر من ناحية أبيه وإلى قبيلة « الهباين » من ناحية أمه . ولد بقرية « عيال ركاب » بالقرب من مدينة النهود حيث يقيم الآن ويعمل ضامناً بزرية المواشي بها وعمن « أبو جيب » رجل مرح يحب الدعابة ويتحدث بانطلاق ووضوح . وهو متزوج وله أبناء يذكر منهم بالفخر ابنه « أبو زيد » الذي سار على نهج أبيه فأصبح اليوم من أشهر المهتبه الشباب في وسط قبيلة حمر خاصة بادية كردفان عموماً .

حامد أم بده :-

من المهتبه الشباب حيث يبلغ من العمر الثلاثين عاماً . ولد بقرية « الصقوع » بمنطقة غرب دار حمر حيث يقيم . ويقول بأنه بدأ يعمل بالمهتبه منذ عام ثمانية وستين وتسعمائة وألف وكان آنذاك في الثالثة والعشرين من عمره . أما الآن فإنه يقضى فترة سجن قدرها ثلاث سنوات في سجن مدينة النهود حيث تم لنا معه اللقاء . وهذه المدة هي عبارة عن عقوبة صدرت ضده في إبل نهبها هو وإثنان من رفاقه ، ولما قبض عليه لم يفصح عن شركائه في الجريمة فتحمل النتيجة وحده . وهذا يعتبر من أكبر واجبات المهتبه في مثل هذه المواقف والظروف وفي مقابل ذلك فإن للآخرين أيضاً واجبهم نحو رفيقهم على نحو ما ذكرنا في حديثنا عن صور التعاون في مجتمع المهتبه .

عبد الله حريكة :-

شاب في التاسعة والعشرين من العمر . من المهتبه المشهورين في منطقة قبيلة حمر في الوقت الحاضر . وهو يتنمي إلى فرع « بني بدر » من قبيلة حمر . ولد في وادي الغنم بالقرب من مدينة « أبو زيد » وهو يعمل - كما يقول - مع البعية . أما الآن فإنه أحد نزلاء سجن مدينة النهود وهو أمي وغير متزوج .

عوض الكريم إبراهيم :-

إسمه عوض الكريم محمد إبراهيم . ويلقب بـ « عز العرب » . من الهبابه الشباب
باده كردفان حيث يبلغ من العمر ثمانية وثلاثين عاماً . ولد بقرية « أم قفلة » في منطقة
دار حامد مركز باره . وهو من قبيلة « المعائلة » إحدى قبائل مجموعة دار حامد . يعمل
مزارعاً إلى جانب عمله في تهب الإبل . وهو متزوج وله أبناء .

أبو سريج :-

من الهبابه المشهورين جداً في منطقة كردفان وغيرها من أنحاء البادية الرعوية في
مختلف بقاع السودان . إسمه موسى ود كوكو ، وأبو سريج لقبه . ويقولون له أيضاً
« أبو سريجاً بره » كناية عن استعداده الدائم لإعتلاء ظهر بعيره وجوب البادية سعياً وراء
الإبل . وسريج تصغير سرج وهو تصغير تعظيم . وأبو سريج من قبيلة الهبابين التي هي
إحدى قبائل مجموعة دار حامد . كان يقيم بالقرب من مدينة باره وتوفي لبضع سنين
خلت . وقد كانت إبنته حفصه ، على ما تذكر الرواية ، تتغنى بمدحه كثيراً ، ومن ذلك
قولها :

ألفتهب التصاره (١)

خاتنوا في السحارة (٢)

أبو سريج ركب ،

يجيب المال شطاره (٣)

بين الهمة والصعلكة العربية

◦ الصعلكة والصعاليك

◦ بين الهمة والهباة والصعلكة والصعاليك

١ - الذهب : الذهب . والنصاره جمع نصراني : مسيحي .

٢ - خت : وضع . والسحاره : صندوق كبير لحفظ الملابس والأشياء .

٣ - شطاره ، الشطاره : الدعاء والذكاء والشجاعة .

الصعلكة والصعاليك

نتحدث هنا عن ظاهرة الصعلكة والصعاليك في تاريخ الأدب العربي . ونود أن نشير منذ البداية إلى أن الغرض هنا ليس هو تقديم دراسة مفصلة ومسهبية لظاهرة الصعلكة على نحو ما فعلنا في حالة الهيمته . إنما نود فقط أن نضع أمامنا الصورة التي رسمها الكتاب والباخثون العرب لهذه الظاهرة لنستعين بها في ما ننوي إجراؤه من مقارنة بين الظاهرتين . ولذلك فإننا سوف نهتم — بالملامح الأساسية لظاهرة الصعلكة من حيث نشأتها وعوامل تلك النشأة ، والمسرح الذي شهد أحداثها ، وموقف المجتمع آنذاك منها . ثم نتعرض لأبطالها من الصعاليك لنرى مزاياهم وأخلاقهم وأسلوب حياتهم ، وطوائفهم ثم نتطرق أخيراً لشعر الصعاليك من حيث مضمونه وخصائصه .

ما هي الصعلكة ومن هم الصعاليك ؟ :-

تحدث عدد من الكتاب العرب عن ظاهرة الصعلكة والصعاليك محاولين توضيح معناها ورسم أبعادها ومكانة الشعر المرتبط بها في تاريخ الشعر العربي . يقول الأستاذ أحمد الشايب عن الصعلكة : « هي ثورة على النظام القبلي أو على النظام الإقتصادي والاجتماعي كله » (١) . ويقول عن الصعاليك : « هم جماعة فقراء من قبائل شتى جمعت بينهم الخصاصة والحاجة وأعوازهم من مال هو عند غيرهم فخرجوا على قبائلهم وتحللوا من نظمها وأنكرهم قومهم وأخذوا هم أنفسهم بالإغارة والنهب وسلب القبائل والأفراد ما لهم ثم توزيعها فيما بينهم » (٢) . فهم بذلك يمثلون الخروج على النظام القبلي بتقاليده وقيمه إلا ما إرتضوه لأنفسهم من عطف على الفقراء والمرضى والضعاف وكرم وجود وسخاء . « فهم لصوص كرام شجعان يعفون عن المحارم » (٣) .

ويقول الدكتور يوسف خليف وهو يتحدث عن الصعلكة في المفهوم اللغوي :
« فالصعلكة في مفهومها اللغوي الفقر الذي يجرد الإنسان من ماله ، ويظهر ضامراً هزيباً

١ - أحمد الشايب ، تاريخ الشعر السياسي ، القاهرة ١٩٤٥ م ص ٣٤

٢ - نفس المصدر ٣٤ .

٣ - نفسه ٣٤ .

بين الأغنياء المترفين الذين أتحمهم المال وسمنهم (١). والصعلوك في نظره هو من يواجه الحياة منفرداً وهو لا يملك وسائل العيش فيها. ويقول عن معنى الصعاليك في الإستعمال الأدبي : « هم أولئك المغيرون أبناء الليل الذين يسهرون لياليهم في النهب والسلب الإغارة بينما ينعم الخليون المترفون المسالمون بالنوم والراحة والهدوء » (٢).

أما الدكتور شوقي فيقول : « الصعلوك في اللغة الفقير الذي لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة ، ولم تقف هذه اللفظة في الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخالصة ، فقد أخذت تدل على من يتجردون للغارات وقطع الطرق » (٣).

وذكر جرجي زيدان أن الصعاليك : « هم طائفة من الشعراء إشتهروا بالعدوان الإغارة على القبائل للنهب » (٤).

ويقول الدكتور الحوفي : « أما الصعلكة فهي الفقر ، والصعاليك هم الفقراء ، وتصلك الرجل إذا إفقر » . ثم يعضي فيقول : « إن الصعلكة هي الفقر ، وإن كانت دلالة الكلمة قد تطورت فأطلقت على الفقر المقترون يتروّع ثوري » (٥).

نخلص من كل ما مضى إلى أن الصعلكة هي طريقة في الحياة تقوم على النهب والسلب عن طريق الغزو والإغارة . والصعاليك : « هم طائفة من قطاع الطرق كانوا متشردين في أرجاء الجزيرة العربية ، ينهبون من يلقونه في صحرائها الموحشة الرهيبة ويتلمعون به ويتخطفونه ويأكلون ماله » (٦).

مزايا الصعاليك وأسلوب حياتهم :-

كان الصعاليك جميعهم من الفقراء المعدمين . ولذلك تكرر الشكوى من هذا الفقر كثيراً في شعرهم وتضيق بها نفوسهم . ففي أخبارهم تتجلى حقيقة فقرهم ، ومن شعرهم تنبع صيحات الجوع يقول السليك بن السلكة :-

١ - الشعراء الصعاليك من ٢٠-٢١ .

٢ - نفس المصدر ٢٣ .

٣ - الدكتور شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، دار المعارف بمصر ، ص ٣٧٥ .

٤ - جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، دار الهلال ١٩٥٧ م ص ١٦١ .

٥ - الدكتور سيد حنفي حنين ، الشعر الجاهلي : مراحل واتجاهاته الفنية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١ م ص ٣٠٠ .

٦ - الشعراء الصعاليك ٢٤ .

وما نلتها حتى تصعلكت حقبة

وكدت لأسباب المنة أعرف

وحنى رأيت الجوع بالصيف ضرئى

وإذا قمت نغشاني ظلال فأسدق

ولكن الصعاليك لم يستسلموا لوضعهم في المجتمع ولم يرضوا حياة الذل والهوان التي فرضتها عليهم ظروف مجتمعهم ، فثاروا على هذا الوضع وعملوا لكسب ما إفتقدوه في حياتهم العادية . وتلفتوا فلم يجدوا ما يعينهم على تبديل حالهم غير القوة . ومن هنا كانت فلسفة ثورتهم تقوم على أساس أن الغزو والإغارة للسلب والنهب هي السبل الوحيد للغنى وتبديل الحال . فليس أمام الفرد منهم إلا أحد أمرين أما أن يرضى بحياة الذل هذه ، وأما أن يشق طريقه بالقوة نحو حياة يرى هو أنها حياة كريمة أياه .

وكان لابد لهذه الثورة من قوة تسندها . وتلك كانت هي قوة النفس والجسد فمن ناحية قوة النفس كان الصعاليك يستهينون بالحياة في سبيل الوصول إلى غايتهم وهم بذلك يؤمنون بالفناء في سبيل المبدأ . ومن الناحية الأخرى كان الصعاليك بأنفون من القيام بتلك الأعمال التي كان يقوم بها العبيد وأشباههم كخدمة الإبل والقيام بأمرها . أما الجانب الثالث لهذه القوة النفسية التي تميز بها الصعاليك فهو الكرم . فقد كان الصعاليك على الرغم من فقرهم وفاقتهم ، كرماء حتى ليضرب بهم المثل في الكرم . وهذا يؤكد أن الغنى لم يكن هدفاً في حد ذاته بالنسبة للصعاليك ، بل كان وسيلة لأشياء أخرى . ولعل بعضاً من هذا يظهر في أبيات عروة بن الورد التالية :-

دعيني للغنى أسعى فأنسى

رأيت الناس شرهم الفقير

وأبعدهم وأهونهم عليهم

وأن أمسى له حسب وخير

ويقصيه الندى وتزدريه

حليته وينهره الصغير

ويلقى ذا الغنى وله جلال

يكاد فؤاد صاحبه يطير

قليل ذنبه والذنب جسم

ولكن للفنى رب غفور

والجانب الرابع من جوانب قوتهم النفسية هو أنهم كانوا ذوي نفوس عالية تأبى الضيم . وتعف عما فى أبدي الناس . ولذلك ما كانوا يطلبون عوناً من أحد حتى لا يتناول بحلبهم متناول . يقول الشنقري :-

أديم مطال الجوع حتى أميته

وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل

وأستف ترب الأرض كي لا يرى له

على من الطول أمرؤ متطول

ولو لا إجتباب الدم لم يلق مشرب

يعاش به إلا لدى وماكل

ولكن نقلاً حرة لا تقيم بسى

على الضيم إلا ريشماً انحسول

وكما كان الصعاليك أقوياء نفس ، كانوا كذلك أقوياء جسد . فقد كانوا يتمتعون بقدر وافر من الشجاعة والجرأة وشدة المراس ومضاء العزيمة والصلابة والصمود . وكان الصعاليك بجانب ذلك يملكون مقدرة فائقة فى الهروب من وجه أعدائهم . فقد ذكر أنهم كانوا عدائين لا تلتحق بهم الخيل . وأعتمدوا فى حركتهم على ما تميزوا به من سرعة العدو . فقد قيل عن السليك بن السلكة : « هو أحد الصعاليك العرب العدائين الذين كانوا لا يلاحقون ولا تعلق بهم الخيل إذا عدو وهم السليك بن السلكة والشنقري وتأبط شرا وعمر بن براق ونفيل بن براق » (١) .

هؤلاء هم الصعاليك جماعة من الفقراء المنبوذين حرّمهم المجتمع كل وميلسة للعيش وأظلمت الدنيا حولهم . ولكنهم كانوا أقوياء نفس وجسد فثاروا فى وجه هذا المجتمع الظالم وأشعلوها حرباً عليه لا تبقى ولا تذر . لم يرضوا أن يعيشوا بتكففون الناس فرفضوا الضيم والأعمال الوضعية وشمخوا بأنوفهم وشقوا طريقهم فى الحياة بقوة

١ - الأغاني ، مجلد ٩ ج ١٨ ، دار الفكر بيروت . ١٣٩٠ م ١٩٧٠ م ص ١٣٣

نفس والجسد وقوة السلاح من سيف ورمح وغيرهما . وهم بذلك يحطون ثورة على المجتمع وخروجاً عليه وتحدياً للأغنياء المورسين الذين كلصوا الأموال وتمكن البخل فى نفوسهم . وهم فى ثورتهم هذه لم يلينوا ولم يستكينوا ، بل مضوا ولم يخشوا ضغط المجتمع عليهم ، هذا المجتمع الذى فقدوا توافقه الإجماعى معه وأهدرت دماؤهم فيه كما سنرى فى الحديث عن العوامل المؤثرة فى نشأة الصلابة .

ومضى الصعاليك خلف الأغنياء ، وخاصة البخلاء منهم يسلبون وينهبون ولا يثورعون من القتل . ولذلك كانت أخبار للصعاليك وشعرهم يخفلان بذكر القتل الغزو والإغارة للسلب والنهب . بل كانوا يصفون تلك الغارات ويذكرون دور المشرك فيها من رفاقهم وما قاموا به أثناء المعركة . وكان الصعاليك فى صراع دائم من أجل العيش . وهو صراع بين الحياة والموت . ذلك لأنهم إذا قصروا دون أخذ حقهم بأنفسهم فإنهم يصبحون عرضة للموت جوعاً .

والواقع أن الصعاليك لم يكونوا يقتصرون فى نهيم على الأغنياء وحدهم . ففى بعض الأحيان كانوا يتعرضون لكل إنسان بصرف النظر عن فقره أو غناه . فهم قسوة يتحولون فى أحيان كثيرة إلى مجرد متمردين يسلبون كل من يسوقه حظه العاثر إلى أماكن قربصهم . وتدل أخبارهم على أنهم أحياناً قد يناصبون قبيلة معينة العداة فيذبقونها الويل بتكرار الإغارة والغزو . وكان الصعاليك فى كل الأحوال يرددون أقاصيص هذه الغارات فى فخر وإعتداد بأنفسهم وبطولتهم .

وكان الصعاليك يجوبون الآفاق ويربضون فى طرق القوافل فرادى أحياناً وفى جماعات أحياناً أخرى . أما وسيلتهم فى هذه الغارات فكانت هى أرجلهم فى الغالب . على أن بعضهم كان يغير على الخيل وكانت أبرز سمات هذه الجماعة العدو . وهذا جعل الذين يتحدثون عنهم بغرض تعريفهم يصفونهم بـ « العدائين » . وفى كثير من الأحيان ، بل فى كل الأحيان كانت سرعة العدو هى المنقذ الوحيد لهم من خطر الأعداء وإلى جانب قوة النفس والجسد وسرعة العدو ، كان للصعاليك قوة أخرى تعينهم

على تحقيق النصر فى غزواتهم ، وتلك هى قوة السلاح . وقد أعد الصعاليك لتحقيق هدفهم كل ما عرفته الجزيرة العربية من ضروب الأسلحة بوظيفتها : الهجومية والدفاعية ،

فكانت هي سندهم حين يلطم الأمر ويحيط بهم الخط .

شمل نشاط الصعاليك كل أرجاء بادية الجزيرة العربية ، فانتشروا في صحرائها ، يصعدون التلال ويهبطون في السهول والوديان ، ينشرون الرعب في ربوعها ، ويهددون القبائل والقوافل ويقطعون الطرقات على المسافرين . فهم في حركة دائبة لا تعرف السكون ولا تقتصر غاراتهم على جهة دون الأخرى . فهم يوماً يغيرون على نجد ويوماً على أهل الجبل . وهكذا تدور بهم الحياة وهذا هو دأبهم فيها :-

فيوماً على نجد وغارات أهلها

ويوماً بأرض ذات شت وعمر

طوائفهم :-

يميز مؤرخو الأدب العربي ثلاث طوائف من الصعاليك . وكل طائفة من هذه الطوائف لها ما يميزها عن الأخرى . ولكن جميع هذه الطوائف تلتقى أخيراً على الهدف ونوع السلوك . ويرى شوقي ضيف أنهم يكونون ثلاث طوائف حيث يقول : « ويمكن أن نميز منهم ثلاث مجموعات : مجموعة من الخلفاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم مثل حاجز الأزدي وقيس بن الحداية وأبي الطمحان القيني . ومجموعة من أبناء الحبشيات السود ، ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولأذنتهم مثل السليك بن السلكة وتأبط شرا والشنفري ، وكانوا يشركون أماتهم في سوادهم فمموا وأضرابهم بأسم « أغربة العرب » . ومجموعة ثالثة لم تكن من الخلفاء ولا أبناء الإمام الحبشيات ، غير لأنها احترفت الصعلكة إحترافاً وحيث قد تكون أفراداً مثل عروة بن الورد العبسي ، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتي هذيل وفهم اللتين كانتا تتزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالي » (١) . وإذن فقد كان الصعاليك ينقسمون إلى ثلاث طوائف هي :-

١ - طائفة الأغربة السود ممن لم يعترف بهم آباؤهم فعاشوا غرباء في مجتمع أنجبهم ثم لفظهم وأنكروهم .

٢ - طائفة الخلفاء الشذاذ الذين أنكرتهم قبائلهم وثبرأت منهم وأهدرت دماءهم .

٣ - طائفة الفقراء المتمردين الذين تصعلكوا نتيجة للاختلال الإقتصادي في المجتمع

١ - تاريخ الأدب العربي ٣٧٥

الجاهلي . وسنرى في حديثنا عن دوافع الصعلكة كيف تكونت كل طائفة من هذه هذه الطوائف وبرزت إلى الوجود .

وكانت هذه الطوائف جميعاً يجمعها الفقر والشرذم والتمرد والكفر بالأوضاع الاجتماعية والإقتصادية التي تسود المجتمع . فهؤلاء جميعاً فقدوا توافقهم مع المجتمع فثاروا عليه وكفروا بأوضاعه وجردوا أنفسهم لأخذ حقهم الضائع بالقوة من مجتمع حرهم وسائل العيش بالطرق السلمية . وبذلك كون الصعاليك مجتمعهم الخاص ليتقموا لأنفسهم ويحققوا عن طريق القوة بعضاً مما فقدوه في الحياة العادية .

أشهرهم :-

تجمع كتب الأدب وتاريخ الأدب العربي على أن أشهر الصعاليك هم : عروة بن الورد العبسي ، والشنفري الأزدي من اليمن ، وتأبط شرا من قيس عيلان والسليك بن السلكة من تميم

وقد كان عروة بن الورد أشهر الصعاليك جميعاً وذلك لأنه كان يجمعهم ويتولى أمرهم حين تضيق بهم الحال وتحلك الظروف . وفي ذلك جاء عنه في الأغاني : « . . . شاعر من شعراء الجاهلية وفارس من فرسانها وصلوك من صعاليكها المعدودين المقدمين الأجواد . وكان يلقب عروة الصعاليك لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم ولم يكن لهم معاش ولا مغزى » (١) . وقيل لقب عروة الصعاليك لقوله :-

لحي الله صعلوكاً إذا جن ليلته

مضى في المشاش ألفاً كل مجزر

بعد الغنى من دهره كل ليلته

أصاب قراها مني صديق ميسر

ولله صعلوك صفيحة وجهه

كضو شهاب القابس المنثور

ويقال كذلك أنه لقب عروة الصعاليك لأنه كان « . . . إذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف وكان هو يجمع هؤلاء من

١ - الأغاني ، المجلد الأول ج ٢ ، ص ١٩٠ .

دون الناس من عشيرته في الشدة ويطعمهم ويكسبهم حتى يبرأ المريض وتنوب قسوة الضعيف ، ثم يغزو بهم حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت الشدة ألحق كل إنسان بأهله وقسم له نصيبه من غنيته إن كانوا غنموها فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى (١) .

وقد كان عروة مشهوراً بالكرم والسماحة ، حتى إن عبد الملك ابن مروان قال : « من زعم أن حاتم أسمع الناس فقد ظلم عروة بن الورد » (٢) وقال صاحب الأغاني : « بلغني أن ابن معاوية قال : لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج اليهم » (٣) . وتحفل أخبار عروة وأشعاره بكل ما يؤكد تمكن فضيلة الكرم فيه إلى درجة المبالغة أحياناً .

السليك بن السليكة :-

هو السليك بن عمرو من بني تميم . والسليكة أمه وهي أمة سوداء . وهو أحد الصعاليك الشعراء العدنانيين الذين كانوا يسبقون الخيل إذا عدوا . ومما يوصف به أنه كان من أشد الرجال العرب وأنكرهم وأشعرهم وكانت العرب تدعوه سليك المقاب . كما أنه كان أدل الناس بالأرض وأعلمهم بمسالكها . وجاء في الأغاني أنه « كان إذا كان الشتاء استودع ببيض النعام ماء السماء ثم دفته فاذا كان الصيف وإنقطعت إغارة الخيل أغار . وكان أدل من قطاة يحيى حتى يقف على البيضة » (٤) . وقد كانت له أخبار طريفة في الغزو والإغارة (٥) .

تأبط شراً :-

إسمه ثابت بن جابر بن سفيان من قيس عيلان . وأمه امرأة يقال لها أميمة من بني القين وهم بطن من فهم . وتأبط شراً لقبه . ومما يروى في سبب هذا اللقب أنه وجد كبشاً في الصحراء فأحتمله تحت إبطه . ولما قرب من الحي ثقل الكبش عليه فرمى به فاذا هو

١ - لويس شيخو اليسوعي ، شعراء النصرانية ، دار المشرق بيروت بدون تاريخ ص ٨٩٢

٢ - الأغاني المجلد الأول ج ٢ ص ١٩١

٣ - نفس المصدر ص ١٩٠

٤ - الأغاني ، مجلد ٩ ج ١٨ ص ١٣٣-١٣٤

٥ - راجع الأغاني ص ١٣٣-١٣٩

الغول فقال له قومه ما تأبطت يا ثابت ؟ قال : الغول . قالوا : لقد تأبطت شراً فسمى بذلك . وقيل أنه لاقى الغول فقتله وحمله تحت إبطه وأتى به لأصحابه فقالوا له لقد تأبطت شراً .

وقد رووا عنه أنه « كان أعدى ذى رجلين وذى ساقين وذى عينين . » وكان إذا جاع لم يقم له قائمة فكان ينظر إلى الطباء فينتقى على نظره أسننها ثم يمرى خلفه فلا يفوته حتى يأخذه فيلججه بسيفه ثم يشويه فيأكله » (١) . وقيل إنه كان أسمع العرب وأكيدهم . وقد روى هو عن نفسه أنه كان إذا لقي رجلاً صاح فيه : أنا تأبط شراً ، فينخلع قلبه حتى ينال منه ما أراد . ويروى عن جريه أنه له ثلاثة إطلاق أولها كالرياح الهابة والثاني كالفرس الجواد والثالث يكبو فيه ويعثر . ومن أخباره أنه في مرة لقى رجلاً فقتله وأستاق غنماً كثيرة (٢) ويقول البعض إنه إنما سمي تأبط شراً بيت قاله هو :-

تأبط شراً ثم راح وإعندي

بوائيم غنماً وبسيف على دخل

عوامل نشأة الصمليكة :-

أثرت عدة عوامل في نشأة ظاهرة الصمليكة . وكانت هذه العوامل تكمن في تركيب المجتمع البدوي الإقتصادي والاجتماعي وظروف بيئته الطبيعية .

أما من الناحية الإقتصادية فقد كان المجتمع البدوي يتكون من طبقتين : طبقة أصحاب الإبل وطبقة الصعاليك المعدمين . وتنحصر ثروة البادية في قطعان من الإبل والمعز والغنم . وقد كانت الإبل هي مقياس الثراء عندهم . وكان في هذا المجتمع طبقة تملك أعداداً ضخمة من هذه الإبل بينما توجد طبقة لا تملك شيئاً . فكان البون بين الطبقتين شاسعاً . ولم يكن أمام الطبقة المعدمة إلا أن يعمل أفرادها في خدمة الأغنياء في أعمال رعى الأبل والقيام بأمرها ، وما إلى ذلك من الأعمال التي لا يقوم بها الأثرياء ، وأما أن ينخرطوا في أعمال الغزو والإغارة للنهب واللب .

١ - الأغاني ، مجلد ٩ ج ١٨ ص ٢١٠

٢ - الأغاني ، مجلد ٩ ج ١٨ ص ٢١٣

ونتيجة لهذا التوزيع غير العادل للثروة في البادية ، فقد كان هناك صراع بين أصحاب الإبل والصعاليك . وكانت الإبل هي المادة التي دار عليها هذا الصراع لأنها هي الثروة الأساسية في البادية . فكان الصعاليك يجرّدون أنفسهم للاغارة على أماكن الإبل يسلبون وينهبون ويقتلون . والواقع أن الإبل لم تكن هي المادة الوحيدة التي دار حولها هذا الصراع . « فإن أيدي الصعاليك لم تكن تمتنع عن أية غنيمة تعرض لهم » (١) . ومن ذلك ما جاء في أخبار السليك بن السليكة أنه في مرة قتل رجلاً وأستاق غنماً كثيرة (٢) . وفي أخبار عروة بن الورد أيضاً أنه سلب هذلياً فرسه (٣) . وإذن لم يكن عمل الصعاليك قاصراً على نهب وسلب الإبل ، بل كانت الحاجة تدفعهم إلى نهب كل شيء ، يجرّدون كل من تسوقه الظروف إلى أماكن ترصدتهم من ماله أياً كان هذا المال .

ومن الناحية الاجتماعية ، كان المجتمع الجاهلي يقوم على أساس قبلي ، لكل قبيلة فيه كيائها الخاص . وتمتاز القبيلة بوحدة أساس التمسك بها والإصرار عليها أن جميع أفراد القبيلة يؤمنون بانحدارهم من أب واحد يتسبون إليه . فهم بذلك يكونون أسرة واحدة متحدة ويعمل الجميع على الحفاظ على هذه الوحدة وحفظها قوية دائماً . وحفاظاً على هذه الوحدة ، فقد إعتبر كل من يحاول تفتيت هذه الوحدة خارجاً على القبيلة . وترتب على ذلك منظومة من التقاليد الاجتماعية التي كانت بمثابة الدستور الذي يحدد المهام في هذا المجتمع المتناسك . وكانت العصية هي أساس هذا الدستور . وهي تعني إحساس الفرد برابطته القبلية والعمل على تأمين مصالح القبيلة والدود عنها .

وكفلت هذه التقاليد الاجتماعية لكل من القبيلة والفرد حقوقه وواجباته . فأفراد القبيلة متضامنون فيما يحنيه الفرد منها وعلى الفرد أن يحترم رأي القبيلة ويتجنب الخروج عليه . كما عليه ألا يأتي بتصرف يسيء إلى القبيلة أو يحط من قدرها وسط القبائل . هذا الإيمان بوحدة القبيلة نشأ عنه ما عرف بالخلع . وهو أن تنبرأ القبيلة من الفرد فيسقط عنه التزامها بحمايته والدود عنه ويصبح طريداً . وهو يعني عزل الفرد عرفياً وسياسياً وإجتماعياً . وهناك لا يبقى أمام الفرد غير التمرد بحكم الضرورة . ونتيجة لهذا تكونت

١ - الشراء الصعاليك ١٤٨ .

٢ - الأغاني مجلد ٩ ج ١٨ ص ٢١٣

٣ - نفس المصدر ج ٣ ص ٨٤ .

في المجتمع الجاهلي طائفة كبيرة من الخلعاء والشذاذ كانوا يؤلفون إحدى طوائف الصعاليك كما رأينا .

وبجانب الإيمان بوحدة القبيلة كان هناك إيمان بمنسها ينبع من إحساس أفراد القبيلة برابطة الدم . وهذا الإيمان بالجنس نشأ عنه إيمان بامتيازهم - فأعتقد أفراد كل قبيلة بأنهم أشرف نسباً من الآخرين وهم لذلك يفضلونهم . ونتيجة لهذا كانت القبيلة تنقسم إلى عدة طبقات : الصرحاء والعبيد والموالي - وقد تزوج بعض من ذوى الدم النقي من طبقة الإماء وأنجبوا منهن أولاداً . ولكنهم رفضوا الحاق هؤلاء الأبناء بهم واستبعدوهم ونسبوهم إلى إماءهم . ورفض هؤلاء الذين سموا بالأغربة هذا الوضع الدليل الذي فرض عليهم وخرجوا على أوضاع القبيلة وثاروا في وجهها من أجل تحقيق حياة حرة كريمة ومن أجل إطفاء نار الغبن المتأججة في نفوسهم . ومن هؤلاء كانت طائفة من صعاليك العرب .

نرى من هذا أن المجتمع الجاهلي بركبيه الإجتماعي القائم على القبيلة كوحدة إجتماعية لها تقاليد تنظم العلاقة بين أفرادها وتؤكد إلتئامهم اليها ، هذا المجتمع أفرز جماعات من الصعاليك هم أولئك الخلعاء والأغربة . وفقد هؤلاء إحساسهم بالعصية القبلية وآمنوا بعصية مذهبية معتمدين على قوتهم في سبيل العيش عن طريق الغزو ، والإغارة للسلب والنهب . ولم يكتف هؤلاء الخلعاء والأغربة بالخروج على القبيلة ، بل ناصبها بعضهم العداء وأغاروا عليها .

وقد كانت ظروف البيئة الطبيعية أيضاً عاملاً مؤثراً في نشأة هذه الظاهرة . فالبيئة التي عاش في كنفها هؤلاء الأعراب كانت بيئة صحراوية يعتمد الناس فيها على ما تجود به السماء والسماء شحيحة في معظم شهور السنة . ولذلك كان إحساس الناس بالفقر كبيراً . فالثروة عندهم محصورة في قطعان الإبل والغنم والمعز وهي ثروة مهددة دائماً نسبة للجفاف وضعف المراعى . وإنحصرت حياة البدو في الرعى وهو ثروة غير مضمونة ومن ناحية أخرى كانت توجد بجوار هذه الاراضى المجربة أراضى خصبة جعلت هؤلاء يشعرون بأن الطبيعة لم تحرم الناس جميعاً . وعموماً نستطيع القول بأن العاملين الإقتصادي والإجتماعي كانا أقوى من عامل الظروف الجغرافية . ولكن هذه العوامل تكاثفت جميعاً في تكوين هذه الطبقة في المجتمع الجاهلي التي عرفت بالصعاليك .

شعر الصعاليك :-

كان للصعاليك شعرهم الخاص . وهو الشعر الذي يمكن أن نطلق عليه « شعر الصعلكة » . ذلك لأن هذا الشعر كان خاصاً بالصعلكة ، معبراً عنها ، ومتحدثاً عن كل ما يتعلق بها . ويأخذ الحديث عن شعر الصعاليك جانبين : الجانب الأول خاص بمفسون هذا الشعر ، والجانب الثاني يتعلق بخصائصه .

(١) المفسون :-

نستطيع أن نقول في هذا الجانب أن شعر الصعاليك كان صدى لما يدور في نفوسهم وتصويراً لحياتهم ومذهبهم وتعليلاً لسلوكهم الذي سلكوه . وبذلك يصبح هذا الشعر مثل المرأة التي تنعكس على صفحتها حياتهم بكامل تفصيلاتها . ويؤيد هذا الرأي عدد من الذين كتبوا عنهم ومن هؤلاء عبد الله عبد الجبار (١) ويوسف خليف (٢) والدكتور سيد حنفى (٣) . أما الجوانب التي أظهرها شعر الصعاليك فهي :-

أ- المغامرات :-

تقوم حياة الصعاليك على المغامرات . ولذلك كان من الطبيعي أن يصور شعرهم هذا الجانب الهام في حياتهم . ويصف الصعاليك هذه المغامرات بكل تفصيلاتها . فوصفوا الغارة في كل مراحلها بدءاً بالإعداد لها وحتى نهايتها . وهم يتحدثون عن هذه المغامرات ، إيماناً بها وإعجاباً وفخراً ببطولتهم فيها ومقدرتهم على النجاة إذا ضيق عليهم الخناق وسدت عليهم السبل في غزوة من غزواتهم . وهم كذلك يسجلون معالم الطرق إلى الهدف وأخيراً يصورون ما ترتب على الغزو من نتائج كسبائهم وإنتصارهم وفزع مقاتليهم .

ب- الرفاق :-

وإذا تحدث الشعراء الصعاليك عن مغامراتهم فإنهم لم يغفلوا الحديث عن الرفاق الذين كانوا يصحبونهم في تلك المغامرات . وهم يتناولون في هذا الجانب مظاهر قوة

١ - عبد الله عبد الجبار ومحمد عبد المنعم خفاجة ، قصة الأدب في الحجاز ، القاهرة ١٩٥٨ م من ٤٢٩ .

٢ - الشعراء الصعاليك ١٥٥ .

٣ - الشعر الجاهل : مراحل وأجياله الفنية ص ٩٢ .

أولئك الرفاق وشجاعتهم وثباتهم وأدوارهم في المعركة . والشاعر منهم حين يتحدث عن رفاقه فإنه يتحدث عنهم « حديث المعجب بهم » . ولمنبر برفقتهم . المقدر لقيمتهم في حياته المغامرة ، تلك الحياة التي يحيها وحيداً إلا منهم ، فهم عونهم على هذه الحياة ، يستعين بهم عليها ، ويستغيث بهم إذا أفرعه أمر ، وهم دائماً أبطال شجمان شعرت لكثرة إشتغالهم بالغزو والكفاح والضرب في أعماق الصحراء وجوب آفاقها ، وهو يأسى لهم ، وفقد أحدهم أضعاف للجماعة (١) وهكذا تقوم علاقة الصعلوك مع رفيقه على التعاون في ساعات الشدة ولحظات الموت . وفي ذلك يقول تأبط شرا :

إذا راع روع الموت وأن حمى

حمى معه حر كريم مصابر

ج- الفرار وسرعة العدو :-

تحدث الصعاليك فيما تحدثوا عن كيفية تخلصهم من الأعداء إذا لم يستطيعوا الوقوف أمامهم ورأوا فيهم قوة ومقدرة تفوق قوتهم ومقدرتهم . وقد فاض شعرهم بأحاديث الفرار هذه . وهم يعتمدون في فرارهم على أرجلهم . ولذلك أهتم الصعاليك بوصف سرعة عدوهم وكيف أنها كانت في كثير من الأحيان وسيلة خلاصهم من قبضة أعدائهم وهي إحدى القوى التي اعتمدوا عليها في مسلكتهم هذا .

د- وصف الأسلحة :-

قلنا بأن الأسلحة كانت بالنسبة للصعاليك القوة الثالثة ، إلى جانب شجاعتهم وسرعة عدوهم ، التي اعتمدوا عليها في مغامراتهم . أما هذه الأسلحة فقد كان منها ما هو هجومي وما هو دفاعي . وقد تحدث الصعاليك عن ذلك جميعاً . وهذه الأسلحة هي عموماً الأسلحة التي كان يعرفها العرب في العصر الجاهلي كالسيوف والرمح والقوس والدروع وما إليها . وقد وقف الصعاليك عند هذه الأسلحة وقفة فاحصة متأملات ووصفوها وصفاً دقيقاً وشاملاً . ويصف الشعراء الصعاليك أسلحتهم المختلفة وصف المفتون بها الذي يهتم بكل أجزائها ، ويحرص على أن يسجل في حديثه عنها كل شيء فيها : لونها وشكلها وصوتها ، وطريقة صنعها وطريقة إستخدامها ، وقيمتها في حياته وفعلها في أعدائه (٢) .

١ - الشعراء الصعاليك ٢٠٤ .

٢ - الشعراء الصعاليك ١٩٤ .

هـ - آراؤهم :-

أبرز الصعاليك في شعرهم آراءهم الاقتصادية والاجتماعية وكانوا بذلك يحاولون تفسير الدوافع وراء حركتهم . ومن أهم المواضيع التي طرعوها في هذا المجال ما يلي :

إنقطاع الصلة بقبايلهم :-

قلنا آنفاً أن الصلة بين هؤلاء الصعاليك وبين قبايلهم قد كانت مقطوعة تماماً . وقد تحدث الصعاليك عن هذه الظاهرة في حياتهم . « ومن الطبيعي أن يتحدث الصعاليك عن إنقطاع الصلة بينهم وبين قبايلهم ، تلك الظاهرة التي كان لها أكبر الأثر في تصعلكهم والتي تعد نقطة التحول أو الحد الفاصل بين حياتهم القبلية بما فيها من توافق إجتماعي وبين حياتهم المتصعلكة بما فيها من شذوذ » (١) . وكان هؤلاء الصعاليك عندما تخلعهم قبايلهم يلجأون إلى قبائل أخرى يستجيرون بها . فتكفل لهم تلك القبائل حتى الجسور وترعاهم . ولذلك كانوا يتحدثون عن تلك القبائل التي ينتسبون إليها بعد انفصالهم من قبايلهم ويمدحونها ويدعون لها بالخير . ومن ذلك قول قيس بن الحداية :-

جزى الله خيراً عن خليع مطرد

رجالا حموه آل عمر بن خالد

و- الفقر :-

كانت عقدة الفقر مما إشتك فيه الصعاليك بمختلف طوائفهم . فهو - أي الفقر - كان من أقوى أسباب تصعلكهم ، ولذلك كثر حديثهم عنه . وقد شمل الحديث عن الفقر عدة جوانب . فمن ناحية تعرضوا لأسباب هذا الفقر وذكروا تأثيره عليهم وأثره في حياتهم الإجتماعية ثم كيفية الخلاص منه . أما عن تأثير الفقر عليهم فيقول عنه السليك بن السلكة :-

وما نلتها حتى تصعلكت حغبة

وكدت لأسباب المنيه أعرف

وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرنى

وإذا أقمت تغشاني ظلال فأسدف

١ - الشعراء الصعاليك ٢٢٨ .

سبب فقرهم يرجع - في نظرهم - إلى جودهم وكرمهم وإيثارهم أحياناً . يقول عروة بن الورد :-

وقد علمت سليبي أن رأسي

ورأى البخل مختلف شئت

وأنى لا يربنى البخل رأى

سوى أن عطشت أو رويت

وإذا كان هذا الفقر قد تمكن منهم ، فلا بد من وسيلة تخلصهم منه . وكانت هذه الوسيلة هي الثورة على المجتمع وأخذ حقوقهم منه . ومن ذلك قول عروة بن الورد :-

ومن يكن مثلى ذا عيال ومقرا

من المال يطرح نفسه كل مطرح

ز- إحتقار الحاملين :-

إحتقر الشعراء الصعاليك تلك الفئة من الفقراء الذين قبلوا بالواقع وعاشوا حياة الدل والقعود الذين لم تنهض بهم همة ولم تقو لهم عزيمة . وصورة الفقير الذي يعيش على فئات الموائد وفضلات الأغنياء هي ليست الصورة التي يجب أن يظهر فيها الصعلوك . أن الصورة للصعلوك - في نظرهم - صورة مشرقة - والصعلوك هو الذي يتعفف عما في أيدي الناس ويثور في وجه المجتمع ويسعى لتحقيق غايته بالقوة ومن ذلك قول السليك بن السلكة :-

ألا عتبت على مصارمتي وأعجبها ذوو اللمم الطوال

فاني يا أبنسة الأقوام أربى على فعل الوضيء من الرجال

فلا تصلى بصعلوك نؤوم إذا أمسى يعد من العيال

ولكن كل صعلوك ضروب ينصل السيف هامات الرجال

ح- الدعوة إلى مذهبهم :-

آمن الصعاليك بعملهم هذا وأنغمسوا فيه . ولكنهم رأوا أن يقرنوا ذلك بالدعوة لهذا المذهب الذي إعتنقوه . فأنطلق صوتهم داعياً ومحبباً هذا المسلك للآخرين . ذلك لأن هذا السلوك في الحياة هو الوسيلة وهو الطريقة المثلى للعيش الأبى الكريم . وهو الوسيلة

الوحدة للفنى ، واللحن هو الوسيلة لكسب مكانة اجتماعى رفيع فى المجتمع القبلى .
أما الفقر فإنه يجلب المذلة والإحتقار . يقول عروة بن الورد :-

خاطر بنفك كى تصيب غيمة
إن القعود مع العيال قبيح
المال فيه مهابة وتجلـــــــــــــــــه
والفقر فيه مذلة وفضوح

ويقول فى بيت آخر :-

متى تطلب المال الممنع بالقـــــــــــــــــنا
تعش ماجداً أو تحترمك المحارم

(٢) خصائص شعرهم :-

تحدث عدد من الكتاب عن خصائص شعر الصعاليك . وقد كانت تلك الخصائص -
على نحو ما سنرى - نتاجاً طبيعياً لنوع حياتهم وما إكتنف تلك الحياة من ظروف جعلت
لشعرهم مذاقاً خاصاً يختلف عن شعر غيرهم من الشعراء الجاهليين . ويكاد يجمع أولئك
الكتاب على أن أهم خصائص شعر الصعاليك تتمثل فى الآتى :-
شعر مقطوعات :-

كان أكثر شعر الصعاليك يحىء فى شكل مقطوعات . وهو لم يكن يخلو من
القصائد ، ولكن ذبوع المقطوعات كان أكثر من ذبوع القصائد . ولا بد أن يكون لذلك
سبب ، فقد عاش هؤلاء الشعراء فى زمن كان الشعر فيه ينظم فى شكل قصائد غاية فى
الطول ، فيما هو إذن السبب فى تميز شعرهم بهذه الخاصية ؟

يرى الدكتور يوسف خليف أن هذا يرجع إلى أن حياة الصعاليك كانت مشغولة
بالكفاح فى سبيل العيش وليس فيها فراغ للتطوير والتجويد وإعادة النظر كما كان يفعل
الشعراء القبليون . ويرى آخرون أنه ربما كان السبب فى ذلك هو أن هذا الشعر قد وصل
إلىنا مفرقاً فى مصادر مختلفة أكتفى كل منها برواية ما يتفق مع الغرض الذى أورد الشعر
من أجله . ويقول الدكتور الحوفى فى تعليقه لهذه الظاهرة فى شعر الصعاليك :- ولعل
مرد هذا إلى أنهم ذوى خفة وسرعة وإختلاس ، لم يألفوا التمهل والتروى والتنسيق ،

فجاء شعرهم صورة من حياتهم (١) . والواقع أن هذه الحياة القلقة المضطربة التى
يغمرها الشعور العميق بقرب النهاية لا تدع مجالاً للتأمل والإطالة والفن يتأثر بالحياة .

الوحدة الموضوعية :-

المقصود بالوحدة الموضوعية هو خلو شعرهم مما كان يزبن الشعر الجاهلى من
المقدمات التمهيدية من غزل وبكاء أطلال ووصف لرحيل أو رواحل أو إستطراد إلى
موضوع آخر . فقد جاء شعر الصعاليك خالياً من كل ذلك . إذ أن الشاعر منهم يعبر
تعبيراً مباشراً عما يعتل فى نفسه ، وما يريد أن يصفه أو يطرحه من آراء وأفكار . وهذا
أما لم يألفه الشعر الجاهلى . يقول الدكتور سيد خنفي عن الوحدة الموضوعية فى شعر
الصعاليك :- كذلك نجد الوحدة الموضوعية فى مقطوعات الصعاليك وهى خاصة
لا تتحقق فى القصائد الطوال للشعراء الآخرين ، فكل مقطوعة تصور موضوعاً واحداً
دون مقدمات أو تمهيدات ، قد يكون وصفاً لمغامرة أو حديثاً عن الفرار وسرعة العدو ،
أو حملة على وضع اجتماعى (٢) . وذلك أيضاً من آثار نوع الحياة التى يجيئها .

التحلل من الشخصية القبلية :-

قلنا فى حديثنا عن العامل الاجتماعى لنشأة هذه الظاهرة أن الصلة بين هؤلاء
الصعاليك وبين قبائلهم قد انقطعت . ولم يعد هناك ما يجعل الشاعر مطالباً بالدفاع عن
القبيلة أو المفاخرة بها وتعميد ، مآثرها وأمجادها والمباهاة بأصالة نسبها . وليس من المتوقع
أن يقف الشخص مدافعاً أو مباهاياً بعشيرته لفظته وقبيلة خلعت . وما دامت الصلة بين
الشعراء الصعاليك وبين قبائلهم قد انقطعت اجتماعياً ، فمن الطبيعى أن تنقطع فنياً .
ونعنى بانقطاعها فنياً تحلل الشاعر الصعلوك من ذلك « العقد الفنى » الذى نراه بين الشاعر
القبلى وقبيلته ، فلا يكون الشاعر الصعلوك « لسان عشيرته » لأن ما بينه وبين عشيرته قد
انقطع ، ولا يكون شعره صحيفة قبيلته لأنه لم تعد له قبيلة ، وإنما يصبح شعره صورة
صادقة كل الصديق من حياته هو (٣) . ولكن يجب أن نشير هنا إلى أن صفة

١ - الدكتور أحمد محمد الحوفى ، الحياة العربية من الشعر الجاهل ، مطبعة نهضة مصر بالقاهرة ١٩٦٢ .

ص ٣٠٦ .

٢ - الشعر الجاهل : مراحل واتجاهاته الفنية ٩٨ .

٣ - الشعراء الصعاليك ٢٧٥ .

الجماعية لم تنف من حياة الصعلوك . فهؤلاء الصعاليك كونوا لأنفسهم جماعة يجمعها مذهب واحد وتدين بعصية مذهبية واحدة . ومع ذلك فقد كان لكل صعلوك شخصيته الفردية إلى جانب الشخصية الجماعية . وعموماً فقد جاء شعر الصعاليك نتيجة لتسلك الظروف الاجتماعية التي عاشها الصعاليك ، خالياً من مدح القبيلة أو التغنى بأعجادهما والإعتداد بأصلها وتعبيد مآثرها .

خلوه من الغزل :-

يقول الدكتور الحوفي : « ليس في شعرهم غزل ، وكيف يتغزل من يقضى نهاره يترقب وليله يترصد ولا يستقر في مقام » (١) . كانت المرأة موجودة في حياة الصعاليك وشعرهم . وكان الصعاليك يكثر من توجيه الخطاب إلى زوجاتهم فسي شعرهم لأنهم كن يحاولن أثناءهم عما هم فيه لخوفهن عليهم من الأعداء . يقول عروة بن الورد :-

أرى أم حسان الغداة تلومني
تخوفني الأعداء والنفس أخوف
تقول سليمى لو أقمت لسننا
ولم تدر أنى للمقام أطوف
لعل الذى خوفتنا من أماننا

بصادقه في أهله المتخلف

وإذا استمرت زوجته تلومه وتعتب عليه وتطلب منه أن يقلع عن سعيه وراء مال الآخرين دفع إليها بسبب تمسكه بهذا النوع من الحياة وإصراره عليه :-

دعيني للغنى أسمى فأنسى

رأيت الناس شرهم الفقير

هذا وقد عد بعضهم ظاهرة الحديث إلى الزوجات هذه من الخصائص الأساسية لأدب الصعاليك (٢) . فالمرأة إذن لها وجود في شعر الصعاليك ، ولكنها ليست تلك التي

١ - الحياة العربية من الشعر الجاهل ٣٠٦ .

٢ - الحياة العربية من الشعر الجاهل ٣٠٦ .

الشاعر بها ويتبدل في حبها ويقف على أطلالها باكياً ما إنقضى من أيامه معها ، شاكياً لصاحبه قسوة فراقها وتباريح شوقه إليها . ولكن المرأة عند الصعاليك « هي الزوجة المحبة الحريصة على فارسها ، التي تدعوه إلى المحافظة على حياته إن لم يكن من أجل نفسه فمن أجلها هي » (١) . والواقع أن حياة الصعاليك غير المستقرة على حال ، لا تسمح لهم بالوقوف والتأني لرسم صورة المرأة أو التغنى بصفاتها ووصف مفاتنها وإبراز محاسنها . ذلك لأنها حياة مشغولة بالكفاح في سبيل العيش . هذه الحياة الصعاليك برزت في شعرهم فصاروا أداة تعبير مباشر عنها وإنشغلوا بها عن غيرها .

الواقعية :-

شعر الصعاليك يصف واقعهم كما عاشوه . فوصف جوانب حياتهم المختلفة حكى عن أسباب خروجهم على المجتمع وإنتشارهم في بادية الجزيرة العربية سعياً وراء المال . وومغاصهم رأتهم التي كانوا يدخلونها والغزوات التي كانوا ينظمونها والمعارك التي كانوا يخوضونها . فكانوا يصفون الغزوة منذ بداية التخطيط لها ثم الطريق إلى الهدف ، وإذا دارت معركة وصفوها ووصفوا دور كل واحد منهم فيها . وكانوا في كل ذلك يتعدون عن الإمعان في الجبال والتهويم في عالم غير واقعي . ولم تكن حكاية المعارك هذه تقتصر على أخبار بطولتهم وصمودهم ، بل كانت إلى جانب ذلك تتحدث عن فرارهم في وجه العدو إذ أحسوا فيه قوة تفوق قوتهم .

وصور شعرهم كذلك مظاهر البيئة البدوية التي كانوا يعيشون فيها . فوصفوا ظروف الصحراء بحرماً وبردها وظلامها ، كما وصفوا ما فيها من حيوانات ووحوش رابضة في أرجائها وحشرات سارية فوق رمالها . ولم يغفلوا عن وصف مظاهر الطبيعة كالبرق والرعد والمطر والندى المتساقط في أول الليل . وباختصار صوروا كل مظاهر تلك البيئة تصويراً متأثراً بها والمتفاعل معها .

وأهم من ذلك أن الشعراء الصعاليك صوروا الحياة الواقعية التي يحيونها بكل تناقضاتها . فوصفوا كرمهم ومروءتهم وعظفهم على الفقراء والمرضى والضعفاء . وفي الجانب الآخر تحدث الصعاليك عن سلبهم ونهبهم وفتكهم وسفكهم دماء الناس . وبنفس المستوى تعرض الصعاليك بالحديث لصفاتهم الكريمة فوصفوا شجاعتهم وبطولتهم

١ - الشعراء الصعاليك ٩٨ .

وقوتهم ومغامراتهم وتعرضهم للاخطار . وصور شعر الصعاليك كذلك فقرهم المدقع والجوع الذي كان يمزق أحشاهم والهزال وهوان مترلتهم في مجدهم . ولكنهم مسح ذلك . صوروا الشخصيات الإنسانية التي يتصلون بها . كما يرونها في الواقع المحسوس بكل ما بينها من تباين واختلاف : الأعداء والأصدقاء ، والصعاليك العاملين والصعاليك الخاملين ، والنساء المشجعات والنساء المشبطات ، والأغنياء المترفين والصعاليك المعوزين ، (١) . وهكذا جاء شعر الصعاليك مصوراً لكل تلك الجوانب من الحياة الواقعية كانت هي الأساس الذي قام عليه شعرهم .

الخلاصة :-

تقودنا تلك المناقشة لموضوع الصعلكة والصعاليك إلى النتائج الآتية :-

- (١) الصعلكة طريقة في الحياة تقوم على نهب وسلب أموال الأغنياء عن طريق الغزو والإغارة . وكان محترفو هذه الصعلكة جماعة من الشعراء من مختلف القبائل في الجزيرة العربية عرفوا في تاريخ الأدب العربي بالصعاليك .
- (٢) كان مسرح أحداث هذه الظاهرة هو بادية الجزيرة العربية منذ عهود ضاربة في القدم ، وبوضوح أكثر منذ أكثر من ألف وخمسمائة عام من الزمان .
- (٣) كان أولئك الصعاليك منبوذين من قبل المجتمع القبلي آنذاك . وكان من أسباب تصعلك طوائف منهم خلعتهم بواسطة قبائلهم أو أنكار أبوتهم . والمهم أن مجتمعهم لم يكن يقرهم على عملهم هذا ولم يكونوا هم في توافق مع هذا المجتمع .
- (٤) رغم اشتغال هؤلاء الصعاليك بالنهب والسلب وما يتبع ذلك من سفك للدماء وتعرض للابرياء فقد كانوا على قدر كبير من الأباء والكرم والمروءة ، يعطفون على الفقراء ويعينون الضعفاء ويبدلون ما في أيديهم غير آبهين بنفاده ، فكان فيهم كثير من الإيثار .
- (٥) كان هؤلاء الصعاليك شعرهم الذي يحمل طابعهم ويعبر عن معتقداتهم ونسوع حياتهم ويصف دقائق تلك الحياة وتفصيلاتها . وهو شعر ذو خصائص تميزه عن

نوع الشعر الذي كان موجوداً آنذاك . وتتلخص هذه الخصائص في :

- (١) قصر القصيدة .
- (٢) الوحدة الموضوعية .
- (٣) التحلل من الشخصية القبلية .
- (٤) خلوه من الغزل .
- (٥) الواقعية .

بين الهمبة والهمباته والصعلكة والصعاليك

تحدثنا فيما مضى — عن ظاهرة الهمبة . وقد تضمن حديثنا كل الجوانب المتصلة بها ، بدءاً بمعناها وأصولها ونشأتها ، مروراً بعوامل تلك النشأة ، وقواعد الهمبة ونظمها وقيمها وإنهاء بشعرهما ، موضوعاته وخصائصه .

وتعرفنا أيضاً على الملامح الأساسية في ظاهرة الصعلكة . وقد تناول الحديث هنا : المعنى ، عوامل النشأة ، مزايا الصعاليك وأسلوبهم في الحياة ، ثم شعر الصعاليك ، مضمونه وخصائصه .

والآن وقد تكشفت لنا كل الجوانب المتعلقة بالظاهرتين ، فانه يمكننا أن نجسرى ما نزمعه من مقارنة بينهما . أما الدوافع لإجراء هذه المقارنة فأحدها هذا التشابه بين الظاهرتين في كثير من النواحي . ثم أن بعض الذين تطرقوا لظاهرة الهمبة — إنطلاقاً من هذا التشابه — قد حاولوا إلحاقها بظاهرة الصعلكة وكأنما هي امتداد لها أو هي صورة واحدة تتكرر بعد آلاف السنين في بادية السودان . والواقع أن هناك الكثير من نقاط الالتقاء بين الظاهرتين ، بيد أنه هناك أيضاً عدد من الاختلافات الجوهرية بينهما .

وحتى نتمكن من خلق مقارنة مفيدة ، رأينا أن نحدد نقاطاً بعينها لئلا نرى صورة كل منها في كل من الظاهرتين ، وهذه النقاط هي — في رأينا — المكونات الأساسية لكل من الظاهرتين ، وهي :—

(١) الدلالة والمعنى : نتعرض هنا لمعنى كل ظاهرة لئلا نرى ما إذا كان هناك تطابق في الدلالة والمعنى .

(٢) المسرح : نعني به الحيز المكاني الذي دارت عليه أحداث كل ظاهرة .

(٣) نظرة المجتمع القبلي : نهدف هنا إلى التعرف على رأى القبيلة في الحالتين في هذا الضرب من السلوك .

(٤) الدوافع : نتحدث عن دوافع كل ظاهرة ومسبباتها لئلا نرى ما إذا كان هناك اختلاف أو تطابق بينهما .

(٥) النظم : نتطرق للقواعد والنظم التي تقوم عليها كل ظاهرة ومدى قوة تلك النظم وفعاليتها في كل حالة .

(٦) المزايا والقيم : نناقش قيم ومزايا كل جماعة لتؤكد من إتفاق تلك القيم والمزايا أو اختلافها في الحالتين .

(٧) الشعر : ننظر في موضوعات وخصائص الشعر المرتبط بكل من الظاهرتين والمميزات الأساسية التي يتصف بها كل شعر ومدى إنطباقها على الآخر .

(١) المعنى والدلالة :—

عرفنا الهمبة بأنها : « طريقة في الحياة تقوم على نهب وسلب الإبل عن طريق الغزو والإغارة » . وخرجنا مما كتب عن الصعلكة أنها : « طريقة في الحياة تقوم على نهب وسلب أموال الأغنياء عن طريق الغزو والإغارة » .

وندل الممارسة اليومية لجماعة الهمباته أنهم لم يكونوا ينهبون غير الإبل . ومن قواعد الهمبة الأساسية الإقتصار على نهب الإبل . وهذا هو الأساس الذي يقوم عليه التفريق بين الهمباتي وغيره . وقد كان لهذا الإقتصار على نهب الإبل أسباب ومبررات تحدثنا عنها في الفصل الأول من الباب الثاني من هذا البحث . ولا أرى أننا في حاجة للتكرار ، إذ يمكن الرجوع إلى ذلك في موضعه .

أما الصعلكة فأنها لم تقتصر على نهب نوع معين من المال . بل كان الصعاليك ينهبون كل ما يصادفهم ويسلبون كل من تقوده ظروفه إلى أماكن ترصد لهم ماله أيضاً كان ذلك المال — وقد ذكرنا آنفاً في أخبار السليك بن السليكة أنه قتل رجلاً وسلب غنماً كثيرة . وفي أخبار عروة بن الورد أنه سلب هذلياً فرسه . وقد رأينا كيف أن الهمباته كانوا لا ينهبون الماعز ويختفرون من يسرق « الزاملة » وذلك ما أشرنا إليه : « جمل الشيخ عبد القادر » أي الجمل الوحيد عند صاحبه . والسبب في إقتصار الهمبة على نهب الإبل وإتساع الصعلكة لتشمل بالنهب كل شيء يرجع — في رأينا — إلى أن الحاجة والفقر والفاقة القائلة لم تكن سبباً رئيسياً للهمبة . وقد ذكرنا آنفاً أن من الهمباته من كان من أسرة ثرية لما هو الحال بالنسبة للطبيب ود ضحوية مثلاً . فالهمبة كانت ضرباً من التفاخر في بعض صورها ، وكان لابد أن تكون الإبل هي مادة هذا الصراع لأنها مقياس الثراء في المجتمع الرعوى في البادية .

وإذا اخترنا الموقف في حالة الصعلكة فأننا نلاحظ أن الشعور بالفقر كان حساداً حتى أن الظاهرة نفسها عرفت بالصعلكة وهي تعني في الاستعمال اللغوي الفقر كما رأينا . المهم أن الفقر كان ميباً رئيسياً وراء ظاهرة الصعلكة وكانت الحاجة تشتد بهم والجوع يعتصر أمعائهم ، فلا يجدون بداً من السطو على أي شيء ونهب كل ما يقيهم قسوة الجوع ويخفف عليهم عمق الإحساس بالحرمان .

إذن فالطريقتان تقومان على النهب والسلب عن طريق الغزو والإغارة وما يتبع ذلك من معارك وسفك دماء وفك بالناس ، ولكن الهباته تخصصوا في نهب الإبل ولم تمتد أيديهم إلى غيرها مهما كانت الظروف . وكان الاعتقاد لديهم أن السارق هو الذي يتعرض لغير الإبل وأن عملهم ليس سرقة . يقول أحدهم في ذلك : « في ناس بسوقوا غير أيل لكن ديلا ما هو سراجة ، ديلا بي صفتهم سراريق ، السراق دا يسرق البيت ، يسرق العنز ، يسرق الدكان » (١) .

(٢) مسرح الأحداث :-

كانت بادية الجزيرة العربية هي المسرح الذي شهد أحداث الصعلكة ، حيث كان الصعاليك يتشرون في ربوعها وبقاعها ينهبون ويسلبون . وهذه البادية بطبيعتها وظروفها الاقتصادية والاجتماعية هي التي أفرزت هذه الجماعة التي عرفت بـ «الصعاليك» . وفي السودان كانت البادية الرعوية كذلك بظروفها الخاصة المتميزة هي مصدر جماعة الهباته وهي المسرح الذي أدوا فيه دورهم . ففي كلا الحالتين كانت البادية هي مسرح الأحداث وهذا ربما دفع على الاعتقاد بأن حياة البوادي تساعد على نشأة ونمو مثل هذه الظواهر . يقول الدكتور عز الدين إسماعيل في ذلك : ولكن يبدو من تكرار هذه الظاهرة (يعني الهبته ويسمياها الصعلكة) في بوادي الجزيرة العربية وبوادي السودان أن حياة البوادي تساعد على ظهور هذا الطراز من الحياة ، حيث يقيم بعض الناس من أنفسهم قوامين على العدالة الاقتصادية فيسلبون وينهبون لكي يعطوا الفقير والمحروم ، ويجدون في هذه المغامرة ، وبكل ما يرتبط بها ويرتب عليها أحياناً ، متعتهم الشخصية » (٢) .

ونحن نرى أن ارتباط مثل هذه الظواهر بالبادية يرجع إلى الأسباب الآتية :

١ - الارشيف شريط رقم م/د/١/١٨٩٦ .

٢ - الشر القوي في السودان ٢٧ .

أ- ينقسم المجتمع البدوي إلى عدة قبائل ترى كل قبيلة أنها أعرق نسباً وأرفع مكانة من غيرها . أما أنجع وسيلة لإثبات ذلك فهي الاحتكاك المباشر بالقبائل الأخرى عن طريق الحرب . وذلك أحد مظاهر العداء القائم بين القبائل في البادية . ولهذا العداء مظهر آخر وهو أن تغير قبيلة ما على قبيلة أخرى بغرض تحقيق عائد اقتصادي . وبذلك أصبح السلب والنهب إحدى القيم التي يقدمها المجتمع البدوي ويقوم عليها . ولا بد أن نذكر أنه توجد في المجتمع البدوي ضوابط على كل شيء حتى النهب والسلب والخروج على القانون . وحتى الحروب بين القبائل لها آداب مرعية .

ب- البادية في إنساع أراضيها ، وتراعى أطرافها ، ووحشية طرقها ، وإمتداد سهولها ، تشكل مجالا رحباً لممارسة مثل هذا النوع من النشاط . لأن نهب الشيء يستلزم الإبتعاد نجاة به من احتمال تتبع صاحبه لأثره ، ولا بد أن يضع الناهب بينه وبين مطارده مسافة يعجز معها المطارد من مواصلة المطاردة . والبادية لذلك هي أنسب مكان لمثل هذا النوع من العمل .

ج- البادية بحكم طبيعة حياة سكانها غير المستقرة تجعل من الصعب فرض السيطرة عليهم بواسطة الدولة . فقد كان البدوي - إلى وقت قريب - في مأمن من كل سيطرة وبعيداً عن قبضة القانون . فهو أقدر على الحركة ، ويعيش في عزلة لا تمكن من متابعته ومعرفة نواياه وأعماله والحد من تصرفاته غير القانونية - كما أنه من الناحية الأخرى مقاتل مجيد . ولكن لا بد أن نشير هنا أنه نسبة للتطور التكنولوجي ، فقد البدوي كل هذه المميزات وأصبح في متناول يد الحكومة لأنها أصبحت أقدر على الحركة منه ، وتملك من وسائل القتال ما يفوق وسائله البدائية .

د- حصرت الطبيعة عمل البدو في الرعي . وبذلك أوجدت في حياة البدوي فراغاً هو في حاجة إلى أن يملأه . وقد كانت إحدى وسائل ملء هذا الفراغ هي الحروب وكان النهب والسلب هو وسيلة أخرى لسد هذا الفراغ .

هـ- توزيع الثروة في البوادي الرعوية غير عادل . إذ أنه يوجد في البادية طبقتان طبقة تملك ثروات طائلة من الماشية ، وطبقة لا تملك شيئاً . وهذه الطبقة الأخيرة تعيش في حالة نفسية سيئة من جراء ما تعانيه من البؤس والشقاء والحرمان تصل بها إلى حد حمل السلاح لتحقيق عدالة حرمتها إياها الطبيعة .

(٣) نظرة المجتمع القبلى :-

رأينا فى مناقشتنا لدوافع الهمة وأسبابها أن القبيلة لم تكن بمعزل عنها ، بل كانت بتقاليدها وقيمها وعاداتها دافعاً قوياً من دوافعها . فهى ترى أن الهمة تقليد يجب أن يراعى ، ولذلك كان الهبائى مكان حفاوة وتقدير . والمقصر عن الهمة مكان تعنيف وتحقير . والهمة من الناحية الأخرى أسلوب فى الحياة كفيل بتوفير المال عندما تشع السماء وتمسك الأرض ثمراها فى جوفها وتصبح غير قادرة على العطاء . وليست الهمة فى نظر القبيلة ، سرقة أو حراماً ، بل هى حلال طيب وباب مشروع من أبواب الرزق بل هى مجال لإبراز صفات الشجاعة والفروسة والقوة . ذلك باختصار هو موقف القبيلة من الهمة ونظرتها للهيبائى . وما دامت التقاليد القبيلة ، وهى بمثابة الدستور ، تبيح مثل هذا العمل وتحض عليه ، فقد وجب على الفرد ، تمسكاً مع هذه التقاليد والتزاماً بالدستور أن يسلك هذا السلوك وينحو هذا النحو فى حياته لئلا يعد شاذاً عن المجتمع الذى تحكمه تلك التقاليد .

ولم تكن القبيلة تكتفى بتوجيه الفرد منها لمثل هذا السلوك فقط ، ولكنها كانت تدافع عنه ونحمة وتقدم له المساعدة إذا كان فى موقف يستدعى أن تمد له يد المساعدة فإذا وقع فى جريمة بسبب هذا النهب والسلب ، فأنها لا تألو جهداً فى سبيل تخليصه ودفع ما يقرر عليه غرامة مثلاً إذا لم يكن فى مقدوره دفعها . وفى سؤال عن موقف القبيلة إذا وقع بعض أفرادها من الهيبات فى قبضة السلطة يقول أحدهم : « بتفكهم » ويقول آخر : « بتفكهم بى قرشهم وبتفكهم بى أبيديهم » (١) .

ذلك كان هو موقف القبيلة فى السودان من الهمة والهيبائى . فما هو موقف القبيلة العربية قديماً من الصعلكة والصعلوك ؟

حين تحدثنا عن العوامل المؤثرة فى نشأة الصعلكة وضح لنا فى الجانب الاجتماعى أن من ضمن الأسباب القوية لنشأة الصعلكة فقدان الإنتماء إلى القبيلة . ورأينا أن الصعلكة هى فى الواقع ثورة على أوضاع المجتمع الجائرة . فالذى يرتكب مخالفة تضر بوحدة القبيلة تخلعه القبيلة ويصبح طريداً ، فيجند نفسه للانتقام من هذا المجتمع الذى لفظه . ومن ناحية أخرى كان هناك الأغربة الذين كانوا نتاج زواج غير متكافئ فرفضهم

المجتمع بسبب سواد لوهم فأنطلقوا فى الآفاق يسلبون وينهبون ويقتلون إنتقاماً لأنفسهم من هذا الظلم الاجتماعى الذى لم يكن لهم فيه يد ، إذ هم لم يكونوا مسئولين من عار ولادتهم . المهم أن هؤلاء وغيرهم لم يكونوا فى توافق مع مجتمعهم ، وكانت القبيلة والمجتمع الجاهلى عموماً يشجب سلوكهم هذا لأنه يشكل تحدياً لأمنه وإطمئنان أرجائه .

وهكذا نرى أن الهمة كانت تتمتع بالدعم الاجتماعى من جانب القبائل نفسها . فالهيبات يحتفلون بعضويتهم فى مجتمع القبيلة . والمجتمع نفسه يشجع إنخراطهم فى هذا العمل ويدعوهم للنهوض وترك حياة الدعة والحمول والتعود . ليس ذلك فحسب . بل أن القبيلة لا تقف مكتوفة الأيدي إزاء أفرادها العاملين فى الهمة إذا أحست أنهم فى حاجة لمساعدتها أو دعمها . فهذا يضاف إلى الضمانات الأخرى التى يقدمها مجتمع الهمة نفسه لأعضائه . والهيبائى لا ينهب قبيلته قط لأنه يشعر بانتمائه لها ويدعمها له . ولكن القبيلة العربية فى الجاهلية لم تكن لها أية علاقة بالصعلوك ، بل هو منبوذ من جانبها لا تقره على عمله بل وتبيع دمه . فنحن إذن أمام نظرتين : نظرة مؤيدة وحامية ونظرة معارضة وشاجبة .

(٤) الدوافع :-

إن الدوافع القوية ذات الأثر العال فى الحالتين لا تعدو أن تكون دوافع اجتماعية تتعلق بمفاهيم المجتمع وقيم وعاداته وتقاليد ، وإقتصادية تتعلق بتركيبه الإقتصادى وتوزيع الثروة فيه . وطالما أننا نتحدث عن ظاهرتين أساس فلسفتيهما النهب والسلب عن طريق الغزو والإغارة ، فأننا نتوقع أن تكون هناك بعض الدوافع المشتركة ولكن هذا لا ينفى وجود بعض الدوافع التى تنفرد بها ظاهرة دون الأخرى ، وذلك بسبب اختلاف ظروف المجتمع الذى نشأت فيه .

الدوافع الاجتماعية :-

أ- إذا فحصنا دوافع الهمة الاجتماعية ، فأننا نلاحظ أن القبيلة بتقاليدها وعاداتها وقيمها تقف فى مقدمة هذه الدوافع . ونحن حين نقول القبيلة فأننا فى الواقع نعنى المجتمع البدوى الرعوى عموماً ، لأن القبيلة تمثل الوحدة الاجتماعية التى يقوم عليها المجتمع البدوى . فقد رأينا مثلاً ، أن من عادات بعض القبائل أنه لكى يبرهن الفرد منها

على بلوغه قلد الرجال ، فأن ذلك يتطلب منه أن ينهب إبل الغير . ورأينا أيضاً أن بعض القبائل ترى في شخصية الهبائي الزوج المثالي . وتعليلهم لذلك أن طبيعة البيئة الصحراوية غير مضمونة ، فهي تعتمد على ما تجود به السماء . وإذا شحت السماء وجد الإنسان نفسه في حالة من البؤس لا يملك معها حولا ولا قوة . أما العمل في النهب والسلب فهو مصدر دخل مضمون لا يتأثر بعوامل الطبيعة وتقلباتها . ومن هنا كانت الهبنة في مجتمع القبيلة قيمة من قيمة وتقليداً من تقاليده يجب أن يراعى . وبذلك تأخذ الهبنة بعدها الإجتماعي وإذا حاولنا أن نطبق ذلك على مجتمع الصعلكة فنانا نجد أن الصورة تختلف تماماً فالصعاليك أنكروا قبائلهم وجردتهم من عضويتها فخرجوا على نظمها وقيمها وتقاليدها وسلوكها طريقهم في الحياة بما يضمن لهم فرص العيش . فليس في المجتمع إذن ما يجعل الصعلكة عملاً مثالياً . بل هي عمل محتقر لا يلتحق به إلا أولئك الذين وقع عليهم ضرر إجتماعي . فأرادوا أن يعوضوا ما فقدوه عن طريق القوة وأقاموا لأنفسهم مجتمعاً ذا كيان خاص . وهو مجتمع مستقل إستقلالاً تاماً كأستقلال أفرادها ، ليس هناك ما يشده إلى المجتمع الأول أو يربطه به . والعلاقة بين المجتمعين علاقة عداة مستحكم ودائس . وقد وصل بعضهم درجة كان يغير فيها على قبيلته وينهب مالها . وذلك - في نظرنا - أمر طبيعي لأن هذا الشخص المخلوع والنبوذ لم يعد ينتمي إلى تلك القبيلة التي يرى أنها جنت عليه حين خلعت أو أنكرت عليه . ولذلك فأن الإغارة عليها هي من باب الإنتقام للظلم الإجتماعي الذي وقع عليه .

ب- تعتبر المرأة دافعاً قوياً من دوافع الهبنة ، وذلك بتشجيعها وأعجابها بالمشتغلين بها . فمن أجل هذه المرأة المشجعة والمعجبة ومن أجل الأمة التي يقصدها الهبائي لقضاء لحظات اللهو والمرح ، من أجل هذا يعتلى الهبائي ظهور جماله ويهيمن في الصحراء متعرضين للاخطار والمغامرات وأهمية المرأة هنا تنبع من الوظيفة الإجتماعية التي تتمتع بها في المجتمع البدوي فسي السودان - كما أوضحنا في موضع غير هذا . فقد كانت المرأة تغني للهبائي وتمدحه وتبدي إعجابها به من خلال ذلك الغناء . ولا أظن أننا في حاجة لأن نعيد ما فصلنا القول فيه في الباب الثاني من هذا البحث .

ذلك كان هو موقف المرأة من الهبنة في السودان ودورها في توجيه أنظار الناس إليها . فماذا كان موقف المرأة من الصعلكة في العصر الجاهلي ؟

إن الصورة الواضحة في هذا الموضوع هو صورة المرأة الزوجة . فقد كان لهؤلاء الصعاليك زوجات يشاركنهم الحياة التي يعيشونها ويقاسمهم الآلام التي يحسونها والحرمان التي يكتنون بناره . ورغم الجوع والفنك والحرمان كن يتخوفن كثيراً من تعرض أزواجهن للاخطار . ولذلك كن يبذلن غاية ما في وسعهن لأثناء أزواجهن عن المضى في هذا العمل ويطالبنهم بالكف عن حياة التشرذ في أرجاء الصحراء الموحشة . ولم يكن الصعاليك يستجيبون لهذه الرجاءات المتكررة من هؤلاء النساء . ولكنهم كانوا يحاولون إقناعهن بأن هذا السلوك لابد منه لأنه المخرج الوحيد أمامهم من الظلم الواقع عليهم وهو ضمان الحياة والوسيلة للابتعاد من شبح الجوع المائل دائماً أمامهم . ولذلك يكثر في شعرهم توجيه الخطاب إلى زوجاتهم وذكر لومهم لهم وعتابهن . وكان هؤلاء النساء يكتفين باللوم والرجاء . ولذلك كانت محاولتهن تسم بالكثير من الدابة :

ألا عتبت على فصارمتنى
وأعجبها ذوو اللم الطوال

فهي تعاتب وتبدي رأيها في إقامته وشعورها إذا هو إستجاب لها فأقام ، ولكنها لا تملك غير ذلك . ولعلها أن تكون في ذلك مواجهة بالواقع . ففرصة الحياة أمامهم ضيقة إلا من هذا العمل . وترك هذا العمل يعني الموت جوعاً . فلا مفر إذن من التثبت به والإصرار عليه . فهي إذن لا تستطيع أن تتشدد في موقفها أو تصر على رأيها لأن البديل أخطر مما تعاتب وتلوم عليه .

الدوافع الإقتصادية :

ذكرنا أن المسرح الذي شهد أحداث الظاهرتين هو مسرح بدوي ذو طبيعة رعوية . وإقتصاد البادية يقوم على كميات الماشية بأصنافها : المعز والغنم والإبل . والإبل هي أساس الثروة في هذا المجتمع . ولذلك كانت هذه الإبل تشكل مادة الصراع الدائر بين الطبقتين الإقتصاديتين اللتين يتكون منهما المجتمع الرعوي في البادية : طبقة أصحاب الإبل وطبقة المعدمين الذين يفتقرون إلى بعير يرتحلون عليه ويحملون عليه متاعهم . وأحس الفقراء المعدمون بالغبن الواقع عليهم من جراء سيطرة أصحاب الإبل على الحياة الإقتصادية والإجتماعية . فسعوا إلى خلق نوع من التوازن وكانت وسيلتهم إلى ذلك هو

الغزو والإغارة للنهب واللب بغية سد الحاجة وتجريد أولئك المتحكمين في شؤون المجتمع من هذا المظهر من مظاهر السلطان الذي يتمتعون به .

على أننا يجب أن نلاحظ أن حدة الشعور بالفقر والإحساس بالحرمان كانت أقوى في حالة الصعاليك منها في حالة الهبات . فقد كان الفقر هو أحد الأسباب الرئيسية وراء ظاهرة الصعلكة . ولذلك كثر الحديث عنه في أخبار الصعاليك وشعرهم . ولم يكن أمام الصعاليك إلا أن يحاولوا الحصول بالقوة على ما يقيمهم عائلة الفقر . فهناك الزوجة والأطفال الذين يتلفتون بحثاً عن لقمة العيش . فلا مفر إذن من أن يجازف الفرد منهم بالموت خير من حياة يلفها الفقر والحرمان .

وهكذا نرى أن الغرض في كلتا الحالتين هو الحصول على المال . ولكن المسال لم يكن هدفاً في ذاته وإنما كان وسيلة لغيره . وهنا يأتي الاختلاف . فالصعاليك أرادوا المال ليتقوا به غوائل الجوع المسيطر على حياتهم وحياة غيرهم من الضعفاء والمحرومين بيد أن الهبات أرادوا المال ليشبعوا عن طريقة هوايتهم في اللهو والمجون في المجالس التي يرتادونها . ولذلك كثر الربط في شعرهم بين المغامرة بلحلب ما يرضى المرأة وبين الموت كبديل لعدم ذلك . ولا بد أننا نلاحظ أن الدافع الإقتصادي في حالة الصعاليك هو بلا أدنى شك أهم الدوافع ، ولكنه بالنسبة للهباتي ليس كذلك ، فقد ذكرنا سابقاً أن بعض الهبات من أسر ذات ثراء واسع . فنحن نلاحظ أن الصعلوك يضع في إعتباره احتمالين : الغنى أو الموت ، ويضع كذلك الهباتي احتمالين : رضا المرأة أو الموت . لذلك فإن الغنى في حياة الصعاليك يقابله رضا المرأة في حياة الهبات . وفي الحالين لم يكن المال هدفاً في ذاته ولكنه وسيلة إلى غاية .

على أننا يجب ألا نغفل هنا حقيقة ذكرناها عن الفقر كسبب من أسباب الهبات ودافع من دوافع الإشتغال بها . هذه الحقيقة هي أن الفقر قد برز في وقتنا الحاضر هذا كسبب رئيسي من أسباب الإنخراط في هذا النوع من الحياة . وكما ذكرنا آنفاً ، فإن الكثيرين من الهبات ، خاصة في منطقة حمر ، يتحدثون عن الفقر كسبب قوى من أسباب إمتنانهم الهبات وسعيهم الدائب وراء الإبل . وهو ، أي الفقر ، لم يكن بارزاً في الصورة في مراحل الهبات الأولى كما هو اليوم .

(٥) النظم :

سبق أن حددنا النظم والقواعد التي تسير مجتمع الهبات ، ورأينا إلى أي مدى كان هذا المجتمع يتمتع بصور من التعاون بين أفرادها نذكر منها : واجب الرفيق نحو رفيقه « والسالف » وهو واجب الهباتي نحو الهباتي الآخر دون أن يكون هناك سابق معرفة ، ثم التعامل بين الهباتي والعميل . وقد شرحنا هذه الصور عندما تحدثنا عن نظم الهبات . وهذه الصور من التعاون ، والتي هي بمثابة الضمانات الاجتماعية ، تنفذ بصورة دقيقة . وإذا شد أحدهم عن الإلتزام بها عاقبه هذا المجتمع بالغلز وذلك بأن يمتنع الجميع عن تقديم أي عون له . وهكذا يتميز مجتمع الهبات بهذا التماسك القوي الذي تتوفر فيه كل الضمانات الاجتماعية في حالات المرض والعجز والسجن والحاجة .

إن هذا التنظيم الدقيق لمجتمع الهبات ليس له نظير في مجتمع الصعلكة ، أو على الأقل لم يصل إلينا ما يعين على تصوره في الدراسات التي قدمت عن الصعلكة . صحيح أن هناك الكثير من صور التعاون في مجتمع الصعلكة ولكن الضمانات التي يوفرها مجتمع الهبات للفرد فيه لا تتوفر للفرد في مجتمع الصعلكة - وصحيح أن الصعاليك كانوا يعطون إخوانهم الذين أقعدهم المرض والشيخوخة والعجز إلى درجة حرمان أنفسهم القوت الضروري . ولكن لا بد أن نلاحظ أن الناحية الإلزامية في حالة الهبات أقوى . وعموماً نستطيع أن نقول أن مجتمع الهبات أكثر تقدماً من الناحية التنظيمية من مجتمع الصعلكة وهو أكثر التزاماً بهذا التنظيم وأدق تنفيذاً للانس التي يقوم عليها هذا التنظيم .

(٦) القسيم والمزايا :

ليست هناك إختلافات جوهرية تذكر في هذه الناحية . فالقيم التي تتمسك بها كل من الجماعتين هي القيم المشهورة والمعروفة للعرب في كل زمان ومكان كالشجاعة والشهامة ، والكرم والجود والسخاء ، والمروءة والإغاثة ، ومراعاة الجار والعشير والوفاء للصديق والرفيق .

أما الشجاعة فهي تظهر في ثباتهم وأقدامهم حين يتصدى لهم أصحاب المال المنهوب أو في قطعهم للقيافي والقفار والتعرض لوحشها الرابض في أرجائها . وفي كل هذه الحالات فأنهم لا يترزحون ولا ترنج أوصالهم ولا ترتعد من الخوف قلوبهم .

وذلك ناتج بالطبع من إيمانهم بالمبدأ وتمسكهم بالمذهب الذي اختاروه لأنفسهم نسم أن الشجاعة من الصفات المنسوبة إلى العرب منذ القدم .

وانصفت الجماعتان بكرم النفس والبد . فالصعاليك يروى عنهم أنهم كانوا يبدلون كل ما في أيديهم إذا وجدوا أن هناك من هو في حاجة له ، بل يفيض الكرم حتى يسميه عروة (شركة) . يظهر ذلك في أبياته التي تمنى من أجلها الخليفة عبد الملك بن مروان أن يكون أبوه عروة بن الورد والتي يقول فيها :-

ولاني أمرؤ عافى أنائي شركة

ولانت أمرؤ عافى أنائك واحد

أتهزأ مني إن سمعت وإن تسمى

يجمي شحوب الحق والحق جاهد

أفرق جسمي في جسوم كثيرة

وأحسو قراح الماء والماء بارد

فالكرم قيمة متأصلة في الجماعتين قولاً وفعلاً . ومن هنا كان الغنى البخيل هو هدف الجماعتين (الزول العلى كمش النقود متعلم) .

وما يقال عن الشجاعة والكرم ، يقال كذلك عن المروءة ويقال أيضاً عن مراعاة الجار والعشير ، والوفاء للصديق . فهذه صور تتكرر في شعر الجماعتين . ومن ذلك قول عروة بن الورد في مراعاة الجار :-

وإن جارتى ألوت رباح بيتها

تغافلت حتى يستر البيت جانبه

وجاء في شعر الحمباته على لسان عبد الله ود المقدم :-

نحن الما بسمونا العريب وبين جيئ

نحن بتركب الدرشي (١) البجابد خيئو (٢)

١ - الدرشي : الحمل

٢ - خيئ : خيط ويعنى به الرن

نحن عشيرنا ما يشخونوا نخرب (١) بيئو

نحن عدونا يشعصروا (٢) ونطلع زيتو

وبجانب هذه القيم التي تشترك فيها الجماعتان ، كان للحمباته قيم أخرى لم ترد نظائرها عن الصعاليك . ومنها أنهم لا ينهبون بعض أنواع الإبل من مثل ما يسمونه « جمل الشيخ عبد القادر » و « جمل القيد » على نحو ما ذكرنا . كذلك فهم لا ينهبون « المائل » أي الإبل التي لا يجدون معها راعياً أو مالكا . كما أنهم لا ينهبون مال اليتيم ومال المرأة .

(٧) الشعر :-

أن أميز ما يجمع بين ظاهرتي الحمبة والصعلكة هو قدرة العاملين فيهما على التعبير عن أنفسهم وأسلوب حياتهم وقيمهم بالشعر . أما الشعر فانه يتفق هنا وهناك فسي موضوعاته وخصائصه .

(١) الموضوعات :-

لم تكن موضوعات شعر الحمباته تختلف عن موضوعات شعر الصعاليك ، إذا استثنينا حديث الحمباته عن علاقتهم بالسلطة . وما عدا ذلك فإنهم تناولوا نفس الموضوعات وهي :-

أ - الحديث عن الدوافع وراء سلوكهم .

ب - الحديث عن الرفاق ومواقفهم وموقف الفرد منهم نحو رفيقه .

ج - توجيه التهديد والوعيد إلى الذين يقصدونهم للنهب واللب .

د - وصف الأسلحة التي يستعملونها في مغامراتهم .

هـ - شرح موقفهم إزاء غيرهم ممن لم ينتهجوا نهجهم في الحياة .

و - تصوير القلق والإضطراب الذي تنسم به حياتهم .

ز - وصف المغامرات التي يخوضونها ووصف المعارك التي تدور مع خصومهم

وبذلك نرى أن شعر كل من الجماعتين هو عكس للواقع كما عاشوه وحكاية لما

مر بهم في الحياة دون إمعان في الخيال .

(٢) عصر : ضفط وألزم .

١ - غرب : ضد عمر

هذه هي الصورة العامة . ولكننا إذا تعمنا الشعر في كل حالة ودققنا النظر فيه ، لوجدنا أن شعر الجماعتين لم يكن يحتوى على تفاصيل مشتركة . ففي حالة الحديث عن الدوافع ، مثلاً ، نجد أن الصعاليك يركزون على الفقر وتكثر في شعرهم صيحات الجوع ، وذلك لأن الفقر هو سبب تصعلكهم الرئيسى . بينما نلاحظ أن هذه النغمة خافتة في شعر الهبابات . وفي مسألة الحديث عن الأسلحة ، نجد أن الصعاليك قد وقفوا عند تلك الأسلحة وقفة طويلة ورسوموا صورتها بتفصيل دقيق : وصفوا لونها ، وشكلها وطريقة صنعها الخ . ولم يتعد الهبابات في حديثهم عنها مجرد الإشارات ، فلم يصفوها ذلك الوصف الذى وصفه لنا الصعاليك . هذا على سبيل المثال لا الحصر . وهذا يرينا أن الصورة العامة للموضوعات في كلا الحالتين واحدة ، ولكن التفاصيل تختلف أحياناً .

(٢) الخصائص :-

يتفق شعرا الجماعتين في كثير من خصائصهما . وذلك مرده إلى نوع الحياة ذات الطابع الواحد التى جاءت الخصائص تتفق معها وتتأثر بها .

قلنا عن شعر الصعاليك أنه كان يأتي في شكل مقطوعات . وذلك يعنى خلوه من القصائد . ولاحظنا في شعر الهبابات خلوه من المسابير ، وهى قصائد تتألف من عدد من المربعات . والسبب في ذلك في كلا الحالتين واحد . فقد ذكرنا في تعليلنا لظاهرة خلوه شعر الهبابات من المسابير أن السبب في ذلك يرجع - فى رأينا - إلى طبيعة الحياة التى يجيئونها ، تلك الحياة التى يشوبها القلق والإضطراب . وهذا النوع من الحياة غير المستقرة على حال ، لا يتناسب مع التطويل والتشويق والتأني . ولذلك جاء شعرهم في شكل رباعيات تعبر تعبيراً مباشراً عن مكنون نفوسهم وتطرح قضيتهم في الحياة في بساطة ووضوح . وعن هذه الظاهرة في شعر الصعاليك يقول الدكتور خليف : « والعلة عندى هى طبيعة حياتهم نفسها ، تلك الحياة القلقة المشغولة بالكفاح في سبيل العيش التى لا تكاد تفرغ للفن من حيث هو فن يفرغ صاحبه لتطويله وتجويده وإعادة النظر فيه كما كان يفعل الشعراء القبليون . . . الخ » (١) .

الخاصة الثانية التى يشترك فيها الشعراءان هى خلوهما من الشعر القبلى ، أى الشعر الذى يتغنى بأعجاد القبيلة ويعدد مآثرها . وفى حالة الصعاليك تكاد تكون هذه الظاهرة أمراً طبيعياً لما نعلمه من إنقطاع صلتهم بقبائلهم وفقدانهم الإلتواء إليها . فليس من المتوقع - كما ذكرنا آنفاً - أن يقف الشخص مدافعاً أو مباحياً بعشيرة لفظته وقيبلته خلعتة . أما فى حالة الهبابات فإن الصلة بقبائلهم قائمة ، ولذلك فلا بد من وجود علة غير هذه . وهذه العلة هى - أنهم قد كونوا لأنفسهم مجتمعاً متميزاً له قيمه وتقاليده ومثله كما رأينا . وهو مجتمع يوفر للفرد الحماية والضمان الاجتماعى من غوائل الزمن . وتبعاً لذلك إنصهرت روح الفرد منهم فى روح الجماعة ، وأصبح إلتزامهم إلى الجماعة الجديدة أقوى من إلتزامهم إلى قبائلهم . ولذلك عبر هذا الفرد فى شعره عن قيم جماعة - ومدح أسلوبها فى الحياة .

جاء شعر الصعاليك خالياً من الغزل . وكذا الحال بالنسبة لشعر الهبابات . وقد كانت المرأة حاضرة فى حياة الجماعتين وشعرهما . ولكنهم جميعاً لم يلتفتوا إلى وصف محاسنها وإظهار الوله بها والتدله فى حبها . ومرة أخرى تتدخل طبيعة حياتهم لتفسر لنا هذه الظاهرة فى شعر الجماعتين . فالحياة المشغولة بالكفاح فى سبيل العيش أو فى سبيل اللهو ، حياة لا تصلح للوصف وتفصيل الصورة وإنما للتعبير السريع غير المتأنى والإشارة العابرة فى غير إسراف . وهذه الحياة نفسها شديدة الدوران مخوفة بالمخاطر والأحوال فأنشغلوا بها عن غيرها . هذا بالإضافة إلى أن علاقة الهبابات (والصعلوك) بالمرأة كانت علاقة حسية وجنسية غابتها المتعة إلى حد كبير . فهو لا يهتم بحبها ولا يملأ الأرجاء غناء بغزلها ووصفها .

كانت لغة شعر الصعاليك هى اللغة الأدبية التى عرفها العصر الجاهلى بكـل خصائصها . وهذه الخاصية - أى تمثيل هذا الشعر للغة الأدبية لذلك العصر - أعطت هذا الشعر وزنة خاصة فى مجال الدراسات اللغوية . وهذا الأمر ينطبق كذلك على شعر الهبابات . فلغة شعرهم هى لغة البادية العربية فى السودان بكل مميزات . وهذه الخاصية جعلت لشعر الهبابات أهميته ، خاصة فى مجال الدراسات التى تتعلق بمعاني وخصائص اللغة العامية فى السودان وإستعمالات مفرداتها وألفاظها .

وأخيراً إتصف شعر الجماعين بالواقعية ، فقد إستطاعوا أن يعبروا عن أنفسهم تعبيراً حكى الواقع كما عاشوه . فتعرضوا لجوانب حياتهم المختلفة وطرحوا آراءهم الاجتماعية والاقتصادية وأسباب إشتغالهم بهذا العمل . كما صوروا مظاهر البيئة البدوية التي كانوا يعيشون ويمارسون عملهم فيها . وأهم من ذلك أنهم لم يتغاضوا عن سلبيات حياتهم وعيوبها . ولا أخال أننا في حاجة إلى تكرار ما تحدثنا عنه من جوانب هذه الواقعية ومظاهرها في شعر الجماعين . فذلك ما يمكن مراجعته في موقعة .

ومن هذه المقارنة بين ظاهرتي الصعلكة في الجزيرة العربية والهمته في السودان نخرج بالتأنيب التالية :-

- (١) أساس الظاهرتين هو فكرة السلب واللبس عن طريق الغزو والإغارة .
- (٢) المسرح الذي شهد أحداثهما هو البادية الرعوية في كلتا الحالتين مما يدفع على الاعتقاد على أن حياة البوادي تساعد على ظهور مثل هذه الظواهر .
- (٣) المجتمع الذي شهد أحداث الظاهرتين هو مجتمع عربي في كلا الحالتين .
- (٤) لم يكن المجتمع القبلي في العصر الجاهلي يقر تلك الأعمال التي كان الصعاليك يقومون بها والتي بنوا عليها حياتهم ، بينما نجد أن المجتمع القبلي في بادية السودان يقر الهباني على عمله ويؤيده بل ويحرضه للقيام به .
- (٥) أن قيم ومزايا الجماعين واحدة . إلا أن الهبته بالإضافة للقيم العامة ، قيم خاصة تنفرد بها . وتلك القيم من طبيعة الهبته نفسها وظروفها الخاصة .
- (٦) كانت الدوافع القوية في الحالتين أما إجتماعية تتعلق بمفاهيم المجتمع ومعتقداته وقيمه وتقاليد . وأما إقتصادية تنبع من خصائصه الإقتصادية وتوزيع الثروة فيه . والإختلاف في حالة الدوافع الإجتماعية أوضح منه في حالة الدوافع الإقتصادية .
- (٧) كانت الهبته ومجتمع الهبته أكثر تنظيمياً من الصعلكة ومجتمع الصعلكة .
- (٨) كان لكل جماعة منهما القلعة على التعبير عن نفسها وقيمتها وأسلوب حياتها بالشعر . وكان الشعراء يتطابقان في موضوعاتهما وخصائصهما إلى حد كبير .

خاتمة

من هذا نخلص إلى الآتي :

أولاً :-

إن الهبته في معناها ودلالاتها هي : طريقة في الحياة تقوم على سلب ونهب الإبل عن طريق الغزو والإغارة ، والجماعة « هبانية » والمنسرد « هباني » . واصل التسمية من غرب السودان . ورغم أن لفظ « الهبته » « الهبته » إشتهرا للدلالة على هذه الظاهرة والمشتغلين بها إلا أن هناك ألفاظاً أخرى تختلف باختلاف البيئات وتستعمل للدلالة على هذا الأسلوب في الحياة وسالكيه . ومن ذلك إهم في البطانة يطلقون على هذه الجماعة « المهاجرة » وعلى الطريقة نفسها « المهجر » كما يقولون « الهاصين » والطريقة « النهيضة » . ومن ذلك أيضاً أنه في وسط قبيلة حمر تعرف هذه الجماعة بـ « السراجة » .

ثانياً :-

هذه الظاهرة شهدتها مناطق البادية الرعوية في السودان ، وخاصة مناطق تربية الإبل في باديتي كردفان والبطانة .

ثالثاً :-

من الناحية التاريخية نستطيع الرجوع بهذه الظاهرة ، كما تدل على ذلك النصوص التي بين أيدينا ، إلى الحكم التركي في السودان الذي بدأ في الربع الأول من القرن التاسع عشر .

رابعاً :-

كانت بعض القبائل أكثر شهرة من غيرها بممارسة الهبته . ومن القبائل البطاحين والشكرية في البطانة وحمر ودار حامد والكبابيش في كردفان . وهذه القبائل ، أي التي إشتهرت بالهبته ، هي من القبائل ذات الأصل العربي . كما أن بعض الأفراد أكثر شهرة من غيرهم في إنتهاج هذا الأسلوب من أمثال الطيب ود ضحوية وطه الضيرير .

خامساً :-

كان لهذه الظاهرة أصلها في المجتمع البدوي في السودان . فقد سبقتها إلى الوجود ظواهر شبيهة بها إلى حد كبير . إلا أن تلك الظواهر كانت ممارسات جماعية تقوم بها القبيلة كلها ، بينما المهبة ممارسة فردية وأن كانت القبيلة تدعمها . ولكن العنصر الأساسي . الذي يربط المهبة بتلك الظواهر هو أن الأساس في الحالين هو النهب والسلب عن طريق الإغارة والغزو ، كما أنهما يلتقيان في الناحية « التاكتيكية » . ومن تلك الظواهر « النهيض » في كردفان « والقيمان » في بادية البطانة وغيرها .

سادساً :-

كانت المهبة تتم برضاء القبيلة وموافقتها بل بأثارها وتحريضها . وذلك نابع من ضرورة التزام الفرد في المجتمع القبلي في البادية بالتقيد بتقاليد القبيلة وعاداتها وقيمتها والتصرف وفقاً لمفاهيمها ومعتقداتها .

سابعاً :-

وراء هذه الظاهرة أسباب ودوافع إقتصادية وإجتماعية نابعة من طبيعة الحياة في البادية ومرتبطة بظروفها . فمن الناحية الإقتصادية مثلاً ، نجد أن الهيكل الإقتصادي في البادية يركز على طبقتين أساسيتين : طبقة تملك كل شيء وطبقة لا تملك شيئاً . وكان من الطبيعي أن يحدث صراع بين الطبقتين كانت المهبة إحدى ظواهره . ومن الناحية الإجتماعية نجد أن موقف المرأة ووظيفتها الإجتماعية تشكل عاملاً مؤثراً في نشأة هذه الظاهرة وإستمرارها وإستمرارها . وبجانب ذلك كانت هناك دوافع خاصة نابعة من ظروف الفرد نفسه كحب المغامرة وتعويض المال المنهوب .

ثامناً :-

للمهبة نظمها الخاصة التي تحكمها وتنظم العلاقة بين أفراد مجتمعيها . ومجتمع المهبة نفسه مجتمع متماسك ومتحد تحف به ضمانات إجتماعية تدفع الفرد إلى التماهي فيها وعدم الإكتراث للثناج مهما كانت صورتها القائمة . ومن هذه الضمانات ما تمثل في « قوانين المرافقة » و « السالف » .

تاسعاً :-

ارتبطت بظاهرة المهبة بعض القيم والمثل العليا . وبعض هذه القيم عبارة عن قيم العربي في كل زمان ومكان كالشجاعة والكرم والمروءة الخ . ومن هذه القيم جزء خاص بها نابع من طبيعتها . من ذلك أن المهبات لا ينهبون مال اليتيم و « الحامل » و « الزاملة » وغير ذلك مما فصلنا الحديث فيه .

عاشراً :-

للمهبة شعرها الخاص بها والمعبر عنها . وقد استطاع المهبات عن طريق هذا الشعر تسجيل تفاصيل حياتهم ومكونات مجتمعيهم من حيث التنظيم والإلتزام بالقيم . كما عبر المهبات من خلال هذا الشعر عن أفكارهم وآرائهم ودافعوا عن مذهبهم في الحياة ووضحوا الأسباب الكامنة وراء هذا السلوك . كما أنهم دعوا لهذا المذهب وإفتخروا به وهجوا المقصرين عنه . وقد كان لهذا الشعر عدة ظواهر موضوعية وفنية . فمن الظواهر الموضوعية أن هذا الشعر إنسم بالواقعية ، إذ أنه حكى الجوانب المشرقة والمظلمة في حياتهم . ومن الناحية الفنية يمثل هذا الشعر لغة البادية العربية في السودان وبشكل في بعض ألفاظه قاموساً خاصاً بهم .

حادي عشر :-

وهناك بعض نقاط الإلتقاء والإتفاق بين المهبة والصلحكة العربية . وأول هذه النقاط هو أن كلتا الظاهرتين تقومان على فكرة الغزو والإغارة للسلب والنهب . على أنه هناك بعض الاختلافات الجوهرية بين الظاهرتين .

بیت المراجع والمصادر

- ١ - يوسف فضل حسن (محقق) ، كتاب الطبقات لابن خليف الله ، دار الطباعة ، جامعة الخرطوم ١٩٧١ م.
- ٢ - عبد المجيد عابدين ، تاريخ الثقافة العربية في السودان ، بيروت ، دار الثقافة ١٩٦٧ م.
- ٣ - عبد الله علي ابراهيم وأحمد عبد الرحيم نصر : من أدب الرباطات الشعبي ، شعبة أبحاث السودان ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم ١٩٦٨ م.
- ٤ - يوسف فضل : دراسات في تاريخ السودان ج ١ ، دار التأليف والنشر ، جامعة الخرطوم ١٩٧٥ م.
- ٥ - نعم شقير : جغرافية وتاريخ السودان ، بيروت ، دار الثقافة ١٩٦٧ م.
- ٦ - أحمد عبد الرحيم نصر : تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم الشعبية ، شعبة أبحاث السودان ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم ١٩٦٩ م.
- ٧ - عبد المجيد عابدين : في الشعر السوداني ، بيروت ١٩٧٢ م.
- ٨ - محمد محمد حسين : أساليب الصناعة ، القاهرة دار المعارف ١٩٦٠ .
- ٩ - عز الدين اسماعيل : الشعر القومي في السودان ، بيروت ، دار العودة ، بلا تاريخ .
- ١٠ - التيجاني عامر : السجلات العربية السودانية في النيل الأبيض ١٩٧١ .
- ١١ - الشيخ أحمد الاسكندري : الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ، المطبعة السلفية بمصر ١٩٢٤ .
- ١٢ - عبد الله عبد الجبار ومحمد عبد المنعم خفاجه : قصة الأدب في الحجاز ، القاهرة ١٩٥٨ .
- ١٣ - شوقي ضيف : تاريخ الادب العربي « العصر الجاهل » ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٥ .
- ١٤ - سيد حنفي حسين : الشعر الجاهل : مراحله واتجاهاته الفنية ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١ .
- ١٥ - أحمد محمد الحوفي : الحياة العربية من الشعر الجاهل ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ١٩٦٢ .
- ١٦ - ديوان عمرو بن ورد ، شرح ابن السكيت ، مطابع وزارة الثقافة والارشاد القومي ، سوريا ١٩٦٧ .
- ١٧ - سيد حامد حريز : فن المصدر ، الخرطوم ، دار التأليف والترجمة والنشر جامعة الخرطوم ١٩٧٦ .
- ١٨ - الطيب محمد الطيب : دواي ، الخرطوم ، دار الطابع العربي بلا تاريخ .
- ١٩ - تاريخ ابن خلدون ج ١ ، بيروت ، مؤسسة الأعلى للمطبوعات ١٩٧١ م.
- ٢٠ - جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، القاهرة ، دار الهلال ١٩٥٧ .
- ٢١ - مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب ج ٣ ، القاهرة ، مطبعة الاستقامة ١٩٤٠ م.
- ٢٢ - ابن عبد ربه : العقد الفريد ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٢ م.
- ٢٣ - أحمد كمال زكي : شعر الهذليين في العصر الجاهل والاسلام ، القاهرة ، دار الكاتيب العربي ١٣٨٩ م.
- ٢٤ - محمد بديع شريف (محقق) : لامية العرب ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ١٩٦٨ م.
- ٢٥ - المفضليات : أنظر المفضل الضبي .
- ٢٦ - المفضل الضبي : المفضليات (تحقيق) أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، الطبعة الثالثة ، القاهرة دار المعارف ، ١٩٦٤ .
- ٢٧ - عون الشريف قاسم : قاموس اللهجة العامية في السودان ، بيروت ، دار الفكر والدار السودانية ١٩٧٢ .

- ٢٨ - صلاح الدين علي الشامي : السودان ، دراسة جغرافية ، الاسكندرية ، ١٩٧٢ .
- ٢٩ - عبد المجيد عابدين والمبارك ابراهيم : الحارثي شاعر البطالة ، الطبعة الثانية ، الخرطوم ، مطبعة مصر ، يوليو ١٩٥٨ .
- ٣٠ - أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ج ٢ و ٣ و ٤ ، بيروت ، دار الفكر ١٣٩٠ م.
- ٣١ - المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد الكامل في اللغة والأدب ، ج ١ و ٢ ، دار العهد الجديد للطباعة بالخرنقش ، بلا تاريخ .
- ٣٢ - أحمد الشاذلي : تاريخ الشعر السياسي ، القاهرة ، ١٩٤٤ .
- ٣٣ - ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج ١ و ٢ ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٩ .
- ٣٤ - لويس شيخو اليسوعي : شعراء النصرانية قبل الاسلام ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار المشرق . بلا تاريخ .
- ٣٥ - عبده بلوي : الشعراء السود ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ .
- ٣٦ - بطرس البستاني : الشعراء الفرسان ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار المكشوف ، ١٩٤٤ .
- ٣٧ - صلاح مصطفى الفوال : علم الاجتماع البدوي ، من سلسلة علم الاجتماع والتنمية ، القاهرة دار النهضة العربية ١٩٧٤ .
- ٣٨ - يوسف خليف : الشعراء الصعاليك في العصر الجاهل ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٩ .
- ٣٩ - محمد أحمد ابراهيم : ملاحم من التراث الشعبي لقبيلة حمر ، شعبة أبحاث السودان ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم ، مارس ١٩٧١ .
- ٤٠ - الطيب محمد الطيب : التراث الشعبي لقبيلة البطاحين ، معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية ، جامعة الخرطوم ، يونيو ١٩٧١ .
- ٤١ - سيد حامد حريز : من مساهمات الشكرية ، شعبة أبحاث السودان ، جامعة الخرطوم ، كلية الآداب ، ١٩٦٩ .
- ٤٢ - محمد محمد الزلجاني : تجديد التقاليد ، سلسلة الثقافة الجماهيرية ، وزارة الثقافة والاعلام السودانية ، الخرطوم مايو ١٩٧١ .
- ٤٣ - عز الدين اسماعيل : الشعر العربي المعاصر ، القاهرة ، دار الكاتيب العربي ، ١٩٦٧ .
- ٤٤ - علي أحمد صديق : الطيب ودضحوية ، مقال بمجلة الاذاعة والتلفزيون والمسرح ، الخميس ١١ يونيو ١٩٧٤ .
- ٤٥ - علي أحمد صديق : الطيب ودضحوية من الشعراء الصعاليك ، مقال بمجلة الخرطوم ، ٢١ رمضان ١٣٨٩ هـ ديسمبر ١٩٦٩ م .
- ٤٦ - مجذوب محمد الحاج : الهبانية ، مقال بمجريدة الصحافة عدد الاثنين ٢٣ ديسمبر ١٩٧٤ .
- ٤٧ - أحمد عبد الله أحمد مساعد : الهبانية ، مقال بمجريدة الصحافة ، عدد الأربعاء ١٨ ديسمبر ١٩٧٤ .
- ٤٨ - مصطفى أحمد عوض : دراسات في الأدب الشعبي ، مجلة الخرطوم ، المجلد أول نوفمبر ١٩٦٦ م .
- ٤٩ - علي أحمد صديق : الهبانية رجال ومواقف ، مجلة الخرطوم ، عدد أول سبتمبر ١٩٧٤ .
- ٥٠ - فهرس الفلكلور العام ، شعبة الفلكلور ، معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية ، جامعة الخرطوم ، مطبعة جامعة الخرطوم يوليو ١٩٧٦ م .

تسجيلات صولية

توجد هذه التسجيلات في أرشيف معهد الدراسات الافريقية والآسيوية

- ١٠٩/١/١/د/م
- ٣٥٢/١/١/د/م - ٣٥١/١/١/د/م - ٣٥٠/١/١/د/م
- ٣٥٥/١/١/د/م - ٣٥٤/١/١/د/م - ٣٥٣/١/١/د/م
- ٣٥٨/١/١/د/م - ٣٥٧/١/١/د/م - ٣٥٦/١/١/د/م
- ٣٥٩/١/١/د/م
- ٦٦١/١/١/د/م
- ١٨٩٥/١/١/د/م - ١٨٩٤/١/١/د/م - ١٨٩٣/١/١/د/م
- ١٨٩٨/١/١/د/م - ١٨٩٧/١/١/د/م - ١٨٩٦/١/١/د/م
- ١٩٠١/١/١/د/م - ١٩٠٠/١/١/د/م - ١٨٩٩/١/١/د/م
- ١٩٠٤/١/١/د/م - ١٩٠٣/١/١/د/م - ١٩٠٢/١/١/د/م
- ١٩٠٧/١/١/د/م - ١٩٠٦/١/١/د/م - ١٩٠٥/١/١/د/م
- ١٩٠٩/١/١/د/م - ١٩٠٨/١/١/د/م

